علم المعانى

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

تأليف
د. بسيونى عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع

دار المعالم الثقافية
الأحساء
للنشر والتوزيع

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الجزء الثاني

تأليف

د. بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مكتبة لسان العرب

مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة

دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع - الأحساء

مكتبة لسان العرب
أ علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن سلك سبيله ومضى على نهجه إلى يوم الدين . . .

أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب: «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية»، وقد سبقه الجزء الأول الذي تناول دراسة أجزاء الجملة : «المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل»، فكشف عن دقائقها، وجلى أسرارها، وأبرز ما يكمن وراء أحوال كل جزء منها من لطائف ومزايا بلاغية.

أما هذا الجزء فيتناول دراسة الجملة وما يكمن وراء أبنيتها وصياغاتها من دقائق وأسرار، كما يتعرض لعلاقة الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل، فيكشف عن الضوابط والملاحظات التي ينبغي مراعاتها عند التقاء الجملة بغيرها.

وقد تكون من أربعة فصول :

الفصل الأول: دراسة أساليب القصر .

الفصل الثاني: دراسة أساليب الإنشاء.

الفصل الثالث: دراسة مواضع الفصل ومواضع الوصل.

الفصل الرابع: دراسة الإيجاز والإطناب.

وحتى يؤتي الكتاب ثمرته المرجوة، ويحقق الغاية المنشودة، والهدف المقصود، فقد عرضنا في كل فصل من هذه الفصول لكثير من الشواهدوالأمثلة من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة، وأوضحنا ما يكمن وراء الأبنية والصياغات فيها من مزايا وأسرار بلاغية.

فالله عز وجل أسأل أن تتحقق الغاية المرجوة من هذا الكتاب، وأن ينتفع به طلبة العلم ومحبو المعرفة، وأن يجزينا خير الجزاء، ويهدينا سواء السبيل، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

د. بسيوني عبد الفتاح بسيوني

عنيزة - القصيم - المملكة العربية السعودية

في ١٧ رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

الفصل الأول

أساليب القصر

أساليب القصر من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات العديدة، فهو فن دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار.

انظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

تجده يفيد المبالغة في وصف مصعب بالشجاعة والإقدام بعبارة مختصرة وأسلوب موجز، وقد آثر الشاعر التعبير بإنما ليدل على أن اتصاف مصعب بصفة الشجاعة أمر ظاهر بين، فتلك خصوصية من خصوصيات «إنما» وبهذا يتضح لك أن أسلوب القصر في البيت، قد حقق ثلاث مزايا: الإيجاز والمبالغة والدلالة على شهرة مصعب وذيوع شجاعته.

ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين تلك الطرق من فروق دقيقة، واعتبارات وملاحظات لطيفة.

هذا والقصر في اللغة معناه: الحبس، يقال: قصرته أي حبسته، وهو مقصور أي: محبوس، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾[1]، أي: محبوسات قد قصرن نظرهن على أزواجهن، فالمرأة قاصرة الطرف هي التي تحبس طرفها على بعلها وتخصه به فلا تمده إلى غيره.

---

(١) سورة الرحمن: ٧٢.

وفي اصطلاح البلاغيين: «هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص» فعندما نقول: زهير شاعر لا كاتب، فإننا نخص زهيراً بصفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة، فزهير مقصور، والشعر مقصور عليه. وقد قيد البلاغيون التخصيص «بالطريق المخصوص»، ليخرج كل ما أفاد القصر بغير تلك الطرق المخصوصة، فقولنا: زيد مقصور على العلم.. وجاء محمد وحده.. وعلي يختص بالشعر.. وخالد ينفرد بالشجاعة.. وقال أبو ذؤيب:

وإذا المنيـــة أنشبت أظفارهـــا ... ألفيت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

هذه الأقوال وإن أفادت اختصاص شيء بشيء إلا أنها لا تدخل في نطاق دراسة البلاغيين وميدان بحثهم لأن التخصيص فيها لم يتم عن الطرق المعهودة التي حددوها.. وعند التأمل نجد أن إفادة القصر بغير الطرق التي حددها البلاغيون، ليس وراءها اعتبارات بلاغية تستدعي الدراسة والبحث، ولذا حصر البلاغيون دراسة القصر في تلك الطرق الغنية بالاعتبارات والملاحظات الدقيقة.. وهي: «التقديم» كقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾(١).. «والعطف» نحو: محمد كاتب لا شاعر.. و«إنما» كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا**﴾(٢).. والنفي والاستثناء كقوله عز وجل: ﴿**إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ**﴾(٣).. وأضاف بعضهم: «تعريف المسند أو المسند إليه بأل الجنسية»، «وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر» نحو: محمد الجواد.. وعلي هو العالم.. وزاد بعضهم طرقاً أخرى حتى وصلت طرق القصر عندهم إلى أربعة عشر طريقاً(٤).

ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو الطرق الأربعة الأولى لأنها هي الغنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها..

والبلاغيون في دراستهم لأسلوب القصر ينظرون إلى غرض المتكلم من الاختصاص.. وإلى حال المخاطب التي وقف عليها المتكلم فأحدث هذا التخصيص.. وإلى طرفي القصر أي المقصور والمقصور عليه.. ثم إلى طرق القصر المشهورة وما بينها من فروق واعتبارات.. فالقصر كما عرفوه: «تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص» الشيء الأول هو المقصور والثاني المقصور عليه، ومعنى اختصاص المقصور بالمقصور

---

(١) سورة الفاتحة: ٤.
(٢) سورة النازعات: ٤٥.
(٣) سورة فاطر: ٢٣.
(٤) الإتقان جـ ٢ ص ٥٠.

عليه: ألا يتجاوزه ويتعداه إلى غيره.. ففي قولنا: «ما شاعر إلا زهير» قصر للشاعرية على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره.. وهذا الغير الذي انتفت عنه صفة الشعر إن كان عاماً فالقصر حقيقي، وإن كان معيناً فالقصر إضافي.. والعام إن كان مطابقاً للواقع الخارجي فالقصر حقيقي تحقيقي، وإن كان مبنياً على الادعاء والمبالغة فهو حقيقي ادعائي.. ثم القصر الإضافي ينظر فيه إلى حال المخاطب فهو إما أن يكون متردداً في إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عن المنفي عنه.. وإما أن يكون معتقداً الشركة أي: اشتراك المنفي عنه والمقصور عليه في المقصور.. وإما أن يعتقد العكس أي: إثبات المقصور للمنفي عنه ونفيه عن المقصور عليه.. فالأول قصر التعيين والثاني قصر الإفراد والثالث قصر القلب.

ثم ينظرون إلى طرفي القصر، أي: المقصور والمقصور عليه، لأنه لابد أن يكون أحدهما موصوفاً والآخر صفة، ولذا فالقصر إما أن يكون قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة..

هذا وليست طرق القصر سواء في الدلالة عليه، بل بينها فروق دقيقة - كما قلت- تحتاج من الدارس لكي يقف عليها إلى تأمل واع ونظر دقيق ثم إن تحديد المقصور والمقصور عليه ليس بالشيء الهين، بل يحتاج من الدارس أيضاً إلى نظر وتأمل في أسلوب القصر، فمثلاً قولك: إنما ضرب محمد زيداً يفيد قصر الضرب الواقع من محمد على زيد، وقولك إنما ضرب زيداً محمد، يفيد قصر الضرب الواقع على زيد، على فاعله محمد، وبينهما فرق كبير. هذا إجمال مخل لما ذكره البلاغيون في حديثهم عن أساليب القصر، ولكي يتبدد هذا الإخلال فتقف على مزايا القصر وأسراره ودقائقه، فإننا سنتبعه بالتفصيل والإيضاح والبيان فيما يلي إن شاء الله.

القصر الحقيقي والقصر الإضافي:

ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم وما يقصد إليه إلى قسمين:

قصر حقيقي، وقصر إضافي.

فالقصر الحقيقي: ما كان غرض المتكلم منه أن يختص المقصور بالمقصور عليه حيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً. وهذا يعني أن المنفي عنه يكون عامًا، فالمقصور مختص بالمقصور عليه منفي عن كل ما عداه.. كما في قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا**

إلاَّ هُوَ﴾[1] ، ففي الآية طريقان من طرق القصر الأول التقديم «وعنده مفاتح الغيب» ، والثاني : النفي والاستثناء «لا يعلمها إلا هو» فمفاتح الغيب عنده وليست عند غيره ، وعلمها مقصور عليه تعالى ، منفي عن كل ما عداه ، وتكرار القصر أفاد تأكيد هذه الحقيقة وتقريرها ، وهي أن العلم بالغيب مختص به تعالى ، لا يتعداه إلى أحد من خلقه . . ومنه قولنا : «ما خاتم الأنبياء إلا محمد» ، فالمراد : أن ختم النبوة مقصور على محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يتعداه إلى غيره من الرسل . . وقوله عز وجل : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾[2] فالمراد قصر العبادة على الله تعالى بحيث لا تتعداه إلى غيره مطلقاً . .

والقصر الإضافي: أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين ، أي بالإضافة إليه ، بحيث لا يتجاوزه إلى ذلك المعين . . كما في قولنا : زهير شاعر لا كاتب ، فالمراد : قصر زهير على صفة الشعر ، بحيث لا يتجاوزها إلى صفة معينة محددة ، وهي صفة الكتابة . . وهذا لا ينافي أن يكون لزهير صفات أخرى كالخطابة مثلاً ، ففي القصر الإضافي يكون المنفي معيناً محدداً ، والمراد ألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى هذا المنفي المعين . وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره . . ومنه قولنا : الشاعر ذو الرمة لا زياد ، فصفة الشعر مقصورة على ذي الرمة ، لا نتعداه إلى زياد ، وإن صح أن تتعداه إلى نصيب والكميت وجرير والفرزدق وغيرهم من الشعراء . .

هذا وينفسم القصر الحقيقي إلى قسمين : حقيقي تحقيقي وحقيقي ادعائي . .

فالتحقيقي: ما كان المنفي فيه عاماً يتناول كل ما عدا المقصور عليه من حيث واقع الحال وحقيقة الأمر ، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره في واقع الأمر وحقيقة الحال ، كما في الشواهد التي مرت بنا وكما في قولك : ما أكرمت إلا زيداً ، إذا كان الإكرام لم يقع منك إلا على زيد في واقع الأمر وحقيقته . . ومنه قولنا : «لا يحج إلى مكة إلا المسلمون» ، فالواقع يطابق هذا ؛ لأن الحج إلى مكة مقصور على المسلمين ، ومنفي عن كل من عداهم من أصحاب الملل الأخرى . . ومنه قوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] ، فالملك مختص بالله في الحقيقة والواقع ومنفي عن كل ما عداه

---

(١) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٣) سورة الملك : ١ .

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١)، فالعبادة وطلب العون مختصان بالله، ومنفيان عن كل ما عداه في واقع الأمر وحقيقته* وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٢)، فغفران الذنوب مختص بالله تعالى، منفي عما عداه في الواقع والحقيقة.. ونلاحظ أن المقصور في جل الشواهد المذكورة صفة، والمقصور عليه موصوف، فالقصر الحقيقي التحقيقي يقع كثيراً في الكلام إذا كان المقصور صفة، ويقل في قصر الموصوف على الصفة، لأن الغالب في الموصوف أن يتصف بعدة صفات ولا يوقف على صفة واحدة.. أما الصفة فيجوز وقفها على موصوف واحد وحصرها فيه.. وقد غالى بعض البلاغيين فقالوا إن قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً تحقيقياً لا يتأتى لأنه ما من موصوف إلا وله صفات كثيرة تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر، فإذا قلنا: ما زهير إلا شاعر.. وما زياد إلا كاتب.. لا يتأتى أن يكون زهير مقصوراً على صفة الشعر لا يتجاوزها إلى غيرها.. ولا أن يكون زياد موقوفاً على الكتابة لا يتعداها إلى غيرها.. كيف وهما يأكلان ويتكلمان ويمشيان، ويتصفان بالحياة، وبالبياض أو السواد وبالقصر أو الطول وبالذكاء أو الغباء.. إلى آخر ما يمكن أن يتصف به الحي؟.

بل إن البعض خرج بالمسألة عن نطاق الدراسة البلاغية، فقالوا: إن الصفة المنفية لها نقيض البتة، وهذا النقيض من الصفات، فإذا نفيت جميع الصفات لزم ارتفاع النقيضين.. واحتدم النقاش واشتد الأخذ والرد، ودخلت المسألة في مماحكات كلامية ينبغي أن ينزه عنها الدرس البلاغي، لأنها من الشوائب التي تعكر صفوه وتكدر عذبه(٣).. ولو تنبه هؤلاء إلى قول عبد القاهر: «واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخر نحو ما زيد إلا قائم، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها، ونفيت ما عدا القيام عنه، فإنما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالساً أو مضطجعاً أو متكئاً أو ما شاكل ذلك ولم ترد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل، إذ لسنا ننفي عنه بقولنا ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلاً أو قصيراً أو عالماً أو جاهلاً، كما أنا إذا قلنا ما قائم إلا زيد لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواه وإنما نعني ما قائم

---

(١) سورة الفاتحة: ٥. (٢) سورة آل عمران: ١٣٥.

* قصر العبادة على الله تعالى قصر حقيقي تحقيقي، أما قصر الاستعانة عليه تعالى فهو قصر حقيقي غير تحقيقي، لأن الاستعانة بغير الله كلا استعانة.

(٣) انظر إن شئت شروح التلخيص والمطول.

حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك»[1] لو تنبهوا إلى هذا القول ما خرجوا بالمسألة عن نطاق الدرس البلاغي وخاضوا بها الخوض الذي خاضوه . .

وخلاصة القول أن المنفي عنه في القصر الحقيقي التحقيقي، ما هو بسبيل من المقصور عليه، وواقع في دائرته، ويتبادر إلى الذهن عند سماع أسلوب القصر، «فإذا قلت ما شاعر إلا زيد فإنك لا تعني نفي الشاعرية عن كل من ولدته حواء في كل العصور وكل الأمم، وإنما تعني نفي الشاعرية في حدود ما يشير السياق والقرائن»[2] وكذا إن قلت ما زهير إلا شاعر، لا يعني أنك تنفي عن زهير كل صفة غير الشعر، وإنما يعني أنك تنفي عنه كل ما هو بسبيل من صفة الشعر كالخطابة والكتابة، وكل ما هو في نطاق القول والإبداع مما يحدده السياق وتشير إليه القرائن . .

أما القصر الحقيقي الادعائي، فهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره، ادعاء ومبالغة، فالمقصور يختص بالمقصور عليه وينفي عن كل ما عداه مما هو بسبيل منه نفياً يقوم على المبالغة والتجوز، ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع . . كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3]، فقد قصرت خشية الله على العلماء ونفيت عن كل ما عداهم . . ولا يعني هذا أن غير العالم لا يخشى الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكن سياق الآيات في التنويه بشأن العلماء وتعظيم منزلتهم، والحث على النظر والتأمل اقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..﴾، ولذا كانت خشية الله مقصورة على العلماء دون غيرهم، لأن خشية غيرهم لا يعتد بها في هذا المقام . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ...﴾[4]، أثبت موسى عليه السلام، ملكيته لنفسه ولأخيه ونفاها عن كل ما عداهما، والمراد: لا أملك في سبيل الله والدفاع عن كلمة الحق إلا نفسي وأخي، والسياق يرشد إلى أنه كان هناك

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٥ .
(٢) دلالات التراكيب ص ٤٢ .
(٣) سورة فاطر : ٢٨ .
(٤) سورة المائدة : ٢٥ .

رجلان يخافان الله، قد أنعم الله عليهما بالإيمان، ولكن موسى لم يعتد بإيمانهما، نظراً لتقلب قومه وتغير أحوالهم ولذا قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ..﴾.

ومن ذلك قولنا: ما شاعر إلا زهير.. وما الرثاء إلا رثاء ابن الرمي.. وما خطيب إلا زياد.. فقد بنى القصر على الادعاء والمبالغة وعدم الاعتداد بغير زهير في الشعر، وبغير ابن الرومي في الرثاء الحزين المؤلم، وبغبر زياد في الخطابة وحسن البيان.. ومنه قول الشاعر:

لا سيـــــف إلا ذو الفقـــا ر ولا فـــتـــى إلا عـــلـــى

فالمراد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار وهو سيف الإمام علي - كرم الله وجهه- ونفيها عما عداه، وإثبات الفتوة له - رضي الله عنه - ونفيها عن غيره، ادعاء ومبالغة في قوته وشجاعته، فهناك سيوف كثيرة ماضية نفاذة وهناك ألوان من الفتوة والبطولة لا تقل عن بطولته - كرم الله وجهه- ولذا كان القصر في البيت من قبيل الادعاء والمبالغة.. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها..» فقد قصر الحسد بمعنى الغبطة على هاتين الصفتين، ونفى عما عداهما ادعاء ومبالغة؛ لأن الغبطة تكون في غير الاثنتين المذكورتين ولكنه نزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الادعاء.. هذا والقصر الادعائى كثير في كلام العرب، ويرد في مقامات المبالغة والمدح والتعظيم نحو قولهم: ما مؤدب إلا فلان.. ما عالم إلا فلان.. ما شاعر إلا امرؤ القيس.. ما خطيب إلا صحار العبدي.. ما كاتب إلا فلان.. يبنون الكلام في ذلك على المبالغة وعدم الاعتداد بغير المذكور في تلك الصفات..

قصر الإفراد والقلب والتعيين:

تقدم أن القصر الإضافي، ما يكون المنفي فيه معيناً ومحدداً، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتجاوزه إلى ذلك المعين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ. إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾(١)، حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار، دون أن يملك تحويل القلوب عما هي عليه من العناد والمكابرة.. وكما في قول الشاعر:

---

(٤) سورة فاطر: ٢٢، ٢٣.

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني　　　أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصرت الشكوى على «الله» عز وجل بحيث لا تتعداه إلى شيء معين وهو «الناس» . . وهذا القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال حال المخاطب، واعتقاده الذي وقف عليه المتكلم، إلى ثلاثة أقسام: قلب. . . وإفراد. . . وتعيين.

فقصر القلب:

هو تخصيص أمر بأمر مكان آخر. . ويخاطب به من يعتقد العكس، كقولك: جاءني زيد لا عمرو، مخاطباً من يعتقد أن عمراً هو الذي جاءك دون زيد، فأنت تعكس وتقلب ما يعتقده ولذا سمي قصر قلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾[1]؛ لأن المنافقين يعتقدون أن المؤمنين هم السفهاء دونهم، فقلب الله عز وجل اعتقادهم وبين أن المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون. . وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ..﴾[2]، فالنصارى يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ...﴾، فقلب الله تعالى اعتقادهم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، فالمسيح مقصور على كونه رسولاً يخلو كما خلت الرسل من قبله، ولا يتجاوز ذلك إلى كونه إلهاً كما اعتقد الكفرة، ولذا فالقصر في الآية الكريمة قصر قلب. .

وتأمل قول أبي تمام:

والعلم في شهب الأرماح لامعة　　　بين الخميسين لا في السبعة الشهب

تجده قد قصر العلم على كونه في قوة الجيش والعتاد، ونفاه عن كونه في علم المنجمين الذين نصحوا المعتصم بألا يقبل على الجهاد في ذلك الوقت، لأن النجوم تنبيء بأن يتريث ولا يتعجل، ولكن المعتصم لم يعبأ بما قالوا، وأقبل إلى الجهاد، فانتصر وفتح عمورية، وأنشد أبو تمام هذه القصيدة مشيداً بنصره، ومشيراً إلى قصور علم المنجمين. . فالقصر في البيت المذكور قصر قلب، لأنهم اعتقدوا أن العلم في السبعة الشهب لا في قوة الرماح والجيش، فنفى أبو تمام هذا وأثبت عكسه كما ترى.

---

(١) سورة البقرة: ١٣.
(٢) سورة المائدة: ٧٥.

وقصر الإفراد:

هو تخصيص أمر بأمر دون آخر، ويخاطب به من يعتقد الشركة، كقولك: محمد الجواد لا علي لمن اعتقد أنهما يشتركان في صفة الجود ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾[1]، فهم يعتقدون الشركة وأن الله ثالث ثلاثة، وأفاد أسلوب القصر أن الإله واحد، «وما من إله إلا إله واحد» فهو قصر إفراد.. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[2]، فالصحابة رضوان الله عليهم لشدة تعلقهم وحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، نزلوا منزلة من يعتقد أن محمداً عليه الصلاة والسلام يجمع بين صفتي الرسالة والخلد، فجاء أسلوب القصر مفيداً أنه عليه الصلاة والسلام مقصور على صفة الرسالة، فهو رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله، لا يتجاوز صفة الرسالة إلى التخليد في الدنيا. وخذ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ . إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾[3]، فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى هداية قومه، حريصاً بل شديد الحرص على قبولهم الهداية، نزل عليه الصلاة والسلام، منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتي الإنذار والقدرة على خلق الهداية في النفوس التي أصرت على الضلال والمكابرة، فجاء أسلوب القصر: «إن أنت إلا نذير» محدداً مهمة النبي صلى الله عليه وسلم وقاصراً له على صفة الإنذار، لا يتعداها إلى القدرة على إسماع من في القبور.

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة إفراداً، عدم تنافي الوصفين حتى يتصور اجتماعهما لموصوف واحد في ذهن المخاطب، فلا يقال في قولك: محمد أبيض لا أسود، إنه قصر إفراد، إذ لا يتصور أن يعتقد معتقد أن محمداً يتصف بالبياض والسواد معاً. كما اشترط الخطيب القزويني في قصر الموصوف على الصفة قلباً، تنافي الصفتين حتى يكون إثبات إحداهما مشعراً بانتفاء الأخرى كقولك محمد طويل لا قصير، زيد ذكي لا غبي، عمرو شجاع لا جبان، حاتم كريم لا بخيل.. ورد عليه بأن قصر القلب يرد كثيراً في الصفات غير المتنافية -كما مر بك- فلا وجه لهذا الاشتراط.

---

(١) سورة المائدة: ٧٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٣) سورة فاطر: ٢٢، ٢٣.

قصر التعيين:

وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر، ويخاطب به المتردد بين شيئين. كقولك لمن يتردد شاكاً في الناجح أعمرو أم بكر، إنما الناجح عمرو، وقولك لمن يشك في أمر زيد أمقيم أم مسافر، زيد مقيم لا مسافر، تأمل قول الشاعر:

فإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

تجده قصراً إضافياً صالحاً لأن يكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين، وذلك حسب تصورك لحال المخاطب، فإن كان يعتقد أن الشرف في اللبس والزينة دون الفضائل النفسية، فهو قصر قلب، وإن اعتقد أن الشرف فيهما معاً فهو قصر إفراد، وإن تردد وشك في مرجع الشرف، أإلى اللبس والزينة يرجع أم إلى الفضائل النفسية فهو قصر تعيين، والأرجح أن يكون قصر تعيين؛ لأن الشاعر يريد أن يقرر أن مرد الشرف إلى ما يتصف به الإنسان من الفضائل لا إلى الشكل والزينة، فهذا من الأمور الواضحة الجلية، ولا يرتاب فيها إلا من ارتاب في الأمور البديهية، كمن يرتاب مثلاً في مزية السيف وجودته أإلى حدته وشدة قطعه ترجع أم إلى غمده والحمائل، فمن ارتاب في هذا الأمر البين، فقل له موبخاً، ومشيراً إلى ضعف عقله، وقلة تفكيره، وشدة غبائه: ما السيف إلا غمده والحمائل..

هذا ومراد البلاغيين بحال المخاطب: ما وقف القارىء للتعبيرات الجيدة عليه من قرائن الأحوال وسياقات الكلام، فالسياق وما به من قرائن هو الذي يبرز لك حال المخاطب.. تأمل قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...**﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ..**﴾[2]، فالعبارات واحدة والبناء هو البناء، وعلى الرغم من ذلك نقول: إنَّ القصر في الآية الأولى قصر إفراد، وفي الثانية قصر قلب، والذي جعلنا نقول هذا القول الوقوف على أحوال المخاطبين من خلال تأمل سياق الآيتين. اقرأ سياق الآية الأولى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ. وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ**

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٢) سورة المائدة: ٧٥.

أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين ﴾ فهو ينبئك بمدى حب الصحابة رضي الله عنهم للرسول عليه الصلاة والسلام، وتغلغل هذا الحب في نفوسهم، إلى درجة أنهم قد غفلوا عن أمر موته، ولم يخطروه ببالهم، وها هو ذا عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها». . وهذا هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض».

فلشدة حب الصحابة لرسول الله وتعلقهم به نزلوا منزلة من يستبعد موته، وكأنهم يعتقدون أنه يجمع بين الرسالة والتبري من الهلاك، ولذا كان القصر قصر إفراد. . ثم اقرأ سياق الآية الثانية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، فستقف منه على حال هؤلاء، فهم اعتقدوا أن عيسى - عليه السلام - إلهاً، وأن الله ثالث ثلاثة، ولذا كان القصر هنا قصر قلب، حيث قلب اعتقادهم وأفاد أن المسيح مقصور على كونه رسولاً يخلو كما خلت الرسل من قبله، لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي اعتقدوها.

وتتكون حال المخاطب لدى المتكلم وترسم في ذهنه من خلال خبرته ومعرفته بشئون مخاطبه، فعند التأمل تجد أن حال المخاطب تئول إلى المتكلم وما قد علمه ووعاه عن مخاطبه. . وفي كثير من الشواهد لا تستطيع أن تحدد مخاطباً أو تعين حالاً له، بل تجد القصر منظوراً فيه إلى حال المتكلم وما يحكيه عن نفسه . . تأمل قول الشاعر:

وكنت امرأ ألقى الزمان مسالماً ... فآليت لا ألقاه إلا محارباً

تجد القصر فيه قصر قلب، فالشاعر قد تغير وتبدل وانقلب من امرىء يلقى الزمان مسالماً إلى امرىء لا يلقاه إلا محارباً، وأنت إن ذهبت تفتش عن حال هنا لا تجد إلا حال المتكلم وحديثه عن نفسه.

وقد انشغل كثير من البلاغيين والدارسين بمسألة المخاطب هذه، وخاضوا فيها خوضاً، وقالوا أقوالاً كثيرة، ولا نرى داعياً لإثارة مثل هذه الأمور أو الانشغال بها؛ لأنها

لا تعود على الدارس بفائدة، والأمر مآله - كما قلت لك- إلى المتكلم وما يرتسم في ذهنه ويعلمه عن مخاطبه . . ونحن عندما ندرس مسائل البلاغة في التعبيرات الجيدة، والأساليب الرفيعة، إنما نتأمل السياق لنقف على قرائن الأحوال فيه، وعندئذ نعرف الغرض من الكلام وما تهدف إليه التراكيب، وعلى ضوء هذا يتحدد المراد من القصر وغيره من فنون البلاغة .

قصر الصفة على الموصوف، والموصوف على الصفة:

وينقسم القصر باعتبار طرفيه : المقصور والمقصور عليه إلى قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة، والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بالغير سواء كان فعلاً أو مصدراً أو مشتقاً أو ظرفاً أو جاراً أو مجروراً أو غير ذلك، وليس المراد بها النعت النحوي؛ لأنه لا يقع قصر بين نعت ومنعوته، كقولك : جاء رجل فاضل، ففاضل نعت نحوي للرجل، لا يفصل بينهما ولا يتصور بينهما قصر . . كما أن المراد بالموصوف هنا كل ما قام به غيره، وإن كان هو في نفسه صفة، تقول في قصر الصفة على الموصوف : ما شاعر إلا زهير، ما كتب فلان إلا الشعر، ما أكرمت إلا زيداً . . وفي قصر الموصوف على الصفة : ما شوقي إلا شاعر، إنما أنت والد . . محمد فارس لا عالم، ما حاتم بخيلاً بل جواد .

فقصر الصفة على الموصوف معناه : ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلاً، إذا كان القصر حقيقياً . أو إلى موصوف آخر إذا كان القصر إضافياً، ولا يمنع هذا أن يتصف الموصوف المقصور عليه بصفات أخرى غير تلك الصفة المقصورة تقول : الخالق هو الله، فتقصر صفة الخلق على الله سبحانه وتعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً، ومنه قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١) حيث قصرت صفة العبادة وكذلك صفة الاستعانة على الله تعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً فى الأول وهو قصر العبادة، وقصراً حقيقياً غير تحقيقي فى الثانى وهو قصر الاستعانة . . ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾(٢) حيث قصر العلم بمفاتح الغيب على الله تعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً فهو قصر صفة على موصوف .

---

(١) سورة الفاتحة : ٥ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

ومنه قول أبي تمام:

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل ... مقلقل لبنات القفرة النعب[1]

فقد قصر الشاعر طرد الهم وهو صفة على الهم من رجل مقلقل لبنات القفرة وهو موصوف قصراً حقيقياً ادعائياً؛ لأن الناس يطردون همومهم بأمور كثيرة، ولكن الشاعر لم يعتد بشيء منها إلا بالرحلة التي غيرته وأضنته والتي كانت سبباً في حزن صاحبته وانسكاب عبرتها، فأراد أن يبين لها أن تلك الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لطرد الهموم والأحزان.. تأمل:

رأت تشننه فاهتاج هائجها ... وقال لا عجها للعبرة انسكبي

لا تنكري منه تخديداً تجلله ... فالسيف لا يزدري إن كان ذا شطب

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل ... مقلقل لبنات القفرة النعب

فهو لم يعتد بغير الرحلة في طرد همومه وأحزانه، على الرغم من وجود وسائل كثيرة لطرد الهموم - كما قلت- ولذا كان القصر حقيقياً ادعائياً..

ومنه قول الآخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني ... أري الأرض تبقى والأخلاء تذهب

قصرت صفة الشكوى على الله تعالى بحيث لا تتجاوزه إلى الناس فهو قصر إضافي.. وقول المتنبي في رثاء جدته:

ولم يسلها إلا المنايا وإنما ... أشد من السقم الذي أذهب السقما

فقد قصر سلوها على المنايا قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً؛ لأن جدته كانت قد اشتاقت إليه في غيبته فلما وصلها كتابه قبلته وفرحت ثم أخبرت كذباً أنه قد مات فحمت وماتت، فرثاها بتلك القصيدة.. أما قوله: «وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقم» فلك أن تجعله قصر صفة على موصوف، أي: قصر «أشد من السقم» على «الذي

---

(١) المراد بالهم الأول: ما يجده الرجل في صدره من أحزان، والمراد بالهم الثاني: الهمة والعزيمة، ومقلقل: من القلقلة وهي الحركة العنيفة، وبنات القفرة: الإبل التي تقطع القفار، والنعب مفردها نعوب، والنعبان: تحريك الناقة رأسها في السير وهذا دليل النشاط والقوة.

أذهب السقم»، والمراد بأشد من السقم: صفات الكآبة والألم والفقدان والوجع التي تغلب السقم وتقهره وتعلوه؛ لأنه لا يقهر الشيء إلا ما هو أشد منه وأقوى، فهو يتخيل صفات كآبة أقوى من السقم، ويقصرها على ما أذهب السقم، وهذا إغراب في الخيال. . [1]

ولك أن تجعله من قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الذي أذهب السقم وهو المنايا على كونه أشد من السقم، ويكون طريق القصر عندئذ هو التقديم، و «إنما» ملغاة، كما في قوله:

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

وسيأتي تفصيل القول في هذا، وهو ما أراه وأرجحه؛ لأن في الأول تدقيقاً وإغراباً في الخيال ما أظن أن المتنبي قد قصد إليه.

وقصر الموصوف على الصفة معناه: ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلاً، إذا كان القصر حقيقياً، أو إلى صفة أخرى معينة إذا كان القصر إضافياً، وهذا لا يمنع أن تكون تلك الصفة المقصور عليها وصفاً لموصوف آخر غير المقصور، فقولك ما عمرو إلا شجاع، قصر لعمرو على صفة الشجاعة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى، أما الشجاعة، فليس هنالك ما يمنع من أن يتصف بها غير عمرو، وتقول: زيد كاتب لا شاعر، فتقصر زيداً على صفة الكتابة بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الشعر، فهو قصر إضافي وتقول: ما شوقي إلا شاعر، فتقصر شوقياً على صفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة أخرى، فهو قصر حقيقي، ولا يقال: كيف يوقف الموصوف على صفة واحدة؟ هذا محال ولا يتأتى؟ . . لأننا نقول: المراد بالصفات المنفية، تلك الصفات التي تتصل بالمعنى المذكور، فالصفة المقصور عليها في المثال، صفة الشعر، ومعنى قصر شوقي عليها قصراً حقيقياً، أنك نفيت عنه كل ما يتصل بها ويدور في فلكها أو كما يقول عبد القاهر، كل ما هو بسبيل منها، كالكتابة والخطابة والفقه والحديث والنحو وما إلى ذلك، فهو ليس بارعاً في فرع من فروع المعرفة إلا في الشعر الذي قصر عليه، وليس المراد أنك نفيت عنه كل صفة يمكن أن يوصف بها، ككونه مصرياً أو فقيراً أو سليماً معافاً أو أبيض أو كريماً أو شجاعاً، ليس هذا مراداً بل المراد - كما قلت - ما هو بسبيل من صفة الشعر المقصور عليها.

---

(١) دلالات التراكيب ص: ٧.

ومن شواهد قصر الموصوف على الصفة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ. إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾(١)، حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار، لا يتجاوزها إلى أن يملك تحويل القلوب المشركة، عما هي عليه من العناد والمكابرة.. وقوله عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطي...».

فقد قالوا في معناه: كان بعض الصحابة يسمع الحديث ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلي، ويسمعه آخرون منهم فيستنبطون منه المسائل الكثيرة، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يحدثهم يكون كلامه مقسوماً بينهم، شركة بين الجميع، أما الفهم والاستنباط فهو من عطاء الرحمن، ففي الحديث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على كونه قاسماً لا يتجاوز تلك الصفة إلى الإعطاء، فالإعطاء وتحقيق الفهم من الله تعالى، وكأن الصحابة رضوان الله عليهم لفرط اعتقادهم في هدايته عليه الصلاة والسلام - رأوا أنه يقسم ويعطي، ولذا بين لهم صلى الله عليه وسلم أنه لا يملك إلا القسم، وأما الإعطاء فمن الله تعالى، فالقصر قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً إفرادياً.

ومنه قول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

حيث قصر الشاعر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعداها إلى غيرها من القبائل، فهو قصر حقيقي تحقيقي.. وقول شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فقد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً ادعائياً، فهناك أمور كثيرة تكون بها الأمم كالقوة والمال والرقي والحضارة وغير ذلك، ولكن الشاعر لم يعتد بها وجعل الأمم مقصورة على صفة الأخلاق لا تتعداها إلى غيرها، فإذا وجدت الأخلاق وسادت كانت الأمم وإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ومثله قول الآخر:

هل الجود إلا أن تجود بأنفس ... على كل ماضي الشفرتين صقيل

حيث قصر الجود على الجود بالأنفس قصر موصوف على صفة قصرا حقيقياً ادعائياً، فالشاعر لم يعتد بما عدا الأنفس مما يمكن أن يبذل كالمال والرأي والجهد وغير ذلك من

---

(١) سورة فاطر: ٢٢، ٢٣.

ضروب البذل، وجعل الجود مقصوراً على كونه بالأنفس فقط، إذ الجود بالنفس أسمى غاية الجود.

ولا يخفى عليك أن قصر الموصوف على الصفة يفيد بلوغ الموصوف الغاية، ووصوله حد النهاية في تلك الصفة، فقولك: «ما زهير إلا شاعر» يفيد كمال المبالغة في شاعريته، وأنه قد بلغ الغاية في الشعر، ووصل إلى حد جعلنا لا نعتد بالصفات الأخرى التي يمكن أن يتصف بها، وذلك لقصور تلك الصفات عن صفة الشعر التي تفوق فيها ووصل إلى حد النهاية. . ولذا كان قولنا: «ما زهير إلا شاعر» أبلغ في وصفه بالشاعرية من قولنا «ما شاعر إلا زهير» أو بمعنى آخر: يكون قصر الموصوف على الصفة أبلغ وأكمل وأقوى في اتصاف الموصوف بتلك الصفة من قصر الصفة على الموصوف، لاحتمال كون هذه الصفة التي قصرت على الموصوف دون المستوي الأمثل إذ لم تصل إلى حد الكمال كل ما هنالك أنها وجدت في زهير دون غيره من الناس.

هذا والمراد بالصفة - كما قلت- الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بغيره كما أن المراد بالموصوف ما قام به غيره وإن كان هو في نفسه صفة، وقد نظر البلاغيون في جملة القصر ووضعوا لك ضوابط تعينك على تحديد كل من الصفة والموصوف، حيث ذكروا أن القصر إذا وقع بين ركني الجملة الاسمية، فإن قصر المبتدأ على الخبر يكون من قصر الموصوف على الصفة كقولك: ما زيد إلا أخوك وإنما محمد كاتب، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1] وقولك: إنما زيد في الدر، وما الجود إلا أن تجود بالنفس، إلا إذا كان الخبر اسماً جامداً والمبتدأ مشتقاً، فإن القصر يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما الكاتب إلا زيد، وما القائم إلا عمرو، لأنك أردت الحكم على الكاتب بأنه زيد، وعلى القائم بأنه عمرو، فالكاتب مبتدأ خبره زيد والقائم مبتدأ خبره عمرو، والقصر قصر صفة على موصوف.

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[3]، فقد

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة المائدة : ٩٩ .

(٣) سورة الرعد : ٤٠ .

قصرت مهمة الرسول على البلاغ قصر صفة على موصوف، أما قوله: «وعلينا الحساب» فهو قصر للمبتدأ «الحساب» على الخبر «علينا»، قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً تحقيقياً.

وإذا وقع القصر بين أجزاء الجملة الفعلية، فإن قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما كتب إلا محمد، لا ينال العلا إلا المجد، ومنه قول القائل «لا يطرد الهم إلا الهم من رجل». وقوله جل وعلا: ﴿لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4].

وقصر الفعل على المفعول كقولك: ما ضرب محمد إلا زيداً، وإنما أكرم زيداً عمراً وكما في الآيات الكريمة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾[5]. : ﴿إِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾[6]. : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾[7]، وكقولهم: إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، يجوز أن يعد من قبيل قصر الصفة على الموصوف أي: قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول فيكون المعنى عندئذ: ما مضروب محمد إلا زيد، ما مكرم زيد إلا عمرو، ما مقولي إلا ما أمرتني به، ما مهلكهم إلا أنفسهم، ما متبعهم إلا الظن، ما مأكول الذئب إلا الغنم القاصية، فتؤول الصفة المقصورة اسم مفعول، لأن الحدث لم يقع من المفعول المقصور عليه وإنما وقع عليه.. ويجوز أن يعد من قبيل قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول، ففي الأمثلة المذكورة قصر محمد على ضرب زيد، وزيد على إكرام عمرو، وعيسى عليه السلام على قول ما أمره الله به.. إلى آخر تلك الشواهد.. وتلاحظ مدى التكلف في الوجه الأول، وأن الوجه الثاني غير ممكن إذا كان طريق القصر «إنما» لأنه يؤدي إلى أن يكون المقصور عليه قد ولي إنما، ومعلوم أن المقصور عليه بإنما هو المؤخر.. والأولى من هذين الوجهين أن يجعل الفعل مقصوراً على تعلقه بالمفعول، تقول في الشواهد المذكورة، قصر ضرب محمد على تعلقه بزيد، وإكرام زيد على تعلقه بعمرو، وقول عيسى على تعلقه بما أمره الله به، وأكل الذئب على تعلقه بالغنم القاصية، وهكذا في بقية الشواهد المذكورة.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.
(٢) سورة الأنعام: ٤٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٣٥.
(٤) سورة فاطر: ٢٨.
(٥) سورة المائدة: ١١٧.
(٦) سورة الأنعام: ٢٦.
(٧) سورة النجم: ٢٨.

وقصر الفاعل على الظرف نحو: ما سافر خالد إلا يوم الخميس، أو على المفعول لأجله نحو: ما زرتك إلا محبة، وقوله عز وجل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[1]، أو على المفعول المطلق نحو: ما قلت إلا قول المخلصين، ما حججت إلا حجتين، وقوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾[2] أي: ظناً ضعيفاً، أو على التمييز كقولك: ما طاب محمد إلا نفساً، أو على الجار والمجرور نحو: ما عملت إلا في بيتك، وما دافعت إلا عنك، أو على غير ذلك من المتعلقات التي يقع فيها القصر، فإن القصر فيها يكون إما من قصر الموصوف على الصفة، أو من قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارات الموضحة في قصر الفاعل على المفعول.

وقصر صاحب الحال على الحال من قصر الموصوف على الصفة نحو ما جاء علي إلا راكباً، وما لقيته إلا ضاحكاً. . ما انتصر المسلمون إلا وهم متحدون.

وقصر الحال على صاحبها من قصر الصفة على الموصوف نحو ما جاء راكباً إلا خالد، ما لقيني مرحباً إلا عمرو، ما انصرف غاضباً إلا زيد.

وأما المفعول المطلق المؤكد لعامله، والمفعول معه فلا يتأتى فيهما القصر إذ لا يقال. «ما ضربت إلا ضرباً» ولا «ما سرت إلا والنيل»، أما قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾، فمعناه: إن نظن إلا ظناً ضعيفًا، فهو مصدر مبين للنوع.

ما الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي:

وكما مر بك في أنواع القصر، فإن القصر الحقيقي الادعائي المنفي فيه عام، إذ يشمل كل ما عدا المقصور عليه ادعاء ومبالغة، فقولك: ما شاعر إلا زهير، قصر لصفة الشعر على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره من الشعراء على سبيل المبالغة، وكذا قولك: ما زهير إلا شاعر، قصر لزهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى غيرها أصلاً، وهذا يعني أنه قد تفوق في هذه الصفة وبلغ فيها الغاية، إلى درجة جعلتك لا تعتد بأي صفة أخرى غيرها، أما القصر الإضافي فالمنفي فيه محدد وليس عاماً، تقول: زهير شاعر لا كاتب، فتقصر زهيراً على الشعر، وتنفي عنه الكتابة، إفراداً أو قلباً أو تعييناً حسب اعتقاد المخاطب وتقول حاتم جواد لا علي فتقصر صفة الجود على حاتم وتنفيها عن علي.

---

(١) سورة الزمر: ٣.

(٢) سورة الجاثية: ٣٢.

هذا وعند التحقيق والتأمل تجد أن القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة، إما أن يكون تحقيقياً وإما أن يكون ادعائياً، لأن قولك: حاتم جواد لا علي، إذا كان مطابقاً للواقع بمعنى أن يكون حاتم هو الكريم فعلاً، وعلي هو البخيل، كان القصر تحقيقياً، وإن كان علي كريماً، ولكنك لم تعتد بكرمه لأمر ما، فجعلت حاتماً هو الجواد دونه كان القصر ادعائياً مبنياً على المبالغة. . وكذا القول في قصر الموصوف على الصفة، فقولك: زهير شاعر لا كاتب. . إن كان فعلاً لا يجيد الكتابة ولا يعرف طرقها وفنونها، كان القصر تحقيقياً، وإن كان يعرفها ولكنك لم تعتد بتلك المعرفة لكونه في الشعر أفصح وأبلغ كان القصر مبنياً على الادعاء والمبالغة.

طرق القصر:

عرفت فيما سبق أن طرق القصر التي اصطلح عليها البلاغيون أربعة، العطف «بلا وبل ولكن» والنفي والاستثناء وإنما والتقديم وأضاف بعضهم طريقين آخرين وهما: توسط ضمير الفصل وتعريف أحد ركني الإسناد بأل، وقد اشتهرت هذه الطرق عند البلاغيين، ولكن إفادة القضر ليست مقصورة عليها، فهناك طرق كثيرة غيرها، وقد ذكر السيوطي أن طرق القصر بلغت أربعة عشر طريقاً، كما أن القصر يفاد بغير تلك الطرق المعهودة على نحو ما مر بك، ولكن ليس وراء إفادة القصر بغير طرقه المعهودة اعتبارات تذكر، ولذا لم يلتفت البلاغيون لغير هذه الطرق المشهورة، الغنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية. . وإليك بيان تلك الطرق وما يكمن وراء دلالتها على القصر من مزايا وأسرار بلاغية.

١- العطف بلا وبل ولكن:

تقول: زيد كريم لا عمرو، وفلان جواد لا بخيل، وهو يدعوك إلى الخير لا إلى الشر، وخالد ينصحك مخلصاً لا مرائياً، وجاء خالد لا عمرو، وليس حاتم بخيلاً بل جواد، ولم ينصحني عمرو ولكن صديقه. . فتجد أن القصر قد أفيد بأحد الحروف المذكورة وواضح أن طريق العطف يصرح فيه بكل من المثبت والمنفي، أي: المقصور عليه والمنفي عنه، ولذا كان أقوى طرق القصر وآكدها، لأن غيره من الطرق لا يصرح فيها بالنفي بل يفهم ضمناً كما سترى.

وعلى الرغم من أن فائدة التأكيد أقوى في هذا الطريق، فإن مزية الإيجاز فيه تتضاءل للتصريح فيه بالإثبات والنفي كما قلت.

و «لا» صالحة لكل أنواع القصر، والمقصور عليه بها هو المقابل لما بعدها ويشترط لدلالتها على القصر أن يكون المعطوف بها مفرداً وألا يتقدمها نفي أو نهي وألا يكون ما بعدها داخلاً في عموم ما قبلها، تقول: زيد شاعر لا غير فتفيد قصر زيد على صفة الشعر قصراً حقيقياً.. وتقول: زيد شاعر لا كاتب فتفيد قصره على الشعر قصراً إضافياً.

وتأمل قول أبي تمام:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب[1]

تجده قد قصر السيوف التي حققت النصر وفتحت عمورية على كونها بيض الصفائح، مشرقة لامعة، ونفاها عن كونها سود الصحائف، سوداء مظلمة، فالمقصور عليه - كما ترى - هو المقابل لما بعد لا، ثم قصر «جلاء الشك والريب» على كونه في متون هذه السيوف أي: جوانبهن، ونفاه عن كتب المنجمين، وطريق هذا القصر هو التقديم الآتي بيانه... ولا يخفى عليك ما وراء أسلوبي القصر في البيت من توبيخ وتحقير لهؤلاء المنجمين وما تخبر به صحفهم.. ومثله قوله في هذه القصيدة أيضاً، محقراً كتب المنجمين:

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

حيث قصر العلم على كونه في شهب الأرماح ونفاه عن النجوم التي يستنبئها المنجمون «السبعة الشهب».

وانظر إلى قول الآخر:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته ... وموته خزيه لا يومه الداني

فقد قصر عمر الفتى وحياته على ما يخلفه من أثر طيب وذكر حسن ونفاه عن طول مدته وامتداد أجله في الدنيا كما قصر الموت على ما يرضى به بعض الأحياء من خزي وهوان ونفاه عن اليوم الداني ومفارقة الحياة، ولعلك تشعر بما وراء القصر من حث على

---

(١) بيض الصفائح: كناية عن السيوف، وسود الصحائف: كناية عن كتب المنجمين، متونهن: جوانبهن، جلاء: كشف وإزالة، الريب: الظنون، يقول: إن السيوف البيضاء هي التي تزيل الشك وتظهر الحقيقة، أما صحائف المنجمين السوداء فإنها تضيع الحقائق وتنشر الأباطيل، والبيت من قصيدة له في فتح عمورية.

الأعمال الصالحة التي تنفع الإنسان وتبقى بعد حياته، ومن تنفير من الذل والهوان والخزي، فلا يقبل مثل هذا ويرضخ له إلا فاقد الحياة. .

و «لا» صالحة لكل أنواع القصر - كما ذكرت - تقول في قصر الصفة على الموصوف زهير شاعر لا عمرو، وفي قصر الموصوف على الصفة: زهير شاعر لا كاتب وفي القصر الحقيقي: زهير شاعر لا غيره. . وفي القصر الإضافي: خالد جواد لا عمرو، فيكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين حسب اعتقاد المخاطب على نحو ما مر بك. . فإذا سبقت «لا» بنفي نحو: ما جاء زيد ولا عمرو أو نهي نحو: لا تفعل هذا ولا ذاك، أو كان المعطوف بها جملة نحو: زيد مقدام لا أبوه كريم، والفقير يعطي من الصدقة لا أحد ينكر هذا، أو كان ما بعدها داخلاً في عموم ما قبلها نحو: عاد الحجاج لا إبراهيم، ونجح الطلاب لا خالد، فعندئذ لا تدل على القصر، لأنها لا تفيد إثبات أمر لآخر ونفيه عن غيره، كما هو واضح في الأمثلة.

و «بل» تفيد القصر إذا وليها مفردد، وتقدمها نفي أو نهي؛ لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضده لما بعدها فتتضمن النفي والإثبات وذلك عماد القصر، فقولك: ما جاء زيد بل عمرو، يفيد نفي المجيء عن زيد وإثباته لعمرو، فالمقصور عليه ببل هو ما بعدها، ويرى البلاغيون أنها صالحة للقصر الإضافي إفراداً وقلباً وتعييناً، ولا تصلح للقصر الحقيقي، لأن المنفي معها يكون أمراً محدداً دائماً، فإن جاء عاماً لا يكون منفياً بل يكون مسكوتاً عنه نحو: ما جاءني أحد بل زيد فلا تفيد هذه الجملة سوى إثبات المجيء لزيد، أما ما قبل «بل» وهو أحد فمسكوت عنه والمسكوت عنه لا يوصف بنفي ولا إثبات، بل يرى الجمهور أن ما قبل «بل» مسكوت عنه حتى ولو كان محدداً نحو: ما جاءني زيد بل عمرو، ما زيد قائماً بل قاعد.

ولذا فهي لا تفيد قصراً، ويرى البعض أن النفي لما قبل «بل» ولما بعدها، فقولك: ما جاء زيد بل عمرو، يفيد نفي المجيء عنهما معاً ولذا فهي لا تفيد القصر، لأن النفي والإثبات غير محقق(١).

والذي أراه أن «بل» تفيد القصر بأنواعه، الإضافي: قلباً وإفراداً وتعييناً، والحقيقي: تحقيقياً وادعائياً، فهذا ما يفهم من الأساليب والتعبيرات ولا يمكن دفعه ولا إنكاره، تقول:

---

(١) ارجع إلى شروح التلخيص جـ٢ ص ١٩٠ .

ما جاء زيد بل عمرو ، فيكون قصر صفة على موصوف قصراً إضافياً، وتقول : ما زيد قائماً بل قاعد[1] ، فيكون قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً، وتقول: ما جاءني أحد بل عمرو، فيكون قصراً حقيقياً ، ولا أرى معنى لكون ما قبلها مسكوتاً عنه، ولا لتوجه النفي لما بعدها. . أما إذا وقعت «بل» بعد الإثبات نحو جاء زيد بل عمرو، فلا تفيد القصر؛ لأن المعنى على أنك نقلت المجيء إلى التابع «عمرو» وجعلت المتبوع «زيد» في حكم المسكوت عنه، فالجملة لا تفيد سوى مجرد إثبات المجيء لعمرو عندئذ فلا قصر، لأن القصر نفي وإثبات كما علمت.

ومن شواهد القصر ببل قول الشاعر:

ليس اليتيم الذي قد مات والـده   بل اليتيـم يتيـم العلـم والأدب

فقد قصر الشاعر اليتيم على صفة الحرمان من العلم والأدب ونفاه عن فقدان الوالد قبل بلوغ مبلغ الرجال، فهو قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً، وأراه قصر قلب، لأنه قلب ما هو راسخ في الأذهان من أن اليتيم هو الذي قد مات والده قبل بلوغ سن الرجال، وفيه حث على التزود بالعلم والتحلي بالأخلاق والآداب الرفيعة ، ففاقدهما هو اليتيم. .

ومنه قول عبد الله بن المعتز:

ليس التعجب من مواهـب ماله   بـل من سلامتهـا إلى أوقاتهـا

حيث قصر التعجب على سلامة الأموال إلى أوقات الاحتياج ونفاه عن المواهب والعطايا، لأن هباته وعطاياه ثابتة وواقعة فهي لا تستحق التعجب، وإنما التعجب من إصابة المحز وبلوغ الهدف المنشود حيث تبذل الأموال إلى مستحقيها وفي أوقاتها وتسلم لهذا.

و «لكن» تفيد القصر إذا سبقها نفي أو نهي ووليها مفرد، «كبل» مثل: ما أكرمني زيد لكن عمرو، فقد قصر الإكرام على عمرو ونفي عن زيد، فالمقصور عليه بلكن هو الواقع

(١) قاعد: لا تعرب نصباً عطفاً على لفظ «قائماً» لأن «ما» لا تعمل في المثبت وإنما تعمل في المنفي، وتعرب رفعاً عطفاً على محل «قائماً» عند البصريين وعليه أفاد الأسلوب القصر، فإن أعربت خبراً لمبتدأ محذوف فلا قصر، لأن ما بعد بل عندئذ يكون جملة.

بعدها مثل «بل» تماماً وهي صالحة للقصر الإضافي قلباً وإفراداً وتعييناً حسب اعتقاد المخاطب وللقصر الحقيقي بنوعيه، ويرى بعض البلاغيين أنها لا تصلح للقصر الحقيقي؛ لأن المنفي معها دائماً يكونَ أمراً خاصاً، ويشترط البعض للقصر بلكن بالإضافة إلى ما ذكر ألا تقترن بالواو، وهذا ليس بشيء لأنا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة قد اقترنت بالواو وأفادت القصر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1] فقد قصر النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد، قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً، ولكن مقرونة بالواو كما ترى.

ومنه قول الشاعر:

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

فقد قصر الإفساد على الناس ونفاه عن الجديدين وهما الليل والنهار.

وقول عروة بن الورد:

وما شاب رأسي من سنين تتابعت علي ولكن شيبتني الوقائع

حيث قصر التشييب على الوقائع ونفاه عن تتابع السنين[2] . . ومن مجيء لكن مفيدة للقصر وهي غير مقرونة بالواو قول الشاعر:

ما نال في دنياه وان بغية لكن أخو حزم يجد ويعمل

فقد قصر نيل البغية على «أخو حزم» ونفاها عن المتراخي الكسول وفيه حث على الجد والاجتهاد، فالدنيا كفاح وميدان تسابق والذي يصل إلى هدفه ويحقق غايته هو الجاد الذي يكد ويكدح ويسابق ويغالب.

وهذا الذي ذكرته لك هو أرجح الآراء وأولاها بالقبول في دلالة تلك الحروف على القصر، وهناك خلافات كثيرة حول هذه الدلالة، فمن البلاغيين من يرى أن «لكن» لا تفيد القصر، ومنهم من يرى أن «بل» مسكوت عما قبلها سواء سبقت بنفي أم لم تسبق، - كما

(١) سورة الأحزاب: ٤٠ .

(٢) لا يخفى عليك أن ما بعد لكن في البيتين جملة فدلالة لكن على القصر فيهما، بناء على رأي بعض البلاغيين كما سترى.

ذكرت لك- ومنهم من يرى أن «بل» لا ترد في فصيح الكلام، ومنهم من يرى أن لكن لقصر القلب دون الإفراد، ومن يرى أنها للإفراد دون القلب، ومنهم من يرى أن لكن وبل تدلان على القصر ولو كان معطوفهما جملة كما في قول الشاعر

ما افترينا في وصفه بل وصفنا بعض أخلاقه وذلك يكفي

وكما مر في قول عروة:

وما شاب رأسي من سنين تتابعت علي ولكن شيبتني الوقائع

وقول الآخر:

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

فمنهم من يرى أن «بل ولكن» في الأبيات تدلان على القصر، ومنهم من يرى أنهما يفيدان معنى القصر، وليس ما في الأبيات قصراً، أي: ليس طريقاً من طرقه، لأنه مفاد من جملتين ومثله قولك: جاء عمرو لكن زيداً لم يأت، وقلت لك هذا لكن ذلك لم أقله.. وحتى «لا» التي هي رأس هذا الطريق لم تسلم من تلك الخلافات، فقد ذكر عبد القاهر أنها تفيد عكس ما يعتقد المخاطب ولا يؤتي بها إلا لذلك، فهي عنده لقصر القلب دون غيره، وقد رأيت أنها صالحة لكل أنواع القصر... إلى غير ذلك من الخلافات فهي كثيرة، وقد أعرضنا عن مناقشتها لعدم الجدوى من تلك المناقشة.

٢- النفي والاستثناء:

تقول: ما القادم إلا زيد، وما أنت إلا مصيب، فتفيد قصر الصفة على الموصوف في الأول، والموصوف على الصفة في الثاني، ويستخدم هذا الطريق فيما ينكره المخاطب ويدفعه أو فيما يشك فيه ويرتاب.. يقول عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطىء قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك...»[1].

(١) دلائل الإعجاز ١٢٧.

تأمل قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾(١) ، تجده قد قصر الاتباع على الوحي لا يتجاوزه إلى غيره، فهو قصر حقيقي، وقد أوثر التعبير بالنفي والاستثناء، إذ المخاطبون ينكرون ذلك ويدفعونه، فهم يعتقدون أنه شاعر أو ساحر أو كاهن، لا يقرون بالوحي، بل يقولون: أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً فلما كان المشركون منكرين أن يكون الرسول -عليه الصلاة والسلام- متبعاً لوحي يوحى إليه ويجحدون ذلك ويدفعونه، جاء القصر «بإن وإلا» ليبدد هذا الإنكار ويدفع ذلك الجحود .. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٢) ، وقوله عز وجل: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين﴾(٣) فقد جاء القصر بالنفي والاستثناء في الآيتين، لأن المخاطب ينكر الحكم ويدفعه، إذ الكفرة لا يقرون بالوحدانية، والرسول - صلى الله عليه وسلم- يدفع وينكر كون ما جاء به أساطير الأولين، ويوقن إيقاناً راسخاً أنه حق من عند الله.

فهذا الطريق - النفي والاستثناء - يستخدم عندما ينكر المخاطب ويجحد الحكم أو عندما ينزل تلك المنزلة، وسيتضح لك هذا عند الحديث عن أوجه الاختلاف بين طرق القصر.

ومثل النفي في إفادة القصر، والنهي والاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤) ، فقد قصر غفران الذنوب على الله سبحانه وتعالى قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً، وطريقه هو النفي والاستثناء، لأن الاستفهام في الآية الكريمة مراد به النفي، إذ المعنى: لا يغفر الذنوب إلا الله ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾(٥) ، حيث قصر جزاء الإحسان على الإحسان قصر موصوف على صفة، وطريقه هو النفي والاستثناء، لأن الاستفهام بمعنى النفي.. وتقول: لا تفعل إلا الخير.. لا تصاحب إلا الوفي.. لا تعتمد إلا على الله، فتقصر الفعل على الخير

---

(١) سورة الأنعام: ٥٠.
(٢) سورة آل عمران: ٦٢.
(٣) سورة الأنعام: ٢٥.
(٤) سورة آل عمران: ١٣٥.
(٥) سورة الرحمن: ٦٠.

والمصاحبة على الوفي والاعتماد على الله، وطريق القصر -كما ترى- هو النهي والاستثناء.

والمقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو المستثنى أي: الواقع بعد أداة الاستثناء، سواء تقدم أو تأخر تقول: ما جاء إلا زيد فتقصر المجيء على زيد، ويقول زهير بن أبي سلمى:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

فقد قصر الحرب على الذي علموه وذاقوه من ويلاتها، قصر موصوف على صفة.. ويقول المتنبي:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن ... لما يشق على السادات فعال

قصر إدراك المجد على السيد الفطن الذي يستطيع إدراك ما يشق على السادة الكرماء.. وتقول: لا أختار الوفي إلا منكم.. ولا أختار منكم إلا الوفي، فتفيد بالأول: قصر اختيارك الوفي على كونه منهم، ففيه مدح لهم وتنويه بشأنهم، وأن من أراد الوفي فعليه بالاتجاه إليهم فهم جميعاً أوفياء، وتفيد بالثانيى قصر اختيارك منهم على الوفي، وهذا يعني أن فيهم الوفي وغير الوفي، فأنت تختار الوفي وتترك غيره، ولا يخفى عليك بعد ما بين القولين.. وتأمل قول الشاعر يمدح بني هاشم:

لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكم فارساً

تجده قد قصر اختيار الفارس على كونه منهم، وهذا يعني أنهم جميعاً فرسان وأن المنبر لا يتجه إلا إليهم حين يتاح له أن يختار فارسه، ولو قال الشاعر: ما اختار منكم إلا فارساً، لتغير المعنى، إذ يصبح المراد: قصر اختيار المنبر منهم على الفارس دون غيره، فهم ليسوا جميعاً فرساناً.. وتلاحظ في البيت تقديم إلا وما وليها على المفعول «فارسا» وهو جزء من المقصور - كما عرفت- إذ المراد قصر اختيار المنبر فارسه عليهم دون غيرهم، وهذا التقديم قد منعه بعض البلاغيين وقالوا: إنه يؤدي إلى قصر الفعل قبل تمامه، وذهب البعض إلى أنه كلامان وليس كلاماً واحداً، فالمفعول المؤخر، مفعول لفعل محذوف دل عليه المذكور، والمعنى: ما اختار إلا منكم.. اختار فارساً، وتقول: ما أعطيت إلا زيداً درهماً؛ والمعنى: ما أعطيت إلا زيداً.. أعطيت درهماً، وكأنك لما قصرت الإعطاء على زيد،

شعرت بحاجة السامع إلى نوع العطاء، فأردت أن تبينه فقلت: درهماً وحذفت الفعل والفاعل لدلالة ما تقدم عليهما.. وبعضهم أجازه إذا صرح بالمستثنى منه، كأن يقال: ما ضرب أحد أحداً إلا زيد عمراً، فزيد مستثنى من أحد الأول وعمرو مستثنى من أحد الثاني[1].. ومنهم من أجاز ذلك التقديم مطلقاً من غير تصريح بالمستثنى منه، وإن كان هذا التقديم قليلاً في التعبيرات الجيدة، وحجتهم أن أداة الاستثناء لا يخرج بها إلا شيء واحد وهو ما يليها، فلا يقع لبس فيما بعدها، فإذا قلت: ما ضرب إلا محمد زيداً، لا يتوهم أن محمداً هو المستثنى وهو المقصور عليه وكذا قولك: ما شرب إلا اللبن محمد، لا يتوهم أن اللبن هو المقصور عليه المستثنى.. وهذا هو الأولى بالقبول لوروده في التعبيرات الجيدة، وطالما قد عرف موضع المقصور عليه وحدد، إذ هو دائماً الواقع بعد أداة الاستثناء، فلا ضير بعدئذ أن تتقدم به الأداة أو تتأخر، وليس ثمة مانع من أن يتأخر جزء من المقصور عن المقصور عليه، لأن الأخير قد حدد وعين موطنه، والمهم ألا تتخلى أداة الاستثناء عن المستثنى وألا تتزحزح عنه، لأن زحزحتها وتقديمها أو تأخيرها بدونه يغير المعنى.. وعد إلى الأمثلة المذكورة: ما اختار إلا منكم فارساً ما أعطيت إلا زيداً درهماً.. ما ضرب إلا محمد زيداً.. ما شرب إلا اللبن محمد.. ثم زحزح «إلا» وحدها فقل: ما اختار منكم إلا فارساً.. ما أعطيت زيداً إلا درهماً.. ما ضرب محمد إلا زيداً.. ما شرب اللبن إلا محمد.. تجد أن المعنى قد تغير وتبدل بتلك الزحزحة.

وخلاصة الأمر أن المقصور عليه هو ما يلي أداة الاستثناء سواء تقدمت به الأداة أو تأخرت، فالراجح أنه لا مانع من هذا التقديم لوضوح المراد وزوال اللبس بمعرفة موضع المقصور عليه.. وتأمل قول المتنبي يتحدث عن نفسه في قصيدته التي رثى فيها جدته:

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً

ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ... ولا واجداً إلا لمكرمة طعمًا

فقد قصر الاستعظام على نفسه، والسلوك على فؤاد العجاجة وقبول الحكم على خالقه، ووجود الطعم على المكرمة، وواضح تقديم إلا بالمقصور عليه - في القصرين الأخيرين - على المفعول (حكماً وطعماً) وهو جزء من المقصور، ولم يؤد هذا التقديم إلى خفاء ولا لبس لوضوح كل من المقصور والمقصور عليه. ومثله قول الآخر:

---

(١) شروح التلخيص ٢ / ٢٢٧.

الناس إلب علينا فليس لنا إلا السيوف وأطراف القنا ورد

والأصل : فليس لنا ورد إلا السيوف وأطراف القنا .

وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر:

النفي والاستثناء هو رأس باب القصر ، وهو الطريق الأم بين طرقه ، إذ نراهم يقيسون عليه غيره فيقولون مثلاً ، قولك : إنما زهير شاعر ، معناه : ما زهير إلا شاعر وقولك : لك هذا ، معناه : ما هذا إلا لك فلا منازعة في أن النفي والاستثناء يدل على القصر ، ولم يذهب أحد من البلاغيين إلى خلاف ذلك ؛ لأن دلالة الطريق على القصر دلالة واضحة وضوحاً تاماً وظاهرة ظهوراً قوياً ، وعلى الرغم من ذلك ترى البلاغيين يتحدثون عن وجه هذه الدلالة ، فيقولون : إن وجه دلالة «النفي والاستثناء» على القصر هو أن النفي في الاستثناء المفرغ وهو الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبل إلا وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعدها نحو : ما ضرب إلا زيد وما فعل زيد إلا هذا وما كسوته إلا جبة ، يقولون النفي في هذا الاستثناء متوجه إلى مقدر عام وهو المستثنى منه ، لأن إلا للإخراج ، والإخراج يقتضي مخرجاً منه ، ولابد أن يكون عامًا ليتناول المستثنى وغيره ، فيتحقق الإخراج ، وأن يكون مناسباً للمستثنى في جنسه وصفته فيقال في الأمثلة المذكورة : ما ضرب أحد إلا زيد . . ما فعل زيد شيئاً من الأشياء إلا هذا . . ما كسوته من اللباس إلا جبة ، وإذا كان النفي متوجهاً إلى هذا المقدر العام المناسب للمستثنى في جنسه وصفته فعندما توجب من ذلك المقدر شيئاً بإلا أو غيرها من أدوات الاستثناء يكون القصر ، لأن ما عدا هذا المثبت يظل باقياً على صفة الانتفاء ، وكل قصر يفيد إثباتا ونفياً ، أي : إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عما سواه ، على الإطلاق في القصر الحَقيقي ، أو عن معين في القصر الإضافي .

ويذكر السيوطي أن قولك : ما قام إلا زيد ، صريح في نفي القيام عن غير زيد ويقتضي إثبات القيام لزيد ، قيل بالمنطوق ، وقيل بالمفهوم وهو الصحيح ، ولكنه أقوى المفاهيم[(١)] .

أما جمهور البلاغيين فيرون أن «النفي والاستثناء» مثل التقديم وإنما ، الدلالة في ثلاثتها نص على المثبت دون المنفي ، والخطب في ذلك يسير ، لأن البلاغيين نظروا إلى

---

(١) الإتقان ٢ / ٥٢ .

الجملة بعد تمامها، والسيوطي نظر إلى ما يتبادر إلى الذهن أولاً، فالذي يتبادر إلى ذهنك عند سماعك: ما قام إلا زيد، هو نفي القيام عن غير زيد، ثم يأتي بعد ذلك إثباته لزيد، وكأنه تحقيق له وتحديد، وتلك دقيقة جيدة في تحليل دلالة العبارة.

هذا وعندما تقول: ما زيد إلا شاعر، فتدخل النفي على الذات، لا يكون القصد إلى نفي الذات، لأن أنفس الذوات لا تنفي، وإنما يتجه النفي إلى أوصافها وأحوالها التي يحددها السياق، ففي المثال المذكور، حيث لا نزاع في طول زيد وقصره، ولا في كرمه وشجاعته وما شاكل ذلك، وإنما النزاع في كونه شاعراً أو كاتباً أو خطيباً تناول النفي هذه الصفات التي هي موضع النزاع فإذا قيل إلا شاعر، جاء القصر[1].

هل يفيد الاستثناء التام القصر؟

لا خلاف بين البلاغيين في أن الاستثناء التام المنفي نحو قولك: ما جاءني أحد إلا زيد، وما أكرمت أحداً إلا عمراً، وقول المتنبي:

كأن لم يمت حي سواك ولم يقم على أحد إلا عليك النوائح

لا خلاف بينهم في أنه يفيد القصر، ولكن الخلاف في جعله من طرق القصر الاصطلاحية، فالبعض يرى أنه ليس قصراً اصطلاحياً بل هو قيد يصحح الحكم المنفي، فإذا قلت: ما جاءني أحد إلا زيد، كان استثناء زيد قيداً مصححاً للحكم، لأن قولك: ما جاءني أحد، حصل به الحكم المنفي، لكن لما كان هذا الحكم شاملاً لزيد وهو لم يأت قيد المجيء بغير زيد ليصحح الحكم المنفي، وحجتهم أن ما قبل الأداة كلام تام يحسن السكوت عليه، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة، وعندئذ يكون ما بعدها كأنه قيد مصحح. ويرى آخرون أنه قصر اصطلاحي كالاستثناء المفرغ، ولكنه جاء على خلاف الأصل، حيث صرح فيه بالمثبت له والمنفي عنه معاً، والجمهور على أن الأصل في طريق النفي والاستثناء النص على المثبت له فقط[1].

أما الاستثناء التام الموجب كقولك: جاء القوم إلا زيد، وأكرمت الطلاب إلا المهمل، فالصواب أنه ليس قصراً، بل هو قيد مصحح للحكم لا غير، وكأنك قلت: جاء القوم

(١) الإيضاح جـ ٢ ص ١٢.

(٢) شروح التلخيص ٢ / ٢٠٧.

المغايرون لزيد، وأكرمت الطلاب المغايرين للمهمل، كما تقول: جاء القوم الصالحون. . وقيل: إنه قصر لأن المعنى على قصر عدم المجيء على زيد، وعدم الإكرام على المهمل، وهذا ليس بقول، فالصواب هو الأول وهو أن الاستثناء التام الموجب يفيد القصر أي: الإثبات والنفي ولكنه ليس طريقاً من طرقه. .

وخلاصة القول أن الاستثناء المفرغ كقولك: ما جاء إلا زيد، قصر اصطلاحي باتفاق البلاغيين، والاستثناء التام المنفي كقولك: ما جاء أحد إلا زيد، قصر اصطلاحي على الراجح، والاستثناء التام الموجب كقولك: قام القوم إلا زيد يفيد القصر وليس قصراً على الراجح من أقوالهم. .

هل يجوز اجتماع «النفي والاستثناء» والعطف بلا؟

طريق النفي والاستثناء لا يجتمع والعطف بلا، فلا يجوز أن تقول: ما جاء إلا زيد لا عمرو، وذلك لأن المنفي في قولك: ما جاء إلا زيد، عام فهو يشمل ما عدا زيداً، وعمرو داخل في دائرة المنفي، و«لا» العاطفة وضعها القوم لأن ينفي بها الشيء ابتداء، لا لأن ينفي بها شيء قد نفى بغيرها، يقول شيخ البلاغة: «ليس من كلام الناس أن يقولوا: ما زيد إلا قائم لا قاعد، فإن ذلك إنما لم يجز من حيث إنك إذا قلت: ما زيد إلا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافي القيام، وصرت كأنك قلت: ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكىء، وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام، فإذا قلت من بعد ذلك: لا قاعد كنت قد نفيت بلا العاطفة شيئاً قد بدأت فنفيته، وهي موضوعة لأن تنفي بها ما بدأت فأوجبته، لا لأن تفيد بها النفي في شيء قد نفيته. .»[1] ولذا عيب قول القائل:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

وينبغي أن تفرق بين «لا» العاطفة و«لا» الداخلة على الجملة، فإن الأخيرة يجوز أن تجتمع «والنفي والاستثناء» نحو: ما زهير إلا شاعر، لا يقول أحد غير ذلك، ما هذا إلا لك، لا يشاركك فيه أحد، ليس السكوت عن العيوب إلا جبناً، لا يرى أحد غير ذلك، وإنما كان هذا جائزاً، لأنك لم تنف «بلا» شيئاً قد نفى قبل، بل نفيت بها جملة مستقلة وأكدت بها جملة القصر السابقة. .

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٦ .

٣- **إنما**: ودلالة إنما على القصر دلالة وضعية وعلى الرغم من ذلك لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى «ما وإلا» واستدلوا على ذلك بوجوه، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾[1] بالنصب، حيث ذكر المفسرون الذين يحتج بهم في اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين. أن المعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر في هذه القراءة بتعريف الطرفين، فالآية فيها ثلاث قراءات وكلها تفيد القصر، القراءة الأولى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، بناء «حرم» للمعلوم ورفع «الميتة» وعلى هذه القراءة تكون «ما» اسم موصول وعائده محذوف والمعنى: إن الذي حرمه عليكم هو الميتة، وهو قصر للتحريم على الميتة وما بعدها وطريق القصر تعريف الطرفين، والقراءة الثانية: : ﴿إِنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ ببناء «حرم» للمفعول ورفع الميتة، وعلى هذه القراءة، فما إما اسم موصول والمعنى: إن الذي حرم عليكم هو الميتة وإما كافة لإن والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، وهذا قصر أيضاً للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين في الأول وإنما في الثاني، والقراءة الثالثة: : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ ببناء «حرم» للفاعل ونصب «الميتة» فما كافة لإن، والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، فهو قصر طريقة إنما، وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث في إفادة القصر، سواء كانت «ما» كافة لإن أو موصولة.

ومنها: قول من يحتج بقولهم من النحاة وهم من أخذوا اللغة من كلام العرب مشافهة: إن إنما لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه، أي: لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم، وهذا القول من النحاة يقتضي تضمنها الإثبات والنفي كما وإلا، إما في قصر الموصوف على الصفة كقولك: إنما زيد قائم، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما عداه من القعود ونحوه، وإما في قصر الصفة على الموصوف كقولك: إنما يقوم زيد، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وخالد وبكر وغيرهم، وهذا هو القصر الذي يدل عليه النفي والاستثناء..

ومنها: صحة انفصال الضمير معها كقولك: إنما يقوم أنا، وإنما يكرم أنت، وإنما يعطي نحن، وذلك لأنه متى أمكن اتصال الضمير فلا يعدل إلى انفصاله إلا لغرض، فلا يجوز أن تقول: يكرم أنت، أو بقوم أنا، أو يعطى نحن، ولكن بإمكانك أن تقول: تكرم

---

(١) سورة النحل: ١١٥.

وأقوم ونكرم ونعطي، فلما صح انفصال الضمير مع «إنما» دل ذلك على أنها بمعنى «ما وإلا»، لأن إلا لا يليها سوى الضمير المنفصل كقولك: ما يقوم إلا أنا، وما يكرم إلا نحن، وكقول عمرو بن معد يكرب:

قد علمت سلمى وجاراتها ... ما قطر الفارس إلا أنا[1]

ومن ورود الضمير منفصلاً بعد إنما قول الفرزدق وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها:

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا ومثلي[2]

فقد قصر الدفاع عن أحسابهم عليه هو أو مثله، قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً ادعائياً، ولو قال، إنما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي لكان قصراً لدفاعه على كونه عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم قصر موصوف على صفة، ويكون قوله: «أنا أو مثلي» توكيداً لا مقصوراً عليه، وليس هذا مراد الشاعر، لأنه قصد إلى الفخر والاعتداد بنفسه وأنه هو المدافع عن أحسابهم دون غيره، ولم يقصد أنه يدافع عن أحساب قومه دون أحساب غيرهم، لأن هذا يتنافى ومقام المدح والفخر، تقول: إنما يفهم البلاغة المتذوق، فتجده أبلغ من قولك: إنما يفهم المتذوق البلاغة، لأن الأول أفاد قصر فهم البلاغة على الذواقة دون غيره، والثاني أفاد قصر فهم المتذوق على البلاغة دون غيرها من العلوم، فالأول هو المناسب لمقام المدح والتعظيم كما ترى، ولا يقال: إن القصر في البيت طريقه تعريف الطرفين وأنّ «ما» موصولة وليست كافة لإن، والمعنى إن الذي يدافع عن أحسابهم هو أنا أو مثلي، فيكون الداعي لفصل الضمير وقوعه خبراً وليس وقوعه بعد «إنما» التي بمعنى «ما وإلا» وذلك لأن المقام مقام فخر كما قلنا فهو يقتضي «من» الموصولة التي للعاقل، وليس هنالك سر بلاغي ولا ضرورة شعرية تقتضي العدول عن «من» إلى «ما» ولذا فليست «إنما» إلا مركبة من «إن» وما الكافة.

وأضاف السكاكي وجهاً لطيفاً لإفادة «إنما» القصر، يسند إلى علي بن عيسى الربعي وهو أنه لما كانت كلمة «إن» لتأكيد إسناد المسند إلى المسند إليه ثم اتصلت بها «ما» المؤكدة، وليست ما النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو، ناسب أن يضمن معنى القصر، لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد، وعلى الرغم من لطافة هذا الوجه فإنه لا

(١) قطر بمعنى صرعه صرعة شديدة.

(٢) الذائد: من الذود وهو الدفاع، والذمار: ما يلزم الشخص حمايته من أهل ومال ونحوهما مأخوذ من الذمر وهو الحث.

يصلح دليلاً لإفادة إنما القصر، لعدم اطراده في كل الأساليب التي يجتمع فيها مؤكدان نحو: إن زيداً لقائم[1].

وأضاف بهاء الدين السبكي أن من الأدلة على إفادة «إنما» القصر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ ...﴾، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ..﴾، فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت إنما للحصر ليكون معناه لا آتيكم به إنما يأتي به الله، ولا أعلمها إنما يعلمها الله[2].

وتلك إضافة جيدة، فقد نظر ابن السبكي إلى استعمالات إنما في التراكيب ولم ينظر إلى ما قاله العلماء وأهل صناعة الكلام في شأنها، وعندما تتأمل سياق الآيات الكريمة التي أشار إليها تجد أن «إنما» يتحتم أن تكون للحصر، تأمل سياق الآية الأولى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[3]، تجد أن القوم قد طلبوا العذاب الذي أنذرهم به - عليه السلام- واستعجلوا وقوعه، فأجابهم بأن مهمته إنما هي تبليغ ما أرسل به وأن العلم بوقوع العذاب عند الله وحده، لا يتعداه إلى هود فما هود إلا مبلغ، وبهذا يتضح لك أن قوله تعالى: «إنما العلم عند الله» يدل على القصر لا محالة. . وتأمل سياق الآية الثانية: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾[4] فالمراد يأتيكم به الله إن شاء لا أنا، لأن مهمته - عليه السلام - تقف عند حد التبليغ. وانظر سياق الآية الثالثة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾[5]، أريد: علمها عند ربي ليس عندي، فالسياق -كما رأيت- يقتضي أن تكون «إنما» للقصر لإفادتها النفي والإثبات معاً.

هذا والمقصور عليه «بإنما» هو المؤخر دائماً، تقول في قصر العلم على محمد، إنما العالم محمد، وفي قصره على العلم، إنما محمد عالم، وتأتي «إنما» لإفادة كل أنواع القصر، فهي تفيد القصر الحقيقي بقسميه التحقيقي والادعائي كما تفيد القصر الإضافي

---

(١) الإيضاح ٢ / ١٤ .
(٢) شروح التلخيص ٢ / ١١٣ .
(٣) سورة الأحقاف: ٢١-٢٣ .
(٤) سورة هود: ٣٢-٣٣ .
(٥) سورة الأعراف: ١٨٧ .

بأنواعه الثلاثة: القلب والإفراد والتعيين. اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(١) ، تجد إرادة الشيطان قد قصرت «بإنما» على إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والمسير وصدهم عن الذكر والصلاة، فهو قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً غير تحقيقي، لأنه مبني على المبالغة، إذ الشيطان يسلك كل طريق لكي يبعد العبد عن طاعة ربه، ولكن لما كانت هذه الأمور وهي الخمر والميسر والصلاة والذكر من الخطورة بمكان فقد قصرت إرادة الشيطان عليها وكأن ما عداها لا يعتد به إذا ما قورن بها.

ولما كانت «إنما» تستعمل في الأمور المعلومة التي لا تنكر ولا تدفع -كما سيأتي- فقد أوثرت بالتعبير هنا لتنبيء بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة التي لا ينكرها أحد ولا يدفعها مدافع.. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) ، حيث قصر ما يأمر به الشيطان على السوء والفحشاء والقول على الله بلا علم قصراً حقيقياً وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٣) ، حيث قصر خشية الله على العلماء قصراً حقيقياً غير تحقيقي، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكنه لم يعتد بذلك، لأن المقام مقام حث على العلم والنظر والتأمل في عجيب صنع الله، وقد مرت بك هذه الآية الكريمة، فارجع إلى ما قلناه فيها.. وقوله تعالى: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤) ، إذ المراد أن من بدل الوصية وحرفها وغير حكمها ، فالإثم واقع عليه وحده، والله سبحانه وتعالى مطلع عليه وكاشف أمره، وواضح أن القصر في الآية قصر صفة الإثم أو العقاب على الذين يبدلون . قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً.

وانظر إلى قول شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تجده قد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً ادعائياً، وهذا القصر ينبىء بقيمة الأخلاق وأهميتها في بناء الأمم والشعوب حيث لم يعتد الشاعر بما سواها مما يمكن أن يساهم في بناء المجتمعات.. وتقول: إنما زهير شاعر، فتفيد قصر زهير

---

(١) سورة المائدة: ٩١ .
(٢) سورة البقرة: ١٦٩ .
(٣) سورة فاطر: ٢٨ .
(٤) سورة البقرة: ١٨١ .

على صفة الشعر لا يتعداها إلى صفة الكتابة، فيكون قصراً إضافياً إما قصر قلب أو إفراد أو تعيين، حسب اعتقاد المخاطب - كما مر بك - وتأمل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]، تجد قصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - على صفة الإنذار لا يتعداها إلى الإتيان بالآيات، فهو قصر إفراد، إذ يعتقد الكافرون أنه - عليه الصلاة والسلام- يجمع بين صفتي الإنذار والإتيان.. وقد ذكر عبد القاهر[2] أن «إنما» لا تستعمل إلا في قصر القلب، والصواب ما ذكرناه وهو أنها تستعمل في كل أنواع القصر كما رأيت في الشواهد وهو ما عليه جمهور البلاغيين.

هل تفيد «أنما» القصر؟:

يرى بعض العلماء كالزمخشري والبيضاوي والتنوخي، أن «أنما» من طرق القصر، فهي كإنما بالكسر في الدلالة على القصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل يثبت للفرع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[4]، والذي أراه -والله أعلم- أن «ما» في «أنما» زائدة للتأكيد وأن المراد في الآية الأولى: قصر «يوحي إلي» على «أنما إلهكم إله واحد» والمعنى ما يوحى إليَّ في أمر الإله إلا وحدانيته، والمراد في الآية الثانية قصر الرسول - عليه الصلاة والسلام- «أنا» على بقية الجملة، أي على كونه بشراً مثلهم يوحى إليه أن إلههم إله واحد..

٤- التقديم:

ومن طرق القصر «التقديم» وهو باب واسع من أبواب البلاغة، تكمن وراءه العديد من المزايا والأسرار البلاغية، وعد إلى تقديم المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل في الجزء الأول فقد تكفل بيان هذه المزايا وتلك الأسرار، ومرادنا هنا أن نبرز دلالة التقديم على القصر. تأمل قولك: ما أنا قلت هذا الشعر، فقد دل تقديم المسند إليه وإيلاؤه أداة النفي

---

(١) سورة الرعد: ٧.

(٢) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٢٠.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٨.

(٤) سورة الكهف: ١١٠.

على القصر، أي: نفي الشعر عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره.

ومن ذلك قول المتنبي:

وما أنا أسقمت جسمي به ... ولا أنا أضرمت في القلب ناراً

وقوله أيضاً:

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ... ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد أداة النفي، يفيد -غالباً- الاختصاص، ولذا كان من الخطأ أن نقول: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد غيري، أو تقول: ما أنا قلت شعراً، أو ما أنا أكرمت إلا زيداً[1].

وكذا تقديم المسند إليه في الإثبات كقولك: أنا سعيت في حاجتك، محمد يقري الضيف، فإنه يفيد القصر أو التقوية، وتأكيد الحكم، حسبما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال، والنكرة في هذا كالمعرفة تقول: ما رجل جاءني، فيفيد تقديم النكرة: القصر أي: نفي المجيء عن جنس الرجال وقصره على جنس النساء، والمعنى: ما رجل جاءني بل امرأة، أو نفيه عن الواحد وإثباته لغيره، والمعنى: ما رجل جاءني بل أكثر.. ونقول: رجل جاءني، فيفيد تقديمها تقوية الحكم وتأكيده أو القصر، أي قصر المجيء على جنس الرجال ونفيه عن جنس النساء، والمعنى: رجل جاءني لا امرأة، أو قصره على العدد، والمعنى: رجل جاءني لا رجلان.

ومن تقديم المسند الذي أفاد تقديمه القصر قوله جل وعلا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُون﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4].

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

وقول الآخر:

---

(١) ارجع إلى الجزء الأول لتعرف وجه الصحة والصواب لتلك الأقوال.

(٢) سورة الكافرون: ٦.

(٣) سورة الصافات: ٤٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٨٩.

رضينـا قسمـــة الجبار فينـا لنـــا علـم وللأعــداء مـــال

وقوله:

لنـا القلـم الأعلى الذي بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل[١]

ومن تقديم أحد المتعلقات على الفعل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢]، وقـولـه جل وعـلا: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٣]، . . ومنه قول شوقي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحـق مـن مـلل الهـدى غـراء

وقول الآخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

وتقول: ما بهذا أمرتك. . ما زيداً أكرمت، فيكون كلاماً مستقيماً، لأنك قصرت الأمر والإكرام المنفيين على المقدم أي: نفيت الأمر عن الجار والمجرور المقدم وأثبته لغيره، ونفيت الإكرام عن زيد وأثبته لغير زيد، فإن قلت: ما بهذا أمرتك ولا بغيره. . ما زيداً أكرمت ولا أحد من الناس قلت ما ليس بقول[٤].

هذا والمقصور عليه بهذا الطريق هو المقدم دائماً، وهو صالح لكل أنواع القصر، فقوله تعالى: «إياك نعبد» قصر للعبادة على الله قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً، وقول عمرو: «لنا الدنيا ومن أضحى عليها» قصر للدنيا ومن عليها على كونها لهم قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً ادعائياً، وقول الآخر: «إلى الله أشكو لا إلى الناس» قصر إضافي صالح لأن يكون قلباً أو إفراداً أو تعييناً حسب اعتقاد المخاطب.

٥- ضمير الفصل:

ومن طرق القصر التي أقرها بعض البلاغيين ضمير الفصل وهو أن يعقب المسند إليه

(١) شباة كل شيء حدة طرفه وجمعها شبوات بفتح الشين في المفرد والجمع، والمراد أنهم يصيبون المحز بما يكتبون ويقولون فالبيت كناية عن الفصاحة وإجادة القول، والكلى: جمع كلية بضم الكاف.

(٢) سورة الفاتحة: ٥. (٣) سورة هود: ١٢٣.

(٤) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب.

بضمير الفصل لتخصيصه بالمسند بمعنى جعل المسند مقصوراً على المسند إليه، كقولك: زهير هو الشاعر، ففيه قصر لصفة الشعر على زهير، لا تتعداه إلى غيره، وطريق القصر هو الفصل بالضمير، وهذا الضمير حرف باتفاق جمهور النحاة وليس اسماً، والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب، وهو يقع كما ترى بين المبتدأ والخبر كما في المثال المذكور أو بين ما أصلهما المبتدأ والخبر كقولك: صار امرؤ القيس هو الشاعر وعلمت أن حاتماً هو الكريم، والمقصور عليه بهذا الطريق هو المبتدأ والمقصور الخبر، وتلاحظ في الأمثلة المذكورة أن ضمير الفصل قد أفاد بالإضافة إلى القصر: تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ، وتلك الإفادة تراها وراء كل أسلوب من أساليب القصر، كما أفاد أيضاً الدلالة على أن ما بعد المبتدأ خبر له وليس صفة، لأن قولك: زهير الشاعر، فيه إيهام أن الشاعر صفة لزهير، فإذا قلت: زهير هو الشاعر، اندفع هذا التوهم، وأصبحت الجملة دالة دلالة بينة على أن الشاعر خبر لزهير لا صفة.

ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[١]، التوفية في الآية بمعنى الرفع، فقد جاءت التوفية في كتاب الله على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت كما في قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[٢]، وبمعنى النوم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾[٣]، وبمعنى الرفع كما في قوله جل وعلا: : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾[٤].

وفي الآية الكريمة قصر لصفة المراقبة بمعنى: المراعاة والحفظ والعلم على موصوف وهو الله تعالى، وطريق القصر هو ضمير الفصل: «أنت» ولو لم يكن ضمير الفصل في الآية الكريمة للدلالة على القصر لما حسن، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم في جميع الأحوال، وإنما الذي حصل بتوفيته عيسى - عليه السلام- وقد كان شهيداً عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله، أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى، ولذا ينبغي أن يتعين إعرابه فصلاً دالاً على القصر[٥].

---

(١) سورة المائدة: ١١٧ .
(٢) سورة الزمر: ٤٢ .
(٣) سورة الأنعام: ٦٠ .
(٤) فتح القدير ٢ / ٩ .
(٥) شروح التلخيص ٢ / ٣٨٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1]، فقد قصرت صفة الفوز على أصحاب الجنة قصراً إضافياً، فهي لا تتعداهم إلى أصحاب النار، وطريق القصر هو ضمير الفصل، وذلك لأن الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه، وهذا لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل «هم» للاختصاص، ولا يتأتى إعرابه مبتدأ ثانياً ولا تأكيداً للجملة. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2]، حيث قصرت صفة الرزق على الله تعالى قصراً حقيقياً. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[3]، قصرت صفة «الأبتر» على «شانئك» والمعنى: إن عدو رسول الله - صلى الله عليه وسلم- هو المحروم من رحمة الله، المقطوع من كل خير.. ويمكن أن يكون طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند بأل الجنسية وعندئذ يكون ضمير الفصل لتأكيد القصر.. وتأمل قوله عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]، تجد أن صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى لا تتعداه إلى تلك المعبودات التي اتخذوها من دونه، فهو سبحانه وتعالى الخالق الرازق، الضار النافع، المحيي المميت، القادر على كل شيء، الحقيق أن يتخذ ولياً.. وطريق القصر: لك أن تجعله ضمير الفصل «هو» ولك أن تجعله تعريف المسند بأل الجنسية، ويكون الضمير تأكيداً للقصر.

٦- تعريف المسند أو المسند إليه «بأل» الجنسية:

إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين فالراجح أن السابق منهما هو المبتدأ، واللاحق هو الخبر، تقول: محمد الشجاع، فتخبر عن محمد بالشجاعة، وتقول: الشجاع محمد فتخبر عن الشجاع بمحمد، وتقول: زيد أخوك، وأخوك زيد، فالأول إخبار عن زيد بأنه أخوه، والثاني إخبار عن أخيه بأن اسمه زيد.. وعندما يكون أحد طرفي الإسناد معرفاً «بأل» التي للجنس، فإن هذا التعريف يدل على القصر، إذ هو طريق من طرقه عند بعض البلاغيين، -كما عرفت- تقول: محمد الكريم، والكريم محمد، فتفيد بهذا قصر الكرم

(١) سورة الحشر: ٢٠.
(٢) سورة الذاريات: ٥٨.
(٣) سورة الكوثر: ٣.
(٤) سورة الشورى: ٩.

على محمد في الموضعين، فالمقصور هو المعرف «بأل» الجنسية سواء تقدم أو تأخر، والمقصور عليه هو الآخر.. وتقول: خالد الأمير، والأمير خالد، فتفيد قصر الإمارة على خالد قصراً حقيقياً تحقيقياً إذا لم يكن ثمة أمير سواه.. وتقول: محمد الشجاع، والشجاع محمد فتفيد قصر الشجاعة على محمد قصراً حقيقياً ادعائياً لأنك تجعله الكامل في الشجاعة، ولا تعتد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبة الكمال، وتقول محمد القوى، والقوي محمد، فتفيد قصر القوة على محمد قصراً إضافياً، إذا أردت أنه القوي دون زيد أو عمرو مثلاً، وتقول أنت المقدام، وهو المطاع، ونحن الأبطال، فتفيد قصر الصفات المذكورة على موصوفيها، قصراً حقيقياً أو إضافياً حسب مرادك بتلك الأقوال.. فإن كان طرفا الإسناد معرفين «بأل» الجنسية كقولك: العالم المنطلق، فإن السياق هو الذي يحدد المقصور والمقصور عليه، إذ هو صالح لقصر العلم على المنطلق ولقصر الانطلاق على العالم، والسياق هو الذي يحدد ويعين المراد.. والمقصور بهذا الطريق وهو المعرف بأل، أو الذي يحدده السياق إذا كان الطرفان معرفين معاً بها، قد يكون على إطلاقه كما في الأمثلة السابقة، وقد يقيد بقيد، كقولك: محمد المطاع في قومه، وأنت القائد الجرىء، حيث قصرت الطاعة المقيدة بالجار والمجرور على محمد وقصرت القيادة المقيدة بالجرأة على المخاطب. ومن ذلك قولهم: هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيراً. وهو الجواد حين يبخل الناس.. ومنه قول الأعشى:

هو الواهب المائة المصطفا ... ة إما مخاضا وإما عشارا

فالمخاض: الحوامل من النوق، والعشار جمع عشراء، وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر. والشاعر قد قصر الهبة على الممدوح، ليس مطلقاً، وإنما مقيدة بكونها من النوق وبكونها مائة وبكونها مصطفاة، وبكونها إما مخاضا وإما عشاراً، وهذا أبلغ في مقام المدح من قصر الهبة المطلقة، كما لا يخفى..

هذا وقد يأتي التعريف بلام الجنس لإفادة التأكيد وتقرير الحكم، دون الدلالة على القصر، كما في قول الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فليس المعنى على إرادة القصر، وإنما مرادها أن تقرر الحسن والجمال لبكائها صخراً، وأن تدل على أن حسنه حسن ظاهر وجماله جمال بين، فلا أحد يستطيع أن ينكره أو يشك

فيه، وإذا استقبح البكاء على قتيل، ظل بكاؤك الحسن الجميل الذي لا يستقبحه أحد، فالناس لا يترددون في حسن بكاء وقبح آخر، حتى يكون المعنى على القصر، وإنما هم يستقبحون البكاء على القتلى، ويستحسنون بكاءها صخراً. وبهذا يتضح لك أن المراد بتعريف المسند في البيت «بأل» الجنسية «الحسن الجميل» هو تقرير الحسن والجمال وتأكيدهما، وإبراز بكائها صخراً حسناً دائماً وجميلاً أبداً، وليس المراد به الدلالة على القصر.

أوجه الاختلاف بين طرق القصر:

ومن أهم ما ينبغي أن تتجه إليه عناية الدارس لأسلوب القصر، أن يقف على ما بين طرقه من فروق وأوجه اختلاف، فإن هذه الطرق على الرغم من اشتراكها في الدلالة على معنى القصر فإنها تختلف من عدة أوجه، ويوجد بينها فروق دقيقة ينبغي على الدارس أن يلم بها.. وأهم هذه الأوجه:

١ - أن دلالة التقديم، وضمير الفصل، وتعريف الطرفين أو أحدهما «بأل» الجنسية، على القصر ليست دلالة وضعية، وإنما هي دلالة تذوقية تفهم من فحوى الكلام وسياقاته وقرائن أحواله، فصاحب الذوق السليم، والطبع العربي الأصيل يستطيع إذا تأمل التقديم بين أجزاء الكلام أن يدرك ما يكمن وراءه من أسرار ودقائق، وأن يميز بين تقديم قصد به الدلالة على القصر وتقديم الغاية منه مزية أخرى، فليس كل تقديم يدل على القصر، وإنما يقع التقديم بين أجزاء الكلام لإفادة أغراض شتى ومزايا عديدة[1].

وكذا توسط الضمير بين طرفي الإسناد، قد يكون لتأكيد مضمون الكلام ويعرب مبتدأ ثانياً، فليس دائماً لإفادة الاختصاص.. وتعريف الطرفين أو أحدهما، بأل الجنسية قد يكون للتقرير وتأكيد نسبة المسند إلى المسند إليه، كما مر بك في بيت الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وبهذا يتضح لك أن دلالة هذه الطرق الثلاثة على القصر مرجعها إلى السياق ومعرفة قرائن الأحوال، والمتأمل الواعي، ذو الذوق السليم، الخبير بدلالات الكلام وخصائص التراكيب، هو الذي يميز بين ما يدل على القصر منها وما يقصد به إلى غاية أخرى.. أما «النفي والاستثناء» و«إنما» و«العطف بلا وبل ولكن» فدلالتها على القصر دلالة وضعية،

(١) ارجع إلى أغراض التقديم في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وعلى الرغم من ذلك خاض البلاغيون في بيان وجه تلك الدلالة، وقد مر بك وجه دلالة كل منها على القصر، ولا تتنافى الدلالة الوضعية لهذه الطرق الثلاثة مع دراستها، والبحث عنها في علم المعاني، لأنه لا يبحث فيه عن دلالتها على القصر وإنما يبحث فيه أصلاً عن مزايا القصر وأحواله وعن المقامات التي تدعو إلى التعبير بأساليب القصر وما من شك في أن هذا من صميم علم المعاني.

٢- أن الأصل في طريق «العطف بلا وبل ولكن» النص على المثبت والمنفي معاً، تقول: زهير شاعر لا كاتب، ما شوقي كاتباً بل شاعر ما عمرو جواداً لكن حاتم، ولا يترك النص على المثبت والمنفي في هذا الطريق إلا كراهة الإطناب في مقام الإيجاز، كما إذا قال لك قائل: زيد يعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والأدب، أو زيد يعلم البلاغة وخالد وعمرو وبكر وحاتم، فتقول له: زيد يعلم البلاغة لا غير، والمعنى في الأول: قصر زيد على علم البلاغة، أي زيد يعلم البلاغة لا غيرها، وفي الثاني: قصر علم البلاغة على زيد أي: زيد يعلم البلاغة لا غيره. ومثله قول الشاعر:

جوابا به تنجو اعتمد فوربنا لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

فقد نص في القصرين: «زيد يعلم البلاغة لاغير» .. «عن عمل أسلفت لا غير تسأل»، على المثبت فقط دون المنفي خشية الإطناب؛ إذ المقام مقام إيجاز واختصار.

أما بقية الطرق فالأصل فيها أن ينص على المثبت فقط دون المنفي، تقول: ما شاعر إلا زهير في قصر صفة الشعر على زهير، فقد صرح بالمثبت وهو زهير دون المنفي وهو من عداه وكذا القول في: ما زهير إلا شاعر، إنما أنت أب، إياك أكرمت، محمد الشجاع، خالد هو الوفى، ففي هذه الطرق قد نص على المثبت فقط، أما المنفي فمفهوم من القصر بمعرفة سياقات الكلام وقرائن أحواله.. وقد يصرح في بعض هذه الطرق بالمنفي دون المثبت كقولك في التقديم: ما أنا قلت هذا، ففيه نفي للقول عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره، فالمقصور عليه الذي صرح به هو المنفي عنه دون المثبت له كما ترى، وقد ينص على المثبت والمنفي معاً كقولك في الاستثناء التام: ما قام القوم إلا زيد، وقد مر بك أن الاستثناء المفرغ هو الأصل في الدلالة على القصر.

٣- اجتماع طريقين من طرق القصر:

لا يجوز أن يجتمع طريق النفي «بلا» العاطفة وطريق النفي والاستثناء -كما مر بك- لأن «لا» موضوعة لأن ينفي بها ما أوجب للمتبوع كقولك: زيد كريم لا شجاع فهي موضوعة للنفي ابتداء، لا لأن تعيد بها النفي في شيء قد نفيته، وهذا الشرط مفقود في النفي والاستثناء، لأن قولك: ما زيد إلا قائم، يفيد نفي كل صفة وقع فيها التنازع عن زيد وإثبات صفة القيام له، فلو قلت: «لا قاعد» فقد نفيت «بلا» العاطفة شيئاً هو منفي قبلها بما النافية، ولذا عيب قول الحريري:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

هذا إذا كانت «لا» العاطفة داخلة على المفرد، فإن دخلت على الجملة كقولك: ما هذا إلا لك لا يشاركك فيه أحد، فهو جائز، لأنك عندئذ لا تنفي «بلا» شيئاً قد نفي أولاً، وإنما تنفي بها جملة مؤكدة لجملة القصر المتقدمة عليها.

أما بقية الطرق فتجتمع والنفي «بلا» تقول في اجتماعه وإنما: «إنما زيد كريم لا شجاع»، وفي اجتماعه والتقديم: «إلى الله أشكو لا إلى الناس» وفي اجتماعه والتعريف بأل: زيد الكريم لا عمرو، وذلك لأن النفي في هذه الطرق ليس نفياً صريحاً، فأنت لم تنف «بلا» ما قد نفي من قبل نفياً صريحاً بأداة من أدوات النفي الموضوعة له، بل نفيت بها ما قد فهم نفيه في الجملة المتقدمة بغير أداة، والقصر عندئذ طريقه «إنما» و «التقديم» و «التعريف بأل» أما العطف «بلا» فتأكيد للقصر، وينبغي مراعاة ذلك عند بناء الجمل وصياغتها، فلا تبنى بناء تتناقض فيه أجزاؤها.. لا تقول: «إنما هذا لك لا ذاك» لأن المقصور عليه بإنما هو المؤخر، والمقصور عليه بلا هو المقابل لما بعدها، «فإنما» تقتضي أن يكون المقصور عليه هو «لك» و«لا» تقتضي أن يكون المقصور عليه «هذا»، وذا تدافع وتناقض في القول، فالصواب أن يقال: «إنما هذا لك لا لغيرك»: «إنما أخذ زيد لا عمرو»، «إنما زيد يأخذ لا يعطي»، «إنما أكرمت عمراً لا زيداً».. وتقول: زيد الكريم لا عمرو، وحاتم هو الثري لا خالد، وبهذا تنشغل لا بذاك، وبهذا تأمر لا بغيره فتراه كلاماً مستقيماً، إذ لا تدافع بين التعريف «بأل» أو «التقديم» وبين العطف «بلا» فإن قلت زيد الكريم لا البخيل، وعمرو هو الشجاع لا الجواد وبهذا تأمر لا تنهي، تناقض قولك وتدافع، فإن سألت: ألا يجوز أن يكون التقديم في المثال الأخير للتأكيد وتقوية الحكم، وعندئذ يكون

طريق القصر «لا» والمقصور عليه: «تأمر»؟، قلت: لا غبار على ذلك حيث لا تدافع في الدلالة عندئذ، ولا تناقض في القول، فالذي ينبغي مراعاته هو التنبه لما بين طرق القصر من فروق دقيقة حتى لا تبنى الجمل بناء تتناقض فيه أجزاؤها، فقد تجتمع -مثلاً- «إنما» وضمير الفصل أو التعريف بأل، فيقال: إنما الجواد أنت، إنما العالم هو محمد، وتجده كلاماً مستقيماً، إذ المقصور عليه بالتعريف أو بضمير الفصل هو الخالي من «أل» والمقصور عليه بإنما هو المؤخر، فلا تناقض في بناء العبارة، كما ترى بل إن طريقي القصر يؤكد كل منهما الآخر، فإن قلت: إنما أنت الجواد، إنما محمد هو العالم، تدافع الطريقان، ولو جعلت ضمير الفصل أو التعريف للتأكيد وتقوية الحكم وتقريره فلا تدافع، إذ يكون القصر مدلولاً عليه بإنما، والتعريف وضمير الفصل مؤكدان له.

وقد يجتمع طريق «إنما» وطريق «التقديم» كقولك: إنما زيداً أكرمت وإنما بهذا أمرتك.. وإنما عليك المعول.. فعندئذ يتحتم إلغاء دلالة أحد الطريقين على القصر ويبقى الآخر، وذلك لأنه لا يمكن أن نلائم بين طريق إنما وطريق التقديم، إذ المقصور عليه بـ «إنما» هو المؤخر، والمقصور عليه في التقديم هو المقدم، والذي يحدد ذلك هو السياق وقرائن الأحوال وما يقتضيه المعني.. تأمل قول المتنبي:

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردداً

تجد المعنى يقتضي أن يكون المقصور عليه هو الجار والمجرور «بشعري» لأنه أراد أن شعره قد احتوى كل فنون المديح واشتمل على كل الخصال والمناقب التي يمكن أن تحوم حولها أخيلة الشعراء ولذا فإن الشعراء إذا أتوا مادحين، فإنما يمدحون بشعره، ويكررون قوله، فالمعنى يقتضي أن يكون طريق القصر هو التقديم، وأن تكون «إنما» ملغاة.. وخذ قول الآخر:

ألا فليمت من شاء بعدك إنما ... عليك من الأقدار كان حذارياً

تجد المعنى يقتضي أن يكون حذر الشاعر مقصوراً على مرثيه: «عليك» لا يتعداه إلى غيره، فالمقصور: الحذر من الأقدار والمقصور عليه الجار والمجرور «عليك» وهذا معناه أن إنما ملغاة وأن طريق القصر هو التقديم.. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[1]، تجد المعنى يقتضي أن يكون الجار

---

(١) سورة الرعد: ٤٠.

والمجرور: «عليك» مقصوراً «والبلاغ» مقصوراً عليه، لأن المراد: قصر مهمة الرسول - صلى الله عليه وسلم- على التبليغ لا تتعداه إلى الحساب ونحوه، وليس مراداً قصر البلاغ على الرسول، وهذا معناه: أن طريق القصر هو «إنما» وأن دلالة التقديم على القصر ملغاة فهو للتأكيد وتقوية الحكم.. أما قوله: «وعلينا الحساب» فهو قصر للحساب على الله تعالى لا يتجاوزه إلى غيره وطريقه: التقديم، ومعنى الآية الكريمة « فإما نرينك بعض الذي نعدهم من الإهلاك والعذاب أو نتوفينك قبل تعذيبهم، فإن الذي عليك هو الإنذار وتبليغهم الرسالة، وعلينا نحن الحساب والجزاء لا عليك.. وهذا المعنى قد اقتضى أن يكون طريق القصر في الجملة لأولى -كما وضحنا- هو «إنما» وفي الجملة الثانية هو التقديم.. واقرأ قول المتنبي في مدح عضد الدولة:

وقد رأيت الملوك قاطبة ... وسرت حتى رأيت مولاها
ومن مناياهم براحته ... يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بفارس عضد الدو ... لة فناخسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة ... وإنما لذة ذكرناها

فقد عدد أسماء آباء الممدوح، ولما كانت العادة قد جرت على أنه لا تعدد أسماء الآباء إلا عند إرادة التعريف بشخص قاصر الذكر، قليل الشهرة، تدارك الشاعر ذلك فقال:

أساميا لم تزده معرفة ... وإنما لذة ذكرناها

أي: ما ذكرناها إلا من أجل اللذة، «فلذة» مقصور عليه مقدم، و«إنما» ملغاة.. وقد يحتمل المعنى أن يكون القصر بأي من الطريقين، على نحو ما ترى في قول العباس بن الأحنف:

كان لي قلب أعيش به ... فاصطلى بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم ... إنما للعبد ما رزقا

فجائز أن يكون ما للعبد مقصوراً على رزقه، لا يتعداه إلى رزق غيره، وجائز أن يكون: «ما رزقا» مقصوراً على «كونه للعبد» لا يتعداه إلى كونه لغيره، فعلى الأول يكون

طريق القصر «إنما» ودلالة التقديم ملغاة، وعلى الثاني يكون طريق القصر «التقديم» ودلالة «إنما» ملغاة، فالبيت - كما ترى - يحتمل المعنيين.

هذا ويرى البعض أنه إذا أدى اجتماع أي طريقين من طرق القصر إلى تدافع أجزاء الكلام ألغى أحدهما حسبما يقتضي السياق وتحدد القرائن، ولا يحكم على الكلام بالتناقض والتدافع، فلو قلت: إنما هذا لك لا ذاك ووجدت «إنما» لا تستقيم مع «لا» فعليك أن تلغي أحد الطريقين حسبما يملي عليك السياق، ولو قلت: إنما لك هذا لا لغيرك، فوجدت «إنما» متدافعة مع «التقديم» و «لا» فإما أن تلغيها وإما أن تلغي التقديم و «لا»[1].

ولعل هذا البعض قد نظر إلى اجتماع «إنما والتقديم» وإلى إلغاء أحدهما حسبما يقضي السياق، فرأى أن ما يجري على «إنما والتقديم» عند اجتماعهما يمكن أن يجري على أي طريقين، فليس هنالك ما يدعو إلى التفرقة بين اجتماع «إنما والتقديم» واجتماع غيرهما..

والذي أراه أنه لا يمكن التعويل على مثل هذه الأمثلة المصطنعة في إصدار هذه الأحكام، بل ينبغي أن يعتمد فيها على التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة من أقوال البلغاء، وأن ينظر إلى اجتماع طرق القصر في تلك التعبيرات الجيدة، ويقر عندئذ ما يقضي به سياقها، على نحو ما رأيت في اجتماع «إنما» والتقديم في النظم الكريم وفيما مر بك من شواهد.

٤- أن الأصل في طريق «النفي والاستثناء» أن يستعمل فيما شأنه أن يجهله المخاطب وينكره، والأصل في «إنما» أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره.. يقول عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطىء، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك»[2].

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١)، فالخطاب في الآية لمن يحاجون في عيسى ويرفعونه إلى مرتبة الإله، ويجدون في ذلك، ولذا دعوا إلى الابتهال: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(٢)، ثم أكد الخبر بإن واللام: «إن هذا هو القصص الحق» ثم جاء القصر بالنفي والاستثناء «وما من إله إلا الله» ثم أكد الخبر مرة ثانية: «وإن الله لهو العزيز الحكيم» . . وفي هذا ما يدفع إنكار المنكرين ويبدد جحودهم إلى ترك المحاجة في عيسى بعد وضوح الأمر ومجيء العلم. واقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ . وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٣)، . . فالرسول - عليه الصلاة والسلام- ينكر أشد الإنكار أن يكون ما يدعوهم إليه أساطير الأولين، وهم يعتقدون أنهم يهلكون بعنادهم وجدالهم الرسالة وصاحبها، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم ولذا جاء القصر في الموضعين بالنفي والاستثناء . . وخذ قوله تبارك وتعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ..﴾(٤)، فالمخاطبون وهم الكفرة ينكرون أشد الإنكار أن يكون الرسول متبعاً لوحي يوحى ويرون أن ما يقوله أساطير الأولين، ولذا جاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ» ومن أشعارهم قول المتنبي في ذكر سيف الدولة ووصف جيوشه وما يتبعها من طير:

له عسكرا خيل وطير إذا رمى ... بها عسكرا لم يبق إلا جماجمه

فكون الجيش على هذه الصورة من القوة وشدة الفتك وأنه لا يبقى من الأعداء حياً ولا جسداً ميتاً، وإنما يبقى جماجم ليس إلا، أمر غريب تتوقف النفوس في قبوله، ويكون منها إنكار له ودفع، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء: «لم يبق إلا جماجمه».

ومنه قول الآخر:

فما زادني الشيب إلا ندى ... إذا استروح المرضعات القتار(٥)

---

(١) سورة آل عمران: ٦٢ . (٢) سورة آل عمران: ٦١ .

(٣) سورة الأنعام: ٢٥-٢٦ . (٤) سورة الأنعام: ٥٠ .

(٥) استروح: اشتم. والقتار بضم القاف: ريح الشواء. . .

لأن ما ذكره من شأنه أن ينكر ويدفع وأن تتوقف النفوس في قبوله والتسليم به، فقد ذكر أن الشيب زاده ندى، ومن شأن من بلغ الشيب أن يكون حريصاً، ثم ذكر أن الوقت وقت شدة وحاجة فهو وقت تستروح فيه المرضعة القتار، فإذا كانت المرضعة وهي التي يحتال لها ويعتنى بها قد وصل بها الحال إلى أن تشم رائحة الشواء ولا تطعمه، فما بالك بغيرها.

إن ازدياد من بلغ الشيب ندى في هذه الحال أمر يدفع وينكر، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء: «ما زادني الشيب إلا ندى»، دفعاً لهذا الإنكار.

قلت: إن الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما شأنه أن يدفعه المخاطب وينكره ويجهله، وقد يخرج النفي والاستثناء عن هذا الأصل فيستعمل في الأمر المعلوم الذي لا ينكر، تنزيلاً له منزلة المجهول المنكر لاعتبارات بلاغية مناسبة.. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...﴾[1]، ففي الآية قصر للرسول - صلى الله عليه وسلم- على صفة الرسالة لا يتعداها إلى التبري من الهلاك، فهو رسول يموت ويخلو كما خلت الرسل من قبله، والمخاطبون وهم الصحابة رضي الله عنهم، يعلمون يقيناً أنه صلى الله عليه وسلم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى الخلد، فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد في الدنيا، ولكنهم لما كانوا متعلقين به - عليه الصلاة والسلام- ويستعظمون موته، ويعدونه أمراً خطيراً وحدثا جليلاً، نزلوا منزلة من ينكر موته، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والخلد أو التبري من الهلاك، فخوطبوا خطاب المنكر، والسر البلاغي هو تصوير حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر في نفوسهم وشدة حرصهم عل بقائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيهم على وفق ما يعلمون، وما هو راسخ في نفوسهم، ولا يخفى عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، فأنت تشعر بنغمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضي على ما ثبت في النفوس ورسخ، من إيمان واعتقاد، ولو استعملت «إنما» هنا، لكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقيل: إنما محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهي إبراز حال الصحابة، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

واقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾(١).

فالرسل عليهم السلام لا ينكرون أنهم بشر ولا يجهلون ذلك، ولكنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك ويدفعه، فجاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أنتم إلا بشر مثلنا..» لاعتقاد الكفرة أن الرسول لا يكون بشراً، وإصرار الرسل - عليهم السلام - على دعوى الرسالة، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم - في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة - واعتقدوا أنهم ليسوا بشراً، فكان القصر: «إن أنتم إلا بشر» قصر قلب أي: أنتم بشر لا رسل، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد، التنافي بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما. وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذي لا ينكره الرسل بتنزيلهم منزلة المنكر، يصور حال الكفرة وما خيم عليهم من جهل واعتقادات فاسدة أعمتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية.. أما قول الرسل لهم: «إن نحن إلا بشر مثلكم» فمن مجاراة الخصم، للتبكيت والإلزام والإفحام، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر لا يخالف فيه ولا ينكر، أن يعيد كلامه على وجهه، كما إذا قال لك من يناظرك: أنت من شأنك كذا، فتقول: نعم أنا من شأني كذا ولكن لا يلزمني من أجله ما ظننت أنه يلزم فكأن الرسل - عليهم السلام - قالوا: إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فالله يمن على من يشاء من عباده، فقد سلم الرسل بتلك المقدمة: « إن نحن إلا بشر مثلكم» بألفاظها ومعناها وفي هذا ما يؤنس نفوس الكفرة ويستميلهم نحو الحق والهدى، ولكنه لا يستلزم مقصودهم وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية فليس هنالك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو، ويصير أهلاً للرسالة وتلقي الوحي.. وخذ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ . وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ . إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾(٢)، فقد قصر - صلى الله عليه وسلم- على صفة الإنذار قصر إفراد فهو لا يتجاوز تلك الصفة إلى الجمع بينها وبين صفة الهداية، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك

---

(١) سورة إبراهيم: ١٠، ١١.

(٢) سورة فاطر: ١٩-٢٣.

لا ينكره ولا يجهله، ولكن لما كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على هداية قومه، ملحاً في توجيه الدعوة إليهم حتى شق على نفسه، نزل منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الإنذار والهداية فجاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أنت إلا نذير»، وسر بلاغته تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم- وتصوير حاله وإبراز حرصه على هداية قومه، وإلحاحه في دعوتهم وتبليغهم الرسالة، فقد بلغ في ذلك مبلغاً نرل فيه منزلة من اعتقد أنه يستطيع حمل الناس على الهداية قسراً، وسياق الآيات الكريمة يرشد إلى هذا المغزى، فقد بين أنه لا يمكن أن تستوي تلك الأضداد: الظل والحرور - الأعمى والبصير - الظلمات والنور- الأحياء والأموات- ثم صرح بأن الله - سبحانه وتعالى - يسمع من يشاء، وأنه -عليه الصلاة والسلام- لا يستطيع إسماع من في القبور، فهؤلاء الكفرة قد صاروا في عداد الموتى، والرسول في إجهاد نفسه وبذل كل ما في وسعه وإلحاحه في إسماعهم وهدايتهم كمن يسوي بين الأضداد - الأحياء والأموات- وهي ليست سواء، وكمن يحاول إسماع من في القبور، ولا جدوى في إسماعهم، فما عليك «يا محمد» إذا لم يقبلوا الهدى، فقد بلغت ونصحت، وأرشدت ووضحت، وما عليك بعد ذلك إذا لم يهتدوا: «إن أنت إلا نذير..».

هذا وقد يرد النفي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة منكر.. تأمل قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١)، تجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً، وطريق القصر هو النفي والاستثناء، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكر أو منزل منزلة المنكر، كيف ويونس - عليه السلام- يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء، فلا يتأتى ولا يعقل فيه مراعاة حال المخاطب - جل وعلا- وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس - عليه السلام- ومدى انفعاله بالخبر، فقد ألقى الخبر مؤكداً كما أحس. وكما امتلأت به نفسه، وفاض به ضميره، دون نظر إلى حال مخاطب، وتأمل قوله: «إني كنت من الظالمين»، وماذا لو قيل: لا إله إلا أنت سبحانك فأنا من الظالمين، إنه يكون كلاماً ساقطاً، فأنت تشعر عندئذ بخلخلة في السياق وعدم تناسق، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم.

---

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.

وانظر إلى قول دريد بن الصمة :

وهــل أنا إلا من غــزية إن غــوت غويــت وإن ترشــد غــزيــه أرشـــد

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه، وقد ألقى الخبر مؤكداً ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطباً منكراً أو منزلاً منزلة المنكر لكنت كمن يحاول المحاول ويتعسف في القول تعسفاً الكلام في غنى عنه .

وبهذا يتضح لك أن حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائماً في استخدام «النفي والاستثناء» أو في تأكيد الخبر، بل قد ينظر إلى غير المخاطب[1] .

أما «إنما» فالأصل فيها - كما قلت- أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره، فهي أداة هادئة تستعمل في المعاني الواضحة التي لا ينكرها المخاطب ولا يجهلها، وهذا عكس «النفي والاستثناء» الذي يستعمل في المعاني القوية والنبرات الحادة والأمور الغريبة . . وكأن «إنما» أداة همس وتنبيه ، يهمس بها المتكلم وينبه مخاطبه إلى تلك الأمور المعلومة، والمعاني الواضحة، تقول: إنما هو أخوك . . إنما هو صاحبك . . إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية . . إنما يعجل من يخشى الفوت، فتلك أمور معلومة لا يجهلها أحد ولا يدفعها مدافع، والقصر فيها تنبيه للمخاطب وتذكير له بما ينبغي أن يفعله تجاه الأخ والصديق ، وما ينبغي أن يفعله تجاه الاتحاد والتضامن، ومبادرة الفرصة . . إنها معان واضحة والقصر فيها -كما قلت- تنبيه للمخاطب وتذكير . . ولو وضعت : «ما وإلا» مكان إنما في تلك الأمثلة لما استقام المعنى؛ لأن النفي والاستثناء تلائمه المعاني القوية الثائرة تأمل قولك لصاحبك : أشفق على خالد ، وعامله معاملة طيبة، فإنما هو ابن صديقك عمرو ، تجد أن القصر بإنما كأنه همس وتنبيه للمخاطب، وتذكير له بتلك الصداقة وما ينبغي عليه أن يفعله تجاهها، ثم انظر إلى قولك : كيف تؤذي خالداً وتقسو عليه ، وما عهدناك إلا صديقاً حميماً لأبيه، تجد أن المعنى هنا أقوى حدة وأشد إثارة، ولا تشعر فيه بالهدوء الذي لمسته في القول الأول ، ولذا لاءمه النفي والاستثناء .

ومن شواهد «إنما» قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي :

إنمــا أنـت والـــد والأب القــا طــع أحني من واصـــل الأولاد

فالشاعر لم يرد أن يعلم كافوراً أنه بمنزلة الوالد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ، ولكنه أراد أن يذكره بالأمر المعلوم ، ليبني عليه استدعاء ما يوجبه، وليلفته إلى

(١) ارجع إلى أضرب الخبر في الجزء الأول من هذا الكتاب.

حق الولد على أبيه من العطف والحنان . . ومثله قوله :

إنمــا تنجــح المقالـــة في المـــر ء إذا صادفـت هــوى في الـفـؤاد

وقول أبي تمام :

ولا تمكــن الإخـــلاق منها فإنما يلذ لبـــاس البـــرد وهــو جديـــد

وقول علي بن الجهم :

وقلـــن لنـــا نحـــن الأهلـة إنما تضـيء لمـن يسرى بليل ولا تفري

وقول الخطفي جد جدير :

وفي الصمـت ستر للغبي وإنمـــا صحيفـة لـب المـرء أن يتكلمـــا

وقول الآخر :

وما الزيـــن في ثــوب تراه وإنمـــا يزين الفتى مخبـــوره حين يخبـــر

فإن طـــرة راقتـــك فانظر فربما أمـــر مـــذاق العود والعود أخضر

وغير خاف عليك دخول إنما في تلك الشواهد على معان واضحة معلومة ، لا يجهلها المخاطب ولا يدفعها . . . وتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1] تجد أن الصدقات قد قصرت على كونها للفقراء وما عطف عليهم، لا تتعدى تلك الأصناف إلى غيرها، وهذا أمر معلوم لا يتردد فيه عاقل ولا يدفعه منكر . . وكذا القول في الآيات : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[2] . . ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾[3] . . ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[4] . . . ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[5] فقد جاء القصر «بإنما» في الآيات الكريمة ، لأن المعاني التي استعملت فيها معان واضحة بينة، لا يجهلها المخاطب ولا ينكرها السامع . .

وقد تستعمل «إنما» في الأمور التي ينكرها المخاطب ويدفعها تنزيلاً لتلك الأمور منزلة ما لا يجهله المخاطب ولا ينكره ، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها ويعمد . تأمل قوله

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .
(٢) سورة التوبة : ١٨ .
(٣) سورة التوبة : ٩٣ .
(٤) سورة الإسراء : ١٥ .
(٥) سورة الرعد : ٧ .

تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[1] تجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خبر ينكره المخاطب ويدفعه فكان حق القصر أن يكون بالنفي والاستثناء: «إن نحن إلا مصلحون» ولكن النظم الكريم آثر التعبير «بإنما» تنزيلاً لهذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم الظاهر، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره، لأنه من الوضوح بمكان ولذا جاء الرد عليهم عنيفاً وقاسياً: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» فقد بدأ «بألا» الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلقى بعدها، ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم، وكأنه ليس على وجه الأرض مفسدون سواهم، وأكد ذلك «بإن»: «ألا إنهم هم المفسدون» ثم جاء هذا الاستدارك «ولكن لا يشعرون» الذي بين أن خفاء تلك الحقيقة عليهم مرده إلى فقدانهم الشعور، فهم قوم لا يشعرون، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة انحصار الفساد فيما بينهم وقصره عليهم. .

وانظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهـاب من اللـــ ـه تجلت عن وجه الظـلماء

فقد وصف مصعب بأنه شهاب من الله، وآثر التعبير «بإنما» ليفيد أن كونه موصوفاً بتلك الصفة أمر ظاهر معلوم لا يرتاب فيه مرتاب ولا ينكره أحد، وذلك على عادة الشعراء إذا مدحوا، أن يدعوا في كل ما يصفون به ممدوحيهم الجلاء، وأنهم قد شهروا به حتى إنه لا يدفعه أحد. . . ولذا أنكر عبد الملك بن مروان مدح ابن قيس له بقوله:

يأتلـق التـاج فـوق مـفرقـــه على جـبين كـأنه الذهـــب

وقـال لـه: ألست أنت القـائل في مصـعب: «إنما مصـعب شهاب من الله، وكأن عبد الملك قد أحس بما في مدح مصعب من شدة ظهور وصدق إحساس وقوة شعور، وأن مـا قـاله ابن قـيس فـيه لا يقـارن بمـا قـاله في مـصـعب، خاصـة وأنه قـد مـدحـه بأمـر ظاهر محسوس، لا فخر فيه ومدح مصعباً بفضيلة من الفضائل النفسية وهي القوة والشجاعة، والمدح إنما يفضل ويحسن بمثل تلك الفضائل النفسية.

(١) سورة البقرة: ١١، ١٢.

٥- تحديد موقع المقصور والمقصور عليه:

ويختلف موقع المقصور والمقصور عليه باختلاف طريق القصر - كما رأيت- فالمقصور عليه بإنما هو المؤخر دائماً تقول: إنما أنت جواد، فتقصر مخاطبك على صفة الجود. وإنما الشاعر زهير، فتقصر صفة الشعر على زهير.

والمقصور عليه في التقديم هو المقدم كقولك في قصر الكرم على زيد: زيداً أكرمت.. والمقصور عليه في العطف ببل ولكن هو الواقع بعدهما تقول.. ما جاء زيد بل عمرو.. ما الشاعر زهير بل عنترة.. ما الشجاع حاتم لكن عمرو.. فتفيد بذلك قصر المجيء على عمرو، والشعر على عنترة، والشجاعة على عمرو، والمقصور عليه بضمير الفصل أو بتعريف أحد الطرفين بأل الجنسية هو الخالي من «أل»، تقول: عمرو هو الجواد، فتقصر صفة الجود على عمرو، وتقول: الشجاع خالد فتقصر صفة الشجاعة على خالد.. أما المقصور عليه في النفي والاستثناء فهو الواقع بعد أداة الاستثناء، ويجوز تقديم المقصور عليه مع أداة الاستثناء.. تقول: ما أكرمت إلا زيداً في قصر إكرامك على زيد، وتقول: ما جئت إلا راكباً في قصر مجيئك على تلك الحال، وتقول: ما كسوت زيداً إلا جبة، في قصر الكساء الذي كسوته زيداً على كونه جبة، وتقول: ما اخترت صديقاً إلا منكم، في قصر اختيارك الصديق على كونه منهم، ولك أن تقول: ما اخترت إلا منكم صديقاً، فتقدم المقصور عليه مع أداة الاستثناء.. ومنه قول السيد الحميري في مدح بني هاشم:

لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكم فارساً

ولا يجوز أن تقدم المقصور عليه بدون أداة الاستثناء، لأن أداة الاستثناء لو زحزحت من مكانها بتأخيرها عن المقصور عليه أو بتقديمها عنه لا ختل المعنى.. تأمل قولك: ما اخترت منكم إلا صديقاً: ما اخترت صديقاً إلا منكم.. وقولك: ما اختار منكم إلا فارساً.. وما اختار إلا منكم فارساً تجد المعنى قد تغير وتبدل(١).

فعليك أن تتنبه إلى أن المقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو ما يلي أداة الاستثناء، وأنه لا يقدم إلا حيث تقدمت معه أداته وإلا تغير المعنى واختل المراد من الكلام.

---

(١) ارجع إلى طريق النفي والاستثناء ص ٢٣ وما بعدها.

جمال التعريض «بإنما»:

صرح الشيخ عبد القاهر بأن أفضل مواقع «إنما» هو التعريض، لأنها فيه أقوى ما تكون وأعلق ما نرى بالقلب، فقد علمت أن الحكم الذي تستعمل فيه «إنما» من شأنه أن يكون معلوماً، لا يجهله أحد ولا ينكره منكر، لذلك امتازت عن بقية طرق القصر بأنها تستعمل في كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض، تقول لمن يهمل في مدارسة العلم ولا يجتهد في تحصيله: إنما ينال العلا من اجتهد، فأنت لم ترد أن تعلمه هذا الحكم لوضوحه وظهوره، وإنما قصدت أن تلوح له بإهماله وأنه لن يحقق رغبته في نيل العلا إلا بالجد.. وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(١)، فالمعنى: إنما يتذكر الحق ويعقله أرباب العقول السليمة والفكر السديدة، وليس الغرض من الآية أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر، بل ترمي من وراء ذلك إلى التعريض بذم الكفار، وأنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم، قد صاروا في حكم من ليس بذي عقل، فالذي يطمع منهم في أن ينظروا كمن يطمع في ذلك من غير أولي الألباب. وتلاحظ أن التعريض بإنما قد جاء بعد مقارنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه وبين الأعمى الذي أعرض عن الحق على الرغم من وضوحه وبيانه فاستحق ذلك التوبيخ الذي أفاده أسلوب التعريض.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾(٢)، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾(٣)، فالمعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ولا قلب يعقل فالإنذار معه كلا إنذار.. ومنه قول العباس بن الأحنف:

كان لي قلب أعيش به فاصطلى بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مطمع له في وصلها، لأنه لم يرزق محبتها ولذا يئس من أن يكون منها إسعاف له.. وقوله أيضاً:

---

(١) سورة الرعد: ١٩ .
(٢) سورة فاطر: ١٨ .
(٣) سورة النازعات: ٤٥ .

يلوم في الحب من لم يدر طعم هوى　　وإنمـا يعـذر العشـاق من عشقـا

يريد أن يقول : ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه ، فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق إلا من عشق ، ولو كان هذا اللائم قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فعذره وما لامه .

وقول الآخر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما　　نجح الأمـور بقـوة الأسباب

فاليـوم حاجتنا إليـك وإنمـا　　يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

يقول في البيت الأول : ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه ، وفي الثاني : إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة ، وعولنا على فضلك كما أن من يعول على الطبيب فيما يعرض له من السقم يكون قد أصاب في فعله وطلب الأمر من موضعه(١) .

هذا والتعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه ، ويستشف من أطراف المعاني المباشرة بمعرفة السياق وقرائن أحواله ، وليس هنالك وسيلة نحدد بها أي الأساليب يكون للتعريض وأيها لغيره ، فالمعول عليه في ذلك هو سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وما يفيض به التركيب من معان جانبية وإشارات وإيحاءات . . وقد حاول عبد القاهر تفسير جريان المعنى في أسلوب التعريض ، وارتباطه بإنما لدلالتها على القصر ، حتى إنك لو حذفت «إنما» يسقط المعنى التعريضي ، فلو قيل : «يتذكر أولو الألباب» لم يدل هذا القول على التعريض كما دلت الآية الكريمة : «إنما يتذكر أولو الألباب» ، والسبب في ذلك : أن التعريض إنما وقع لأن من شأن «إنما» أن الكلام معها يتضمن معنى النفي بعد الإثبات والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل ، وإذا أسقطت من الكلام فقيل : يتذكر أولو الألباب ، كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن فيه معنى نفي التذكر عمن ليس من أولي الألباب ، ومحال أن يقع تعريض بشيء ليس له في الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه . . ويجوز أن يقع التعريض بقولك : «يتذكر أولو الألباب» بإسقاط «إنما» إذا دل دليل على نفي التذكر عن غيرهم ؛ بأن أردت به مدح إنسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه لما تنبه له لعقله وحسن تمييزه ، كما يقال : «كذا يفعل العاقل» ، «وهكذا يفعل الكريم» ، عند التعريض بغير العاقل وبغير الكريم(٢) .

والله تعالى أعلم

---

(١) ارجع إلى الإيضاح ٢ / ٢٣ .

(٢) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٣١ .

الفصل الثاني

أساليب الإنشاء

وقفت في الجزء الأول من هذا الكتاب على الأسلوب الخبري وأحوال الإسناد الخبري وأحوال أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل، وعرفت ما يمتاز به هذا الأسلوب؛ إنه مبني على الحكاية ويقصد به الإخبار والإعلام بمضمون الجملة الخبرية، وبجانب هذا الأسلوب الخبري، توجد الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء، فليس الهدف منها الإعلام وحكاية الخبر، وإنما هي عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ إنشاء ليطلب بها مطلوباً، وتمتاز الأساليب الإنشائية بالحث وإثارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المخاطب.. ولمزيد من الإيضاح والتفرقة بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي تعالوا ننظر في تلك الشواهد.. يقول الغنوي في رثاء أخيه:

أخ كان يكفيني وكان يعينني ... على نائبات الدهر حين تنوب

عظيم رماد القدر رحب فناؤه ... إلى سند لم تحتجبه غيوب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... سريعاً ويدعوه الندى فيجيب[1]

عندما تتأمل هذه الأبيات تجد أن الشاعر يحكي عن أخيه ويخبر بأنه كان يأخذ بيده في أوقات الشدة، وكان كريماً تقصده الضيوف فلا يحتجب عنهم؛ لأن الكرم خلقه وشيمته، فهما حليفان لا يفترق أحدهما عن الآخر، ولا يتخلف عن إجابة دعواه.. وهذا الذي

---

(١) السند: ما ارتفع عن الوادي وسفل عن الجبل.. والغيب: البطن المنخفض من الأرض.. وحليف الندى أي: بينه وبين الندى وهو الكرم حلف وعهد.

يخبر به الغنوي قد يطابق الواقع فيكون صادقاً، وقد يخالفه فيكون كاذباً. . . وقارن بين رثاء الغنوي في الأبيات المذكورة وبين قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أعيني جوداً ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجواد الجميلا ... ألا تبكيان الفتى السيدا

تجد الأسلوب هنا يختلف، فالخنساء لا تخبر وإنما تنادي وتأمر وتنهي وتسأل، هي تحض عينيها وتحثهما على بكاء صخر، فهذه أساليب إنشائية، وهي وإن كان لها واقع في نفس الخنساء إلا أنه لا يقصد بتلك الأساليب مطابقة هذا الواقع أو مخالفته وإنما يقصد بها إنشاء تلك المعاني. . وكذا القول في قول سعد بن ناشب منادياً قومة آل رزام.

فيا لرزام رشحوا بي مقدما ... إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا

وقول البحتري:

فياليت طالة الشمسين غائبة ... وياليت غائبة الشمسين لم تغب

وقول الآخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

فهؤلاء الشعراء لم يريدوا الإخبار، وإنما قصدوا إلى إنشاء تلك المعاني. . ولذا ساغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى قسمين:

القسم الأول: الخبر، وقالوا عنه: إنه قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، كقولك: جاء زيد. . ذهب خالد. . نجح عمرو. . فتلك أخبار تحتمل الصدق والكذب، وقيدوه بقولهم «لذاته» أي: لذات القول، لينبهوا إلى تلك الأقوال التي لا تحتمل إلا الصدق كأخبار القرآن الكريم والحديث الشريف، وكالأقوال الثابتة نحو السماء فوقنا والأرض تحتنا والواحد نصف الاثنين، فتلك الأخبار لا تحتمل سوى الصدق ولكن هذا الاحتمال ليس لذات القول وإنما بالنظر إلى قائله وهو الله تعالى، والرسول عليه الصلاة والسلام، وباعتبارثبات الأقوال في الأخبار التي تتضمن أقوالاً ثابتة ولينبهوا أيضاً إلى الأخبار التي لا تحتمل إلا الكذب كأقوال مسيلمة الكذاب فمثل هذه الأقوال لا تحتمل إلا الكذب، ليس لذات القول، بل باعتبار من قالها، ولذا قيدوا احتمال الخبر للصدق والكذب بقولهم

«لذاته» أي: بغض النظر عن قائله. . ومرجع احتمال الخبر للصدق والكذب إلى تطابق النسبتين الكلامية والواقعية أو عدم تطابقهما، فقولك: نجح عمرو، له نسبتان كلامية يفيدها النطق بالخبر والإعلام به، وخارجية وهي ما عليه الواقع، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقاً وإن تخالفتا كان كاذباً.

القسم الثاني: الإنشاء، وقد عرفوه بقولهم: «قول لا يحتمل الصدق والكذب»، وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها - كما قلت - إلى إنشاء المعاني، وصوغها ابتداء ليطلب بها مطلوباً معيناً، وهذا لا يعني أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتهما فيكون المعنى على الكذب، بل لها نسبة خارجية وهي قيام المعنى الإنشائي من تمن أو أمر أو نهي أو استفهام أو نداء في نفس المتكلم، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتداؤه(١).

وأنت تستطيع أن تدرك ذلك عندما تتأمل الأسلوب الإنشائي وتقارن بينه وبين الأسلوب الخبري. انظر إلى قول الشاعر:

ولي كبـد مكلومـة من فراقكـم ... أطامنهـا صبراً علـى ما أجنـب

وقارنه بقول الآخر:

فيا ليـت مـا بينـي وبيـن أحبتـي ... من البعـد مـا بيني وبين المصائب

تجد أن المعنى في البيت الأول مبني على الحكاية والإعلام بالخبر الذي يحدث به عن نفسه ونستطيع أن نقول: إنه صادق فيما يخبر أو كاذب، أما المعنى في البيت الثاني فالمراد منه: إنشاء التمني وإيجاد النسبة وإيقاعها دون قصد إلى المطابقة لما في نفس الشاعر أو عدم المطابقة، ولذا تجد المعاني الإنشائية قد ترد في أسلوب الخبر كقولك: غفر الله لك وفرج كربك وأثابك. وكقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، كما أن المعاني الخبرية قد ترد في أسلوب الإنشاء نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(٢)، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار. .» وسنفصل القول في هذا - إن شاء الله تعالى - فيما بعد.

---

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ١ / ١٦٦ وما بعدها. .

(٢) سورة الأعراف: ٢٩ .

ولك أن تخبر عن أساليب الإنشاء فتقول: تمنيت لك الخير وأمرت خالد بالمعروف ونهيته عن المنكر واستفهمت عن موعد الاختبار وناديت عمراً فأقبل إليَّ، ورجوت لك الخير والصلاح وأقسمت بالله أن أبر والدي وعندئذ يأخذ الأسلوب طابع الحكاية والخبر فيكون كلاما يحتمل الصدق والكذب.

الإنشاء الطلبي وغير الطلبي:

وينقسم الإنشاء إلى قسمين:

١- إنشاء طلبي وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ويشمل أساليب الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء . . . تأمل قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾(٢)، وانظر في قول عمر يوصي ابنه عبد الله رضي الله عنهما: «يابني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكره زاده»، ثم تأمل قوله تعالى: ﴿**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾(٣)، وقوله جل وعلا: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا . . .**﴾(٤)، وقول شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

ماذا حشدت من الدموع لحافظ وذخرت من حزن له وبكاء

تجد أن هذه الشواهد قد اشتملت على أساليب إنشائية يطلب بها أمر غير حاصل وقت الطلب، فالله عز وجل يأمر نبيه «فاصدع» «وأعرض» والأمر طلب للفعل، وينهاه: «لا تحسبن» والنهي طلب الكف عن الفعل، وعمر ينادي عبد الله: «يابني» وفي النداء طلب الإقبال، والكافر يتمنى: «ياليتني قدمت» والتمني: طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، والسفهاء يسألون: «ما ولاهم» وشوقي يستفهم: «ماذا حشدت» والاستفهام طلب الفهم، فهذه الأساليب قد طلب بها - كما ترى - أمور غير حاصلة أثناء الطلب، ولذا كان الإنشاء فيها إنشاء طلبياً، فإذا استعملت تلك الأساليب - الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء - في أمور حاصلة وقت الطلب وجب تأويلها بالطلب بحسب القرائن وما يناسب المقام. .

---

(١) سورة الحجر: ٩٤ . (٢) سورة آل عمران: ١٦٩ .
(٣) سورة الفجر: ٢٤ . (٤) سورة البقرة: ١٤٢ .

تأمل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّه..﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾[2]، وقول عمر السابق: «يابني اتق الله..» تجد أن التقوى والإيمان المأمور بهما حاصلان وقت الطلب، فالمعنى فيهما على طلب دوام الإيمان واستمرار التقوى.

٢- إنشاء غير طلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله صيغ كثيرة منها: القسم كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[3]، وأفعال المدح والذم كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ..﴾[5]، والترجي كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[7]، والتعجب كما في قول الصمة بن عبد الله القشيري:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا

الربا: ما ارتفع من الأرض، والمصطاف: مكان الصيف، والمتربع: مكان الربيع، والمعنى أفدى بنفسي تلك الأرض لطيب رباها العجيب وجمال فصليها.. ومنها ألفاظ العقود كقولك: بعت واشتريت، ومنها رب وكم الخبرية لدلالتهما على إنشاء التقليل أو التكثير كما في قول القائل: «رب أخ لك لم تلده أمك» وكما في قوله عز من قائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾[8].

هذا وقد اهتم البلاغيون بدراسة أساليب الإنشاء الطلب، وأهملوا دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي، وحجتهم في ذلك أن الإنشاء الطلبي غني بالاعتبارات والملاحظات البلاغية، وأن أساليبه وهي الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء قد ترد ويراد بها غير معانيها، فالأمر لطلب حصول الفعل وقد يرد للتهديد ونحوه والاستفهام لطلب الفهم وقد يرد للإنكار وغيره... وهكذا فتلك الأساليب الطلبية يتولد منها بحسب القرائن والسياق معان بلاغية متعددة.. أما أساليب الإنشاء غير الطلبي فقد أهملوها لأمرين هما:

---

(١) سورة الأحزاب: ١.
(٢) سورة النساء: ١٣٦.
(٣) سورة الأنبياء: ٥٧.
(٤) سورة الذاريات: ٤٨.
(٥) سورة الجمعة: ٥.
(٦) سورة المائدة: ٥٢.
(٧) سورة الكهف: ٦.
(٨) سورة البقرة: ٢٤٩.

١ - أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء.

٢ - أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها، فالقسم لا يفيد إلا القسم والتعجب لا يرد لغير التعجب.. وهذا لا يعني أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية والمزايا الجمالية، بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة، انظر إلى أسلوب التعجب في التعبيرات الجيدة تجد وراءه كثيرا من الدقائق التي يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعاني... وتأمل أسلوب القسم في القرآن وتعدد مواقعه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم تجد وراء ذلك اعتبارات جديرة بالبحث والدراسة.. وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل.. وسنقوم - إن شاء الله تعالى - بالنظر في تلك الأساليب وتجلية ما وراءها من أسرار واعتبارات في بحث آخر مستقل... أما الآن فإليك أساليب الإنشاء الطلبية.

أسلوب الأمر:

للأمر صيغ أربع وهي:

١ - فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...**﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ...**﴾[2].

٢ - الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ...**﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿**فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ..**﴾[4].

٣ - اسم فعل الأمر، نحو: صه بمعنى اسكت، ومه بمعنى اكفف وعليك بمعنى الزم، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ..**﴾[5].

٤ - المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ..**﴾[6]، أي: وأحسنوا بهما، وقوله عز وجل: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ..**﴾[7]، أي: فاضربوا الرقاب.

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.
(٢) سورة هود: ٣٧.
(٣) سورة الطلاق: ٧.
(٤) سورة البقرة: ٢٨٢.
(٥) سورة المائدة: ١٠٥.
(٦) سورة النساء: ٣٦.
(٧) سورة محمد: ٤.

ومنه قول قطري بن الفجاءة:

فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع

وكقوله عليه الصلاة والسلام: «رفقاً بالقوارير»، وتقول: سعياً في الخير وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ورمياً بالرمح وضرباً بالسيف وحمداً لله وشكراً.

وقد قالوا في تحديد مفهوم الأمر: هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء حيث يكون من الأعلى إلى الأدنى، فالأعلى يطلب ممن هو دونه حصول الفعل وتحقيقه ويبعثه عليه ويحث، وقد اختلف البلاغيون فيما يستعمل فيه أسلوب الأمر، فيرى البعض أنه يستعمل في الوجوب وأن المراد به الإلزام والتكليف، وبعضهم يرى أنه للندب، وآخرون يرون أنه يستعمل في معنى يشمل الوجوب والندب وهو الطلب على جهة الاستعلاء، ويرى آخرون أنه من الألفاظ المشتركة بين الوجوب والندب فقط، أو بين الوجوب والندب والإباحة، وذلك كاشتراك لفظ الغزالة في الشمس والظبي، والخال في الشامة بخد الحسناء وأخ الأم، فأسلوب الأمر موضوع للمعنيين: الوجوب والندب أو للمعاني الثلاثة: الوجوب والندب والإباحة، أو لمعنى يشملها مثل الإذن(١).

ولهذا وجدنا الخطيب القزويني يحتاط عند تعريفه للأمر حيث قال: «والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو: ليحضر زيد، وغيرها نحو: أكرم عمراً ورويداً بكراً، موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة»(٢).

فلم يجزم بتعريفه - كما ترى - بل جعله «الأظهر»، ولعل سبب اختلاف البلاغيين في تحديد استعمال أسلوب الأمر، مرده إلى أن صيغ الأمر قد شغلت الدارسين في كثير من المجالات وبخاصة الفقهاء والأصوليين لاتصالها بالوجوب والندب وما إلى ذلك من أحكام فقهية، توجب الحذر في الدراسة والاستنتاج(٣).

والذي أراه أن الأصل في صيغ الأمر أن تستعمل في طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى للأدنى؛ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند سماعها - كما

---

(١) شروح التلخيص ٢ / ٣١٠ .

(٢) ارجع إلى الإيضاح ٢ / ٥٣ .

(٣) دلالات التراكيب ص ٢٦١ .

ذكر الخطيب- وقد تستعمل في غير هذا الأصل الذي وضعت له فتفيد الإباحة أو الدعاء أو التهديد أو التمني أو الحث والإثارة أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل. . إلى غير ذلك من المعاني التي تفيدها صيغ الأمر بمعونة السياق وقرائن الأحوال، وقد اهتم البلاغيون بالحديث عن هذه المعاني وتجليتها والكشف عن دقائقها ومزاياها في التعبير.

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها:

الأصل في أسلوب الأمر - كما بينت - طلب حدوث شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب على سبيل التكليف والإلزام من جهة عليا آمرة إلى جهة دنيا مأمورة، وقد يخرج الأمر عن هذا الأصل فيفيد معاني كثيرة يرشد إليها السياق وقرائن الأحوال، وأهم هذه المعاني:

١- الإباحة:

وذلك عندما تستعمل صيغة الأمر في مقام يتوهم فيه السامع حظر شيء عليه، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، فليس المراد هنا طلب الفعل استعلاء، ولكن لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين مجالستهما لما كان بينهما من سوء المزاج، أباح المتكلم له مجالسة أيهما شاء فالأمر - كما ترى - يفيد الإباحة، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين أو كليهما أو لا يجالس، وليس ملزماً له بفعل شيء. . ومن جميل ذلك قول كثير عزة:

أسيء بنا أو أحسني لا ملومة   لدينا ولا مقلية إن تقلت(١)

أي: لا أنت ملومة ولا مقلية، فكثير يبيح لعزة أن تسيئ إليه أو تحسن، فهو راض في الحالتين غاية الرضا، وسر جمال هذا التعبير أي: التعبير بصيغة الأمر في مقام الإباحة في هذا البيت أنه يكشف لنا عما أصاب الشاعر من عشق وهيام، فقد وصل به إلى منتهاه، حتى صار يطلب منها الإساءة كما يطلب الإحسان، ويلح في ذلك إلحاحاً، وكأن الإساءة أمر مطلوب مرغوب، فالإنسان عندما يصل به الحب إلى حد الإفراط يصير كل فعل يصدر

---

(١) القلى: البغض والكراهية وفي قوله: تقلت، التفات وحذف للمفعول والأصل إن تقليتنا فالتفت إلى الغائب وحذف المفعول.

عن حبيبه لا يراه إلا جمالاً، وبهذا يتضح لك أن استعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة يكشف عن مكنون نفسه ويبرز ما بداخله، بأخصر طريق وأجمله.

واستعمال الأمر في معنى الإباحة كثير في آي الذكر الحكيم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . .﴾(١) فالمراد من الأمر في الآية الكريمة إباحة الأكل والشرب في ليالي رمضان حتى طلوع الفجر، وفي التعبير بصيغة الأمر مكان الإباحة حث على تناول السحور وكأنه أمر مطلوب مرغوب فيه.. ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ...﴾(٢) ... ففيه حث على العمل وابتغاء الرزق.

٢- التخيير:

ويكون في مقام التخيير بين شيئين أو أشياء بحيث يختار منها السامع، كما في قول بشار:

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

فهو يخير مخاطبه بين أمرين: العيش واحداً منعزلاً أو صلة الإخوان ومخالطتهم مع التجاوز عما يكون منهم من إساءات، فتلك لابد منها، على حد قول الآخر:

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير، أن الإباحة إذن في الفعل وإذن في الترك فهي إذنان معاً، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين، ولذا فالتخيير لا يجوز الجمع بين الشيئين والإباحة تجوزه.

٣- التهديد:

ويكون في مقام عدم الرضا بالمأمور به، كما تسمع من الرئيس يقول لمرءوسه: افعل ما بدا لك، أو من السيد يقول لعبده: دم على عصيانك فالعصا أمامك، فليس من الأمر في الموضعين الامتثال، أي: فعل ما أمر به، ولكن المراد هو التهديد والوعيد، وكأن

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) سورة الجمعة: ١٠.

الرئيس والسيد يطلبان من المرءوس والعبد أن يخالفاهما وذلك لرغبتهما القوية في إنزال العقوبة بالمرءوس والعبد، فإذا ما كانت المخالفة كان العقاب مراً والإيذاء شديداً. . وتأمل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾(١)، فقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم أشركوا به وجعلوا له أنداداً ليضلوا عن سبيله ثم جاء الوعيد والتهديد: «تمتعوا فإن مصيركم إلى النار» فليس المراد بالأمر في الآية: «الامتثال»، وكأن الله تبارك وتعالى لما ارتكب هؤلاء ما لا يغفر وهو الشرك، أراد لهم أن يقوى طغيانهم ويشتد إعراضهم ويزدادوا تمتعاً بشهواتهم، فإذا ما تم لهم ذلك كان عقابهم أشد وأقوى، فليس الأمر مراداً - كما ترى - بل المراد هو الزجر والوعيد حتى يقلع هؤلاء عما هم فيه من عناد ومكابرة، وتدبر الالتفات من الغيبة في قوله: «جعلوا . . ليضلوا.» إلى الخطاب في قوله «تمتعوا فإن مصيركم. .» فهو التفات الغاضب المتوعد. . وخذ قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾(٢) فقد أمر المنافقون بالاستهزاء لا ليمتثلوا بل ليزدادوا نفاقاً على نفاقهم فيكون عقابهم أشد وأعتى، وفي هذا من الزجر والتوعد والتهديد ما فيه، وتجد الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب، كما في الآية السابقة يفيد شدة الوعيد وقوة الزجر. . ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣).

فليس المراد بالأمر: «اعملوا» أن يمتثلوا فيعملوا ما يشاءون بل المراد الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن الإلحاد ويكفوا عن العناد وكأن الله سبحانه وتعالى -لشدة غضبه عليهم- يأمرهم بما يوجب عقابهم لينكل بهم أشد تنكيل، وهذا هو سر بلاغة التعبير بالأمر في مقام الوعيد والتهديد. . وخذ قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» ثم قارن بينه وبين قوله عليه الصلاة والسلاك: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اصنعوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم. .» تجد أن الأمر في الحديث الأول يفيد التهديد والتوعد بدليل قوله: «إذا لم تستحي»، وفي الثاني يفيد التبشير وكمال الرضا عنهم، فالله سبحانه وتعالى قد أقبل إليهم «اطلع»، وفي هذا من التشريف والتكريم لهم ما لا يخفى، وقد أنعم

(١) سورة إبراهيم: ٣٠ . (٢) سورة التوبة: ٦٤ .
(٣) سورة فصلت: ٤٠ .

عليهم بالرحمة والغفران «إني قد غفرت لكم» وبهذا يتضح لك ما للسياق وقرائن أحواله فهو الذي يحدد المعنى الذي يفيده أسلوب الأمر، وعد إلى الآيات السابقة فتأمل سياقها وأنعم فيه النظر، وعندئذ فسيتضح لك أن أسلوب الأمر لم يفد ما أفاده إلا بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال في الآيات الكريمة . .

٤- التعجيز:

ويكون في مقام إظهار عجز من يدعي قدرته على فعل أمر ما وليس في وسعه ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ..﴾(١)، فليس المراد بالأمر في الآية الكريمة التكليف والإلزام بالإتيان بسورة من مثله، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان، لأنهم إن حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهر.

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التعجيز إبراز قوة التحدي والتسجيل عليهم ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة.

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(٢) وقوله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ **هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾(٤)، ولا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من قوة التحدي والتسجيل على المخاطب وإبراز عجزه، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم والتفكر فيما هم فيه من عناد ومكابرة وسوء تقدير . . وتأمل قول المهلهل مخاطباً آل بكر، ومعلناً شدة غضبه لقتلهم أخاه كليباً:

يا لبكر أنشروا لي كليباً   يا لبكر أين أين الفرار

فهو يهددهم بالويل والثبور ويطلب منهم إعادة كليب إلى الحياة، وإعادة كليب إلى الحياة من المحال، فالأمر في قوله: «أنشروا لي» للتعجيز وسر بلاغة التعبير بأسلوب الأمر

(١) سورة البقرة: ٢٣ .
(٢) سورة البقرة: ١١١ .
(٣) سورة آل عمران: ١٦٨ .
(٤) سورة لقمان: ١١ .

في البيت: إشعارهم بأنه لا منجى لهم ولا مهرب، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة.. وخذ قول الآخر:

أروني بخيلاً طـال عمـراً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

فالشاعر يتحدى المخاطبين أن يقفوه على بخيل قد امتد عمره وطال أجله بسبب بخله، وأن يبرزوا له كريماً قد مات من كثرة البذل والعطاء، وتشعر بما وراء ذلك من التنفير من البخل، والحث على الكرم والعطاء، فأسلوب الأمر في البيت، أسلوب موح ومقنع، يكشف أمر البخيل حتى يقلع البخلاء عن بخلهم ويبرز فضل الكريم المعطاء فيزداد كرمًا وتطيب نفسه ويقتنع بسلامة منهجه وصحة مسلكه..

ومثله قول الآخر:

أرونـي أمـة بلغـت مناهـا بغيـر العلـم أو حـد الحسـام

فغير خاف عليك ما وراء الأمر والتحدي من حث على طلب العلم ومكافحة الأعداء حتى ترقى الأمة وتبلغ مناها.

٥- الإهانة والتحقير:

وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة به كما في قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾(١)، فالكافر لا يمكنه الذوق؛ لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ومحنه وتلك حال لا يستطيع فيها أن يذوق إلا الحميم والغسلين، ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب الأمر من الإهانة والتحقير والتهكم والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق وحادوا عن المنهج القويم وتنبعث تلك السخرية من قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، ولا عزة ولا كرامة، وإنما ذلة ومهانة.. ومثله قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢) فالأمر بالتبشير في الآية يحمل معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء المنافقين.. وتأمل قول الشاعر:

فدع الوعيد فما وعيـدك ضائـري أطنين أجنحـة الذبـاب يضـير

(١) سورة الدخان: ٤٩.

(٢) سورة النساء: ١٣٨.

فأمره بترك الوعيد يشعر بمدى الحقارة والاستهزاء بهذا الذي يتوعد ويهدد وليس في إمكانه أن يحقق هذا الوعيد، فوعيده طنين كطنين أجنحة الذباب، وأنى لمثل هذا الوعيد أن يضير، بل كيف يتوعد من هذا شأنه.

٦- التسوية:

وتكون في مقام توهم رجحان أحد الأمرين على الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ**﴾[(١)] أي: يستوي عدم القبول منكم، سواء أكانت النفقة صادرة عن طواعية أو عن كراهية، وذلك أنه سبحانه وتعالى قد علم من حالهم عدم الاهتداء، وربما يتوهم المخاطب أن الإنفاق طوعاً مقبول فدفع ذلك بالتسوية بينهما.. ومثله قوله تعالى: ﴿**اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[(٢)] ... وقوله عز وجل: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا..**﴾[(٣)] أي: يستوي الصبر وعدمه في عدم النفع وذلك دفعاً لما قد يتوهم من أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة.. وتشعر في الآية الثانية فضلاً عن التسوية بين الإيمان وعدمه بمعنى الاحتقار والازدراء وقله المبالاة، أي: آمنوا أو لا تؤمنوا فقد آمن به من هم أفضل منكم وأعظم، ولذا استوى إيمانكم وعدم إيمانكم.

٧- التمني:

ويكون في مقام طلب الشيء المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه ولا طمع له في حصوله.. كما في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾[(٤)]، فقد طلبوا الخروج من النار ولات حين خروج، إنه محال ولا طمع لهم في حصوله ولكنه التمني.. وانظر إلى قول امرىء القيس:

ألا أيهـا الليـل الطويـل ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالشاعر قد كثرت همومه وتكالبت عليه الشدائد حتى أصابه الأرق وهجره النوم، فهو يتمنى أن ينجلي ذلك الليل، وينأى بظلامه عنه حتى يستقبل الصباح وينعم بضيائه،

(١) سورة التوبة: ٥٣.

(٢) سورة الطور: ١٦.

(٣) سورة الإسراء: ١٠٧.

(٤) سورة المؤمنون: ١٠٧.

ثم عاد ذلك بالنقض فقال: «وما الإصباح منك بأمثل» فأنت وهو سواء، وإنما طلب انجلاء الليل مع هذا، لأن في تغير الزمن راحة على كل حال.. وليس الغرض من صيغة الأمر «انجلى» طلب الإنجلاء من الليل، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر، وإنما يتمنى الشاعر ذلك تخلصا مما يعانيه..

وتأمل قول أبي العلاء المعري:

فيامــوت زر إن الحيــاة ذميمــة ويا نفس جـدي إن دهـرك هـازل

فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر «زر» وأراد بذلك التمني، لأن الموت لايقبل أن تطلب منه الزيارة، ولكن أبا العلاء يرى أن الموت قد تأخر مملا، ولذا تمنى زيارته حتى يلبي تلك الزيارة فقد أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، والشاعر يتمنى الموت تخلصاً مما يعانيه من قسوتها.. وهذا المعنى تراه شائعاً على ألسنة الناس فهم يطلبون الموت عند حلول الشدائد والأزمات وتكالب الأحزان، وعدم قدرتهم على تحمل نوائب الدهر ومصائبه، فيتمنون الموت تخلصاً من تلك النوائب..

٨- الدعاء:

وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع، ويكون في أسلوب الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة، كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي. هَٰرُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾(١) . وقوله عز وجل: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ**﴾(٢)، وقوله جل وعلا: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ..**﴾(٣) فالأمر هذه الآيات الكريمة ونحوها، المراد منه التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه.. وسر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء في الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله عز وجل وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا.. وتأمل قول المتنبي يخاطب سيف الدولة:

---

(١) سورة طه: ٢٥-٣٢. (٢) سورة آل عمران: ١٩٣.

(٣) سورة البقرة: ١٢٦.

أزل حسد الحساد عني بكبتهم   فأنت الذي صيرتهم لي حسداً

وقوله أيضاً:

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك   ولا تعطين الناس ما أنت قائل

تجد المتنبي يخاطب سيف الدولة بأسلوب الأمر: «أزل.. أعط..» ولا يريد بالأمر حقيقته من الإلزام والتكليف، لأن الأمير لا يأمره أحد من رعاياه، وإنما أراد المتنبي التوسل والدعاء، وإيثاره أسلوب الأمر يدل على رغبته القوية في تحقيق ما يريد، وكأنه أمر مطلوب من سيف الدولة.

٩- الالتماس:

ويكون عند خطاب من يساويك في الرتبة والمنزلة، والطلب منه على سبيل التلطف وبدون تضرع ولا استعلاء، على نحو ما ترى في قول امرىء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فهو يخاطب صاحبيه ويطلب منهما الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه، ليزرفا معه الدمع قضاء لحق هذه الذكرى الغالية، وهو طلب صاحب من صاحبيه بأسلوب الأمر، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يراد بصيغة الأمر «الالتماس» لا الإلزام والتكليف، لأن خطاب الند نده لا يراد به معنى الإلزام.. ومثله قول كثير:

خليلي هـذا ربع عـزة فاعقـلا   قلوصيكما ثم ابكيا حيث جلت[١]

فهو يطلب من خليليه أن يقفا معه ساعة في منزل فتاته «عزة» وفاء لها وقياما بحقه من البكاء فيه، لخلوه من ساكنيه.

والتعبير بصيغة الأمر في مقام «الالتماس» يوحي بمدى انفعال الشاعر وسيطرة ذكرياته عليه حتى أنسته كل شيء ماعدا رغبته في تحقيق ذلك الأمر من جميع الرفاق، وكأن البكاء ليس مطلوباً منه وحده بل مطلوب منهم جميعاً، وأسلوب الأمر لا يكون حسناً ومقبولاً بين الرفاق إلا إذا كان بينهم تواضع جم وحب شديد ولذا تلاحظ كثيراً يقول: «خليلي»، فهما خليلاه اللذان اصطفاهما وارتضى صحبتهما وألفهما.

(١) الربع: الحي أو الدار، والقلوص: الناقة الشابة. وعقل البعير: قيده.

١٠- النصح والإرشاد:

وقد يكون أسلوب الأمر للنصح والإرشاد وذلك إذا تضمن نصيحة لم تكن على وجه الإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1]، وقوله - عليه الصلاة والسلام- لعلي كرم الله وجهه: «إن أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك» ففي الآية الكريمة يوصي لقمان ابنه بتلك الفضائل وفي الحديث ينصح صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه أن يتحلى بتلك الخصال الحميدة، ولا يقال إن الأمر هنا للوجوب إذ المأمور به واجب، لأن المأمور به إنما يكون واجباً إذا وردت تلك الأوامر في مقام الأمر والإلزام من الله عز وجل، أما ورودها هنا على لسان لقمان في الآية وعلى لسان المصطفى في الحديث، فإن المقام يقتضي أن تكون للنصح والإرشاد.. ومن هذا القبيل تلك الأوامر التي ترد على ألسنة الوعاظ والمرشدين والموجهين، فهم يريدون منها النصح والإرشاد، وأن يعبروا عما يضمرونه من حب وإخلاص لأتباعهم، وهذا هو سر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الإرشاد والنصح.

١١- الإكرام:

كما في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾[2]، فقد قالوا في معناه: إنهم لما صاروا في الجنات، فإذا ما انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: «ادخلوها» وأرى - والله أعلم- أن أسلوب الأمر في الآية مراد به «الإكرام» للمؤمنين وهذا شائع بين الناس، فإنك تقول لضيفك وهو مستمر في الأكل والشرب كل واشرب، وقد تقسم عليه أن يأكل ولا تقصد إلا زيادة إكرامه وأن تصور ما في خلجات نفسك من حب له وسرور به.

١٢- وقد يأتي الأمر لتصوير حال المتكلم والدلالة على ما هو فيه من الحيرة والتخبط؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[3]، فأصحاب النار يعلمون يقيناً أن ما في الجنة محرم عليهم، ولكنهم

(١) سورة لقمان: ١٧ .

(٢) سورة الحجر: ٤٦ .

(٣) سورة الأعراف: ٥٠ .

لفرط ما هم فيه من هول وعذاب، كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه.

ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ..﴾[(١)]، وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾[(٢)]، وكأن الكافر وقد حضره ملك الموت وأبصر زبانية العذاب أصابه الهول فصار يطلب ما لا سبيل إلى تحقيقه، ولا يدري ماذا يقول، وكذا في الآية الثانية، كأن الأشقياء لشدة ما ذاقوا من العذاب في جهنم أصبحوا في حيرة وتخبط فصاروا يطلبون ويتمنون ما لا سبيل إلى تحقيقه.

١٣- وقد يأتي الأمر للإثارة والإلهاب والتهييج وذلك عندما يوجه إلى المأمور الواقع منه الفعل، والذي لا يتصور أن يكون منه خلافه، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[(٣)]، وقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(٤)] .. وقوله جل وعلا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ..﴾[(٥)] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي يوجه فيها الأمر بما هو حاصل أو النهي عن غير الحاصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الغرض من الأمر أو النهي عندئذ هو الإثارة والتهييج والإلهاب حتى يزداد المخاطب تمسكاً بما هو عليه من الحق واليقين ويستمر ويداوم، ولذا قالوا: إن التعبير بالأمر في مثل هذه الآيات وكذا النهي، يفيدان طلب الدوام والاستمرار، أي: طلب دوام التقوى والاستقامة والابتعاد عن الكفار وعن الطغيان.. ونرى أن أسلوب الأمر والنهي الموجهين إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مثل هذه الآيات يفيدان بالإضافة لما سبق، الإشارة إلى بسط سلطان الربوبية وتفردها بالأمر والنهي وأن البشرية في أسمى صورها وأعلى منازلها، وهي النبوة تؤمر وتنهي، وهذا تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة، وهو ما حرص الإسلام على إبرازه وتقريره، حتى لا يتطرق إلى عقيدة الوحدانية عند هذه الأمة، ما تطرق إليها عند الأمم السابقة، فقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود عزير ابن الله، ولهذا كان

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠ .
(٢) سورة المؤمنون: ١٠٧ .
(٣) سورة الأحزاب: ١ .
(٤) سورة هود: ١١٢ .
(٥) سورة الروم: ٣٠ .

أسلوب الأمر أو النهي الموجه إلى النبي - عليه الصلاة والسلام- في مثل هذه الآيات: «استقم - اتق الله - لا تطع- لا تكونن من المشركين» مشيراً إلى أن محمداً وهو الذي ما خلق الله ولا ذرأ ولا أبرأ نفسا أكرم عليه منه، إنما هو بشر يؤمر وينهى ويحذر ويتوعد: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١)، : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(٢) وبذا يظل للألوهية سلطانها القاهر المهيمن وتقف النبوة عند منزلتها السامية التي مهما سمت لا ترقى إلى مرتبة الألوهية(٣).

١٤- وقد يأتي الأمر تصويراً للحدث وبياناً لكيفية وقوعه انقياداً لقدرة الله تعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٤)، وقوله جل وعلا: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾(٥)، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٦) فالأمر في الآيات الكريمة: «ائتيا - موتوا - كن» يصور حال الحدث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى.. وفي هذا من الدلالة على القدرة البالغة ما لا يخفى صاحب الذوق الرفيع- وتأمل ما في الآيات من أمر يعقبه استجابة سريعة، ثم قارن بينه وبين أن تقول: فأماتهم الله ثم أحياهم. إنما أمره إذا أراد شيئاً يكون.. فأمرهما بالطاعة فأطاعنا.. فستجد أن تصوير الحدث وبيان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل، قد ولى وذهب، في هذه الأقوال..

١٥- وقد يأتي الأمر بالفعل مراداً به الحث على الاتصاف بصفة معينة، كما في قولك: مت وأنت كريم.. مت وأنت تقي.. صل وأنت خاشع.. واقرأ وأنت يقظ. فأنت في هذه الأقوال لا تريد أمره بالموت ولا الصلاة ولا القراءة وإنما تريد أن تحثه على تلك الصفات المذكورة وهي الكرم والتقوى والخشوع واليقظة، وأن يحافظ ويستمر على الاتصاف بها، ويحرص على ذلك طوال حياته فهذا هو الأولى به واللائق بأمثاله من الكرماء الأتقياء.. ومثل الأمر في ذلك أسلوب النهي تقول: لا تصل إلا وأنت خاشع.. لا تمت إلا وأنت كريم، ومرادك من هذا النهي: أن تحثه على الخشوع والكرم، لا نهيه عن الصلاة والموت.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) سورة الزمر: ٦٥.

(٢) سورة الحاقة: ٤٤-٤٦.

(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب ٢٧.

(٤) سورة فصلت: ١١.

(٥) سورة البقرة: ٢٤٣.

(٦) سورة يس: ٨٢.

اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ .﴾[1]، فالمراد حثهم على التمسك بالإسلام وألا يكونوا على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، أي : حثهم على أن يستمروا طوال حياتهم متمسكين بالإسلام محافظين عليه فإذا ما جاءهم الموت - وهو لا يأتي إلا بغتة - ماتوا وهم مسلمون.

١٦- وقد يرد الأمر ولا يراد به مأمور معين وإنما يراد به كل من يتأتي منه الخطاب، كما في قوله - عليه الصلاة والسلام- : «بشر المشائين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»، لا يريد - صلى الله عليه وسلم- مخاطباً معيناً، وإنما أراد عموم الأمر، حتى كأن كل فرد من أفراد الأمة مبشر لهؤلاء، وفي هذا تكريم للمشائين إلى المساجد وتنويه بشأنهم وبرضا الله تعالى عنهم وتجليه عليهم بالرحمة والغفران والنور التام. . إلى غير ذلك من الأغراض والمعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر، فهي كثيرة يطول حصرها، وما نريده الآن هو أن نقف على وجه دلالة أسلوب الأمر على تلك المعاني.

قال كثير من البلاغيين إن هذه المعاني التي يفيدها أسلوب الأمر معان مجازية بمعنى أن الأسلوب قد انتقل من الدلالة على الأمر إلى إفادة تلك المعاني، وكل مجاز لابد فيه من علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، وقد خاض البلاغيون وجدوا في التماس تلك العلاقات، فالعلاقة بين الأمر والإباحة هي الإطلاق والتقييد، لأن الأمر إذن مقيد، والإباحة لمطلق الإذن، فاستعمال الأمر في الإباحة مجاز مرسل. . ويجوز أن تكون العلاقة : التضاد، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد الإيجاب. . والعلاقة بين الأمر والتهديد : شبه التضاد وبين الأمر والإهانة : اللزوم. . وهكذا[2].

وبعضهم يجعل استعمال الأمر في تلك المعاني من قبيل الكناية، وبعضهم يجعله من قبيل مستتبعات الكلام. . وكذا القول في المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي أو أساليب الاستفهام الآتي بيانها. . والذي نراه أن دلالة الأمر وكذا النهي والاستفهام على تلك المعاني من مستتبعات الكلام بمعنى أن السياق وقرائن الأحوال هي التي تحدد تلك المعاني المرادة، وأنه لا داعي للخوض في التماس علاقات واهية بين تلك المعاني وبين أساليب الأمر والنهي والاستفهام، لأنه على الرغم من وهن هذه العلاقات فإنه لا فائدة

---

(١) سورة البقرة : ١٣٢ .

(٢) ارجع إلى هذه العلاقات في شروح التلخيص جـ٢ ص ٣١٣ وما بعدها.

للدرس البلاغي وراءها، فالأولى أن تصرف الهمم وأن توجه الأذهان إلى معرفة المزايا والأسرار الكامنة وراء استعمال الأساليب الإنشائية في الدلالة على هذه المعاني، والوقوف عليها من خلال سياقات الكلام ومعرفة قرائن أحواله، لا أن تبدد في اللهث وراء التقاط علاقات لا تنمي ذوقاً ولا تفيد شيئاً. تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» وقوله عليه الصلاة والسلام: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم» نجد أن أسلوب الأمر واحد «اعملوا ما شئتم - اصنع ما شئت» وعلى الرغم من ذلك اختلفت دلالته، وهذا الاختلاف مرده إلى السياق ووقوفنا على مرمى الكلام ومغزى الحديث، فالآية تتحدث عن الكفرة الذين يلحدون في آيات الله وتبين أنهم لا يخفون عليه تعالى، فهو عليم بهم ومصيرهم إلى النار، فليعملوا ما شاءوا، الأمر كما ترى ينبىء بالوعيد والتهديد الشديدين، وكذا الحديث الأول يتحدث عن الذي لا يستحيي من الله تعالى، فقوله صلى الله عليه وسلم في خطابه: اصنع ما شئت إنما هو وعيد وتهديد وزجر وتحذير. أما الحديث الثاني فإنه يتحدث عن هؤلاء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه إنهم أهل بدر، وقول الله لهم: «اعملوا ما شئتم» إنما هو وعد ورضا ونعيم ورضوان.. مثل هذا هو الذي ينبغي أن تكرث الجهود لمعرفته والإحاطة به فهو الذي ينمي الأذواق ويصقل الأذهان ويقف الدارس على خبايا التراكيب وأسرارها، ومزاياها الجمالية. أما أن يشغل الدارس بمعرفة أن استعمال الأمر في مقام «التهديد» مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من شبه التضاد، إذ المأمور به إما واجب أو مندوب والمهدد عليه إما حرام أو مكروه، وأن شبه التضاد هو الذي جوز استعمال الطلب مكان التوعد والتهديد استعمالاً مجازياً، فهذا ما أرى أنه لا فائدة من معرفته ولا ثمرة من الوقوف عليه، ولذا ينبغي أن يكون عن البلاغة بمعزل.. ومن أجل هذا فضلت القول بأن دلالة أساليب الإنشاء على معانيها البلاغية من مستتبعات التراكيب، وأن الواجب على الدارس أن يجد في تذوق تلك المستتبعات التي هي سياق الكلام وقرائن أحواله وأن يقف على أسرارها ودقائقها، ومن خلال ذلك يصل إلى المعاني البلاغية التي تفيدها تلك الأسباب.

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة فصلت: ٤٠ .

أسلوب النهي:

هو كل أسلوب يطلب به الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، فيكون من جهة عليا ناهية إلى جهة دنيا منهية، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية كقولك: لا تصاحب الأشرار، لا تفعل السوء، لا تكف عن البذل والعطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾(١)، وقوله عز وجل: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾(٢)، وقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾(٣). فقد أفاد النهي في الآيات الكريمة طلب الكف عن قتل الأولاد وعن الإفساد في الأرض وعن اقتراب حدود الله، وصيغته كما ترى هي المضارع المقرون «بلا» الناهية.

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي:

والذي تهتم به الدراسات البلاغية ليس هو طلب الكف عن الفعل وهو المعنى الأصلي لتلك الصيغة، وإنما تهتم بما وراء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهي، وأهم هذه المعاني:

١- الدعاء: وذلك عندما تكون تلك الصيغة صادرة من الأدنى إلى الأعلى، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ..﴾(٤)، فالمقام مقام ضراعة وخضوع، والمؤمنون يبتهلون إلى الله تعالى بهذا الأسلوب على سبيل التضرع والتذلل، فالمقصود منه الدعاء والابتهال.. وسر التعبير بصيغة النهي في مقام «الدعاء» في الآية الكريمة، هو بيان رغبة هؤلاء المؤمنين في أن يتجلى الله عليهم بالرحمة والغفران وإظهار كمال ضراعتهم وتذللهم إلى الله جل وعلا.. ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾(٦) إلى غير ذلك من

---

(١) سورة الإسراء: ٣١.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٥) سورة آل عمران: ٨.

(٦) سورة آل عمران: ١٩٤.

الآيات التي يتضرع فيها المؤمن إلى الله عز وجل داعياً وراجياً بهذا الأسلوب الذي يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله له دعاءه ويجيب طلبه.

٢- الالتماس: وذلك إذا كان النهي من المساوي والند بدون استعلاء ولا خضوع وتذلل، كقولك لنظيرك: لا تفعل هذا، ومنه قوله تعالى - على لسان هارون يخاطب أخاه موسى - عليهما السلام - : ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[1] ، فالنهي في قوله: «لا تأخذ» المراد به: «الالتماس» لأنه ليس فيه استعلاء وإلزام، ولا تذلل وخضوع حيث وجه من هارون إلى موسى وهما متساويان في الرتبة والمنزلة فهو يلتمس منه بهذا النهي، عدم إنزال العقوبة به، فقد خشي إن خرج عليهم أن يتفرقوا، وفي إيثار التعبير بنسبته إلى الأم «ياابن أم» على الرغم من كونه أخاه لأبيه وأمه: استعطاف لموسى وترقيق لقلبه، والسر البلاغي وراء التعبير بصيغة النهي في مقام الالتماس، في الآية الكريمة، هو إظهار حرص هارون على ترقيق قلب أخيه، ورغبته القوية الأصيلة في العفو والتسامح فقد كان له عذر. ومنه قول المتنبي في سيف الدولة:

فلا تبلغـــاه ما أقـــول فإنـــه | شجـاع متى يذكر له الطعن يشتق

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتما عن سيف الدولة ما يقوله في وصف شجاعته وحسن بلائه في الحروب، وقد عبر بأسلوب النهي في هذا المقام، مقام الالتماس، إظهاراً لشدة حرصه على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة، وفي ذلك ما فيه من تهويل وتفخيم لشجاعته وقوة فتكه بأعدائه.. ومنه قول الآخر:

خليلي من بيـن الأخلاء لا تكـن | حبالكمـا أنشوطـة من حباليـا[2]

فهو يلتمس من خليله الأثيرين عنده المحببن إلى نفسه ألا تكون مودتهما وصلتهما ضعيفة واهية، وقد عبر بأسلوب النهي إبرازاً لشدة رغبته في أن يتحقق له ما يريده من قوة الصلة ودوام المودة وتلاحم الروابط بينه وبينهما.

---

(١) سورة طه: ٩٤.

(٢) أنشوطة: واهية غير وثيقة العقد..

٣- النصح والإرشاد: كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[1]، فليس المراد بالنهي عن السؤال في الآية الكريمة: الإلزام وطلب الكف، وإنما أريد به النصح والإرشاد، وقد جاء بصيغة النهي رغبة في الاستجابة والامتثال.

ومنه قول أبي العلاء:

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدي[2]

فهو ينصح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنايا، وقد عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمتثل المخاطب ويستجيب لنصحه وإرشاده.

٤- الحث على الفعل.. كما في قول الخنساء:

أعيني جوداً ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

فهي تحث عينيها على البكاء وأن تجودا بالدمع وتنهملا وألا تبخلا به، فإنهما تبكيان صخر الندى، والتعبير بالأمر والنهي في هذا المقام يظهر شدة حزنها ورغبتها القوية في أن يتحقق ما تريده فتفيض عيناها بالبكاء وفاء لحق هذا المقام.. ومنه قول إسماعيل صبري:

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً فماؤه العَذب لم يخلق لكسلان

فهو ينهى المصريين عن الشرب من ماء النيل إذا لم يقدموا عملاً عظيماً يصبحون به جديرين أن يشربوا ماءه، والغرض من النهي هو الحث على التقدم والتفاني في سبيل رفعة مصر.

وإيثار التعبير بالنهي في مقام الحث في البيت، يبرز حب الشاعر لمصر ويصر عاطفته القوية نحو تقدمها ورقيها، فهو يرى أنه لا يستحق الحياة من لا يعمل لرفعة وطنه ويبذل جهده لتقدمه وازدهاره.

٥- التمني: كما في قول الشاعر:

يا ليل طل يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع

---

(١) سورة المائدة: ١٠١.

(٢) الدنايا: جمع دنية وهي العيب والنقيصة. والمراد بتعدي: تنتقل إلى من يجالسهم.

فهو يتمنى أن يمتد الليل ويطول وألا يطلع النهار وذلك حتى يطول اجتماعه بحبيبته والتحدث إليها، ووقوف الصبح وعدم طلوعه من المحال، ولكن الشاعر لرغبته الشديدة في أن يطول الليل خيل إليه أن توقف الصبح وعدم طلوعه أمر ممكن، فأمره بالوقوف: «قف» ونهاه عن الطلوع: «لا تطلع» ومراده بهذا: التمني ورغبته القوية في الاجتماع بحبيبته والتمتع بحديثها.

٦- التحقير والإهانة: كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ..﴾(١)، فالأمر والنهي في الآية الكريمة يحملان معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا وكانوا قوماً ضالين، ثم جاءوا يوم القيامة يتمنون الخروج من جهنم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾(٢)، فكانت تلك الإهانة: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾.

ومنه قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دع المكـارم لا ترحـل لبغيتهـا   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمراد بالأمر: «دع واقعد» والنهي: «لا ترحل» تحقير المخاطب وإهانته وإظهار أنه ليس أهلاً للكفاح من أجل المكارم والمعالي، فعليه أن يقعد وسيأتيه طعامه وكساؤه ممن يحسنون ويتصدقون عليه وعلى أمثاله.

٧- التوبيخ: كما في قول أبي الأسود الدؤلي:

لا تنه عـن خـلق وتـأتي مثلـه   عـار عـليك إذا فعلـت عـظيـم

فالمراد بأسلوب النهي: «لا تنه» توبيخ من ينهي الناس عن الشر والسوء ولا ينتهي عنه.. ومثله قول الآخر:

لا تحسب المجـد تمـراً أنت آكله   لن تبلغ المجـد حتى تلعق الصبرا

فالنهي في قوله: «لا تحسب» المراد منه توبيخ من يتقاعد ويتكاسل وهو يطمع في تحصيل المجد، وفي نفس الوقت فيه حث على العمل والجد لنيل العلا وتحقيق المجد.

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٨ .

(٢) سورة المؤمنون: ١٠٧ .

٨- التهديد: كقول الرئيس لمرؤوسه: لا تطع أمري.. لا تقلع عن عنادك، فهو لا يطلب منه ترك الامتثال لأوامره وإنما يهدده ويتوعده.. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ. لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ..﴾[١] فليس المراد نهيهم عن الاعتذار والتوبة وإنما المراد التهديد والتحذير حتى يقلعوا عن غيهم وعنادهم ويسلكوا مسلك الحق والهدى.

٩- التيئيس: كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.﴾[٢]، فلا معنى لنهيهم عن الاعتذار في ذلك اليوم وإنما هو التيئيس، وإعلامهم أنه لن يقبل منهم ولن يلتفت إليهم، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم.. ومنه قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

فقد أراد بالنهي: «لا تطلبن» تيئيس المخاطب من أن يصل إلى كريم بعد أن رأى سيف الدولة ونال كرمه، فسيف الدولة أكرم الكرماء وأسخى الأسخياء، وقد ختم به الكرام، ومهما حاول المخاطب أن يعثر على كريم مثله فلن يفلح، وفي هذا من المبالغة في كرم سيف الدولة وكثرة عطائه ما ترى.

١٠- التفظيع والتهويل: كقولك: لا تسأل عن فلان وقاك الله شر ما أصيب به.. تريد أن فلاناً هذا قد ألمت به الشدائد وأحاطت به المصائب التي لا توصف لشدتها وهولها وفظاعتها، فليس المراد بأسلوب النهي: «لا تسأل» طلب الكف عن السؤال عنه، وإنما أريد به التهويل وتفظيع ما ألم به، كأن المتكلم لا يستطيع وصفه، أو كأن المخاطب لا يطيق سماعه أو كأن المتحدث مشفق على مخاطبه فلا يريد إساءته بإسماعه تلك الأهوال.. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[٣]، في قراءة من قرأ بالنهي وجزم المضارع، أي: لا تسأل عن فرط ما هم فيه من العذاب وما آل إليه أمرهم من النكال، فإنه لا يستطيع أحد أن يصف لك هول ما هم فيه، أو لا تستطيع أنت سماعه لفظاعته

(١) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦.
(٢) سورة التحريم: ٧.
(٣) سورة البقرة: ١١٩.

وشناعته . . وقد يكون التهويل في النعيم والخير، كأن تقول: «لا تسأل عن فلان»، وتريد فلاناً الذي حل به من الخير والنعيم ما لا يوصف لكثرته ووفرته.

١١- وقد ينهى عن الفعل مقيداً بقيد أو موصوفاً بوصف، ولا يكون الغرض: النهي عن الفعل في هذه الحال بل النهي عن الفعل مطلقاً، ويكون القيد أو الوصف عندئذ للمبالغة في التنفير والتحذير كقولك: لا تضيع دينك بكسرة خبز . . لا تضيع حق جارك الصالح، لا تريد النهي عن ضياع الدين في هذه الحال، أو عن ضياع حقوق الجار الصالح فقط، وكأنك تبيح له أن يضيع دينه إذا غلا ثمنه، وأن يضيع حقوق جاره غير الصالح، وإنما تريد حثه على التمسك بدينه، وحفظ حقوق جاره مطلقاً، وقد قيدت التضييع بكسرة الخبز ووصفت الجار بالصلاح، لأن في ذلك مزيداً من التنفير والتقبيح، والمخاطب عندئذ يكون أكثر استجابة وأسرع انقياداً . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾[1]؛ وقوله عز وجل: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[3]، وقوله عز من قائل: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ...﴾[4]، فالأفعال المنهي عنها في الآيات الكريمة قد قيدت بقيود من شأنها أن تبعث على التنفير وأن تبرز فظاعة تلك الأفعال وشناعتها، وليس المراد النهى عن الأفعال المذكورة في الحال التي قيدت بها فقط دون ما عداها وإنما المراد النهي المطلق، وقد جيء بالقيد للتبشيع والتنفير كما قلت . . انظر إلى آية النهي عن الربا، تجد هذا النهي قد قيد بكونه أضعافاً مضاعفة والمراد النهي عن أكل الربا مضاعفاً وغير مضاعف، ولكنه جيء بهذا القيد تبشيعاً للصورة وتنفيراً للنفوس . . وتأمل آية النهي عن البغاء، وانظر كيف اختير الإكراه لينهى عنه: «لا تكرهوا» والمراد هو النهي عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أو بإقبالهن طواعية، ثم جيء بهذا القيد: «إن أردن تحصناً» والفتاة لا تكره على البغاء إلا إن أرادت التحصن والتعفف، وكأن القيد تأكيد للإكراه المنهي عنه، وفي هذا مزيد من التفظيع والتنفير، وتصوير الصورة في أبشع صورها، فتاة تعففت وتحصنت وسيد يكرهها على البغاء على الرغم من عفافها

(١) سورة آل عمران: ١٣٠ .
(٢) سورة النساء: ٣٣
(٣) سورة النساء: ٢ .
(٤) سورة النساء: ٦ .

وتحصنها، تلك هي الصورة المنهي عنها، وهي صورة تستبشعها النفوس وتستفظعها وتنفر منها، والمراد - كما قلت- هو النهي عن البغاء مطلقاً.

وتأمل الآيات التي تناولت تحريم أموال اليتامى في القرآن تجد أن هذا التحريم قد قيد بالأكل: «لا تأكلوا» ولا يعني ذلك أنه يجوز الاستيلاء على مال اليتيم واستخدامه في غير الأكل كالملبس والمشرب والمسكن ونحو ذلك، وإنما المراد النهي عن الاعتداء على أموال اليتامى بأى وجه من وجوه الاعتداء، ولكن لما كان العربي يتذم بملء البطن وكثرة الأكل ويعد ذلك من البهيمية، فقد أوثر التعبير بالأكل تفظيعاً وتنفيراً، وهكذا تجد الآيات التي تتناول تحريم الاعتداء على أموال الغير. انظر: «لا تأكلوا الربا».. «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل».. «لا تأكلوا مال اليتيم» فالتعبير بالأكل فيها يفيد التفظيع والتنفير، والمراد هو النهي عن الاعتداء على أموال الغير بأي وجه من الوجوه.. وعد إلى آيتي أموال اليتامى المذكورتين: «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم...» «ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا..» تجد أن هذين القيدين: «إلى أموالكم» و «إسرافاً وبداراً أن يكبروا» قد جيء بهما لزيادة التنفير وإبراز الصورة - صورة الاعتداء على مال اليتيم- في أبشع الصور وأفظعها، فهذا غني يضم أموال اليتامى إلى أمواله طمعاً وجشعاً وذاك يسرف ويبادر خشية أن يكبر اليتيم فيأخذ منه ماله.. ومما جاء على هذه الطريقة في أسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا..﴾[1]، فذو القربى ممن لا يرثون وكذا اليتامى والمساكين يعطون قدراً من الميراث على سبيل الندب وإرضاء النفس لا على سبيل الوجوب- وهذا مما تهاونت به الناس ولم يلتفتوا إليه- وهذا القدر يعطى للقريب غير الوارث وللمسكين واليتيم سواء أحضروا القسمة أم لم يحضروا وقد قيد الأمر: «فارزقوهم» بحضور القسمة ليكون ذلك أبعث على العطاء، ودافعاً أقوى لترضية ذوي القربى غير الوارثين واليتامى والمساكين وإسعافهم والقول لهم قولاً معروفاً..[2]

أساليب الاستفهام:

الهمزة والسين والتاء إذا زيدت في الفعل الثلاثي، أفادت معنى الطلب، يقال: استزاد أي: طلب الزيادة، واستغفر: طلب المغفرة واستفهم: طلب الفهم، فالاستفهام

---

(١) سورة النساء: ٨.

(٢) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٢٧٦.

يعني طلب الفهم، ولذا قالوا في تعريفه: الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأدوات خاصة. . وهذه الأدوات هي: الهمزة وهل ومن وما وكيف وكم وأين وأيان ومتى وأنى وأي. . وقد عرفت أن الجملة الخبرية التي تدخل عليها هذه الأدوات تتكون من أجزاء هي المسند والمسند إليه وأحد المتعلقات، وبضم هذه الأجزاء وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجملة التي تفيد حكماً معيناً بهذا الضم أو بذاك الإسناد. . وعندما تدخل هذه الأدوات على الجملة الخبرية يكون الاستفهام بها عن أحد أمرين: إما عن النسبة أي: الإسناد أو الحكم المفاد من الجملة ويسمى «تصديقا» وإما عن أحد أجزاء الجملة ويسمى «تصوراً» . . فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتاً أو نفياً. . والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة، المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات. . وأدوات الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع:

١- ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى، وهو الهمزة وحدها.

٢- ما يطلب به التصديق فقط، وهو هل . .

٣- ما يطلب به التصور فقط، وهو بقية الأدوات. .

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع «الهمزة وهل» ضوابط واعتبارات دقيقة ينبغي الوقوف عليها والإحاطة بها، أما بقية الأدوات فلكونها لطلب تصور أشياء محددة، فإنهم لا يلتزمون في بناء الجملة معها شيئاً زائداً عن الضبط العام في النظام الإعرابي ووجوب تصدر هذه الأدوات. .

وإليك إيضاح بناء الجملة مع الهمزة وهل وبيان ما يسأل عنه ببقية أدوات الاستفهام.

الهمزة: ويطلب بها إما التصديق، أي: إدراك النسبة الواقعة بين الطرفين ثبوتاً أو نفياً، وذلك عندما يكون السائل عالماً بأجزاء الإسناد، ويجهل الحكم أو مضمون الجملة، فهو يسأل ليقف على هذا الحكم. . وإما التصور، أي: إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالماً بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء. فإذا كانت الهمزة لطلب التصديق، كان جواب الاستفهام «بنعم أو لا»، ولا يذكر معها معادل، ويليها غالباً الفعل إن وجد. . تقول: أنجح خالد. . أعمرو شجاع؟ إذا كنت تتصور أجزاء الكلام: «نجح وخالد وعمرو وشجاع» وتتصور النسبة بين أجزائه أي بين نجح وخالد، وبين عمرو وشجاع، ولكنك تجهل وقوع هذه النسبة، أواقعة هي ومحققة أم غير واقعة، ولذا يجاب

سؤالك بنعم أو بلا، أي بتحقق هذه النسبة ووقوعها أو بعدم تحققها.. ومن ذلك قول الشاعر:

أأتـرك إن قلت دراهـم خالـد زيارتـــه؟ إنـــي إذا للئيـــم

فـالجـواب هنا بالنفي أي: «لا» لن أترك زيارته إن قل مـاله، لأن السـؤال عن التصديق، إذا المتكلم يعرف الفعل ويتصور الفاعل وهو المتكلم نفسه ويعلم المفعول وهو زيارة خالد، كما أنه يتصور النسبة بين تلك الأجزاء، ولكنه يتساءل أتقع منه أم لا تقع.. فإن ذكر المعادل «أم» بعد همزة التصديق هذه، كانت أم منقطعة بمعنى بل وكانت بعدها همزة أخرى مقدره، كما في قول الشاعر:

ولست أبالي بعـد فقـدي مالكـاً أموتي نـاء أم هـو الآن واقـع

فـالسؤال بالهمزة عن النسبة و«أم» للإضراب عن الكلام السابق، أي: عن هذا التساؤل، وبعدها همزة مقدرة يسأل بها سؤال آخر والمعنى: أموتي ناء؟ بل أهو الآن واقع؟.. وإذا كانت الهمزة للتصور وجب أن يليها المستفهم عنه.. ويذكر للمستفهم عنه - غالباً- معادل بعد «أم» المتصلة وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا وجد ما يدل عليه.. ولا يكون جواب الاستفهام عندئذ بنعم أو بلا، وإنما يكون بتعيين المستفهم عنه.. تقول في السؤال عن الفاعل: أمحمد جاء أم عمرو؟ فيكون الجواب: محمد أو عمرو أي بتعيين من جاء منهما ولا يقال عندئذ نعم أو «لا»، وفي السؤال عن الفعل أجاء محمد أم تخلف؟ فيقال: جاء أو تخلف وعن المفعول: أعمراً ضربت أم زيداً؟ فيجاب: عمراً أو زيداً وعن الظرف: أفي البيت زارك عمرو أم في المدرسة؟ فيجاب: في البيت أو في المدرسة.. وقد يستغنى عن المعادل إذا دل عليه دليل، كما في قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾[1] فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أن المسئول عنه هو الفاعل، حيث أشاروا إلى الفعل «هذا» فهو معلوم لهم، وهم يشاهدون الأصنام محطمة ويجهلون الفاعل، ولذا ولي الفاعل الهمزة «أأنت» والمعنى: أأنت فعلت هذا أم غيرك؟ وقد أجابهم -عليه السلام- معيناً لهم الفاعل على سبيل التهكم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٣.

وينبغي أن يراعى عند ذكر المعادل بعد «أم» المتصلة أن يكون موافقاً لما بعد الهمزة وألا يتناقض معه، على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، ﴿قل أأنتم أعلمُ أَمِ اللَّهُ﴾، ﴿أَهم خير أم قوم تبع﴾، ﴿ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ حيث تجد أن ما بعد «أم» مماثل لما بعد الهمزة. ولذا كان من الخطأ أن تقول: أزيدا أكرمت أم أهنت.. أأكرمت زيداً أم عمراً.. أجاءك خالد أم علي.. لتناقض ما بعد الهمزة مع ما بعد «أم» المتصلة، وهو ليس تناقضاً في تركيب العبارة فحسب، بل تناقض واضطراب في الإدراك والوعي؛ إذ تقديم المفعول مثلاً في قولك: أزيداً أكرمت؟ ينبىء بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الكرم والفاعل وهو المخاطب، فلو قلت بعد ذلك: «أم أهنت» أو قلت: «أم خالد» بالرفع تناقضت العبارة وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول.. وعليك أن تعلم أن الفعل إذا حدد وعين كان الشك في الفاعل والجهل به كقولك: أأنت بنيت هذه الدار؟ ولا يصح قولك: أبنيت هذه الدار؟، لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلوماً ويجعل الشك في الفاعل، وتقديم الفعل وإيلاءه الهمزة ينفي ذلك ويجعل الشك في الفعل وهذا تدافع وتناقض، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحدده، بل تتركه بلا تحديد كأن تقول: أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها.. أقلت الشعر الذي عزمت على قوله؟.. ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقول: أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟.. أأنت قلت الشعر الذي عزمت على أن تقوله؟.. لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله، وقولك: التي كنت على أن تبنيها.. الذي كنت على أن تفعله، يدل على أن الشك في الفعل.. وهذا تناقض.

فالسؤال عن الفاعل يقتضي بالضرورة معرفة فعل محدد معين حتى يقال في الجواب: «فعله فلان»، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد، فلا يقال: أأنت أكلت طعاماً؟. أأنت رأيت اليوم إنساناً؟.. أأنت قلت شعراً؟ وإنما يسأل في مثل هذا عن الفعل فيقال: أأكلت طعاماً؟.. أرأيت اليوم إنساناً؟.. أقلت شعراً؟.

هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ أزيداً لقيت أم بشراً؟ أفضل وأحسن. فإن قلت: أعندك زيد أم عمرو، ألقيت زيداً أم بشراً؟ كان حسناً جائزاً... وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون، لأنهم أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة - كما رأيت - وسيبويه يجوز تأخيره، بل يعده حسناً..

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازه سيبويه كان في مراحل سابقة، اللغة فيها تنمو، والتراكيب تتطور، ثم إن الترقي في التراكيب الهادف إلى تنقية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ما عداها مما أجازه سيبويه واستحسنه، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تركيبين يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن، توحي بصحة هذه الإجابة(١).

وقد يكون السؤال بالهمزة عن الفعل ويلي الهمزة غيره لغرض بلاغي وهو المبالغة في الإنكار، وتأكيد الردع والزجر، وذلك عندما يلي الهمزة ويعطف على ما وليها الفاعل أو المفعول أو الظرف الذي ليس للفعل غيره، كقولك: أفي ليل وقع هذا أم في نهار، فأنت لا تسأل عن الظرف، وإنما تنكر وقوع الفعل، ولم يل الفعل الهمزة كما ترى، بل وليها وعطف على ما وليها الظرف الذي ليس للفعل ظرف سواه، فإذا ما انتفى الظرف الذي لا ظرف يقع فيه الفعل غيره، كان هذا أبلغ في انتفاء الفعل، وأشد إنكاراً وأقوى ردعاً لمن يدعي وقوعه.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾(٢).

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(٣):

فالمعنى على إنكار «التحريم» و «الإذن» وقد ولى الهمزة غيرهما مبالغة في الإنكار والزجر؛ لأنه إذا انتفى المفعول الذي ليس للفعل مفعول غيره، في الآية الأولى والفاعل الذي ليس للفعل فاعل سواه في الآية الثانية، كان ذلك أبلغ في انتفاء الفعل، وأشد ردعاً وأقوى زجراً، لمن ادعى وجوده وثبوته(٤).

هل: أما «هل» فإنها لطلب التصديق فحسب، تقول: هل قام زيد؟، وهل عمرو ناجح؟، فتسأل عن نسبة القيام للأول والنجاح للثاني، ولذا يكون جوابك: نعم أولاً، أي: بإفادتك ثبوت النسبة أو نفيها.. ولما كانت «هل» لطلب التصديق فحسب: فقد ترتب على ذلك ما يلي:

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٢١٩ .
(٢) سورة الأنعام: ١٤٤ .
(٣) سورة يونس: ٥٩ .
(٤) دلائل الإعجاز ص ١٤٧ .

١- امتناع أن يذكر بعدها معادل «بأم» المتصلة، فلا يقال: هل زيد قائم أم عمرو؟ لأن «هل» تدل على أن مضمون الجملة وهو النسبة غير معلومة وأن السؤال عنها، ووقوع المفرد بعد «أم» دليل على أن «أم» متصلة، «وأم» المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم وأن المطلوب هو تعيين أحد الأمرين: المفرد الذي قبلها أو المفرد الذي بعدها، والسؤال عن ذلك إنما يكون بهمزة التصور: أزيد قائم أم عمرو؟ فالجمع بين «هل» و «أم» المتصلة في مثال واحد يؤدي إلى التناقض.. ويصح اجتماع «هل» و«أم» المنقطعة، لأنها بمعنى بل، فالكلام بعدها مستقل عما قبلها..

ومن ذلك قول الشاعر:

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحا   رحا الحرب أم أضحت بفلج كما هي

«فأم» في البيت منقطعة وقد ذكرت بعد هل - كما ترى - والمعنى: هل تغيرت الرحا: رحا الرحرب؟ بل أأضحت بفلج كما هي؟ فهما كلامان..

فإن وردت «أم» بعد «هل» وكان بعد «أم» المفرد، وجب تأويله بالجملة وجعل أم منقطعة للإضراب مع استفهام آخر مقدر، من ذلك ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر: «هل تزوجت بكراً أم ثيباً؟» فالمعنى: بل هل تزوجت ثيباً؟، وإذا لو قيل في المثال المذكور: هل قام زيد أم عمرو؟ إن المعنى: بل هل قام عمرو؟ لجاز ذلك وصح..

٢- يقبح استعمال «هل» في كل تركيب يتقدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلي أو المفعول على الفعل كقولك: هل زيد قام؟ وهل زيداً أكرمت؟ ووجه قبحه عند الجمهور، أن التقديم في هذين الحالين، قد يكون للاختصاص، والاختصاص يقتضي وقوع النسبة والعلم بها، وأن المراد هو السؤال عن الفاعل أو المفعول، وهل لا يؤتى بها لهذا، بل هي للتصديق، أي طلب العلم بالنسبة، فإذا كانت النسبة معلومة، عند دلالة التقديم على الاختصاص، كانت هل لطلب حصول الحاصل، وهذا عبث.. وظاهر هذا الوجه المنع ولكنهم عدوه قبيحاً لاحتمال أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم، لا للتخصيص الذي يقتضي العلم بالنسبة، أو لاحتمال تقدير فعل محذوف دل عليه المذكور فعلى الاحتمال الأول وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب، إذ الغالب في تقديم المفعول على الفعل أو المسند إليه على خبره الفعلي أن يكون للتخصيص ومخالفة الغالب قبيحة وعلى الاحتمال الثاني، يكون الفعل الظاهر قد منع من العمل بلا شاغل عنه

وذلك قبيح . . ورجح العلامة سعد الدين أن وجه عدم امتناعه هو الاحتمال الثاني دون الأول، لأننا لو قلنا إن التقديم في : هل زيد قام وهل زيداً أكرمت للاهتمام، لم يكن هنالك وجه لعده قبيحاً، وإلا للزم أن يكون التقديم للاهتمام قبيحاً مطلقاً ولا قائل به(١) .

وأما قولك: هل زيداً أكرمته؟ فهو صحيح لا قبح فيه، لأن الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره، والكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لزيد، ويكون هذا الفعل مقدماً على المنصوب، وبهذا تكون هل قد وليها الفعل، فلا قبح.

وكما يقبح دخول هل على المعرفة وبعدها فعل، فإنه يقبح دخولها على النكرة المتلوة بفعل نحو: هل رجل سافر؟ لنفس الأسباب المذكورة. . والقبح هنا في تقديم النكرة باتفاق البلاغيين، لأنه يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي، إذ يرى أن الأصل : هل سافر رجل، فرجل فاعل في المعنى، إذ هو بدل من الضمير المستتر في سافر، وقد قدم من تأخير، أما قولك: هل زيد قام فالتقديم فيه لا يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي، لأنه ليس مقدماً عن تأخير، ولو تأخر لكان فاعلاً في اللفظ لا في المعنى، فلم يتوفر الشرطان اللذان ذكرهما لإفادة التقديم الاختصاص، كما توفرا في تقديم النكرة، فكان يلزم ألا يكون تقديم المعرفة في: هل زيد سافر، قبيحاً على مذهب السكاكي حيث جعل علة القبح التقديم المفيد للاختصاص، ولكن هذا التقديم قبيح بإجماع النحاة. . فهل هناك تعليل آخر لهذا القبح المجمع عليه لا يرتبط بدلالة الاختصاص التي لم يقرها السكاكي؟ نعم هناك تعليل آخر- وإن لم يذكره السكاكي- يرجع إلى طبيعة هل وأصلها، لا إلى دلالة الاختصاص التي يحتملها التقديم، فقد قالوا: إن «هل» في الأصل بمعنى قد، وكانت ترد مسبوقة بالهمزة فيقال: أهل جاء زيد. . ومن ذلك قول خطام المجاشعي :

أهل عرفت الدار بالغريّين ... لم يبق من آي بها يُحَلّيْن(٢)

وقول الآخر:

سائل فوارس يربوع بشدتنا ... أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكَم(٣)

---

(١) المطول ص ٢٢٨ .

(٢) الغريان . . بناءان طويلان هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسميا بالغريين، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه . . انظر لسان العرب مادة: غرا ص ٣٢٥٠ .

(٣) الأكم: الموضع الذي يكون أشد ارتفاعاً مما حوله.

فلما طالت ملازمتها الهمزة تشربت منها معنى الاستفهام، فسقطت الهمزة وبقيت هل دالة عليه، ولما كانت قد لا تدخل إلا على الأفعال، كانت كذلك «هل» التي بمعناها.

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب، وجب مراعاة معنى «هل» الأصلي في لزوم إيلائها الفعل، وإن لم يوجد الفعل أصلاً في التركيب، روعي في «هل» معنى الاستفهام الذي استمدته من الهمزة، فجاز دخولها على الاسم، ولذا لا يقبح أن يقال: هل زيد قائم؟ وإنما يقبح أو يمتنع نحو قولك: هل زيد قام؟ . . والفرق بين التركيبين، أنها إذا رأت الفعل في حيزها تذكرت عهوداً بالحمى وحنت إلى الإلف المألوف وعانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما، بخلاف ما إذا لم تره في حيزها فإنها تتسلى عنه ذاهلة[1] .

هذا ونجد أن ما قبحه البلاغيون والتمسوا العلل المذكورة في بيان وجه قبحه، نجده يرد في كلام أهل الفصيح من الشعراء، كما في قول علقمة الفحل:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ... أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته ... إثر الأحبة يوم البين مشكوم

وقول ابن الرومي في رثاء ولده:

هل العين بعد السمع تكفي مكانه ... أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي

بل نراه قد ورد في آي الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2] ، ولهذا كان ينبغي ألا يصف البلاغيون تلك التراكيب بالقبح، بل الأولى أن يقال: إنها قليلة ونادرة، فإنه إذا جاز أن نصف ما ندر وروده على ألسنة البشر بالقبح والكدارة، فلا يجوز أن نطلق ذلك على ما ورد في القرآن الكريم، بل ينبغي الاحتراس وتنزيه أساليب القرآن الكريم عن مثل هذه الأوصاف[3] .

ومن خصائص «هل» أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال، ولذا لا يجوز أن تقول: هل يقوم زيد الآن، لأن في ذلك تدافعاً في بناء الجملة، إذ «هل» تمحضها

---

(١) المطول ص ٢٢٩ .

(٢) سورة فاطر: ٣ .

(٣) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٧ .

للاستقبال والتقييد بلفظ «الآن» يجعلها للحال، وكأنك تقول: هل يقوم بعد الآن، ثم تقول: الآن، وهذا تناقض واضطراب وكذا إذا دلت قرينة حالية على أن المضارع مراد به الحال، كقولك: هل تسيء إلى صاحبك؟ إذا دل الحال على قوع الإساءة، ولهذا لا تقع هل موقع الهمزة في مثل قوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ..﴾[2]، وكل ما دل فعله على الحال..

وهذا الذي قاله البلاغيون نراه منخرماً، إذ نجد في كثير من آيات الذكر الحكيم دخول هل على المضارع والقرائن تدل على أن المضارع أريد به الحال.. تأمل الآيات الكريمة: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ..؟﴾[3].. ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾[4].. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ..﴾[5].. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا..﴾[6].. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ...﴾[7].. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ؟﴾[8] فبإنعام النظر في هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير نجد أن المضارع بعد «هل» قد أريد به الحال، ولم تتمحض دلالته للاستقبال.. ولذا كان ينبغي ألا يبنى ذلك على القطع والإطلاق، بل على الغالب والاحتمال فيقال مثلاً: إن «هل» إذا دخلت على الفعل المضارع فإنه - غالباً- يراد به الاستقبال، وقد يراد به الحال، أما القطع بأنها تمحضه للاستقبال، فهو مردود بنحو الآيات الكريمة التي أشرنا إليها[9].

ومما تقدم يتضح لك أن «هل» لها مزيد اختصاص بالأفعال، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية:

---

(١) سورة هود: ٢٨.
(٢) سورة الصافات: ٩٥.
(٣) سورة المائدة: ٥٩.
(٤) سورة التوبة: ١٢٧.
(٥) سورة الرعد: ١٦.
(٦) سورة مريم: ٩٨.
(٧) سورة الشعراء: ٩٠ - ٩٤.
(٨) سورة الحاقة: ٨.
(٩) أساليب الاستفهام في القرآن ص ٩٤.

١- أنها في الأصل بمعنى «قد» وقد لا تدخل إلا على الأفعال، فكذلك ما هو بمعناها. .

٢- تأثيرها في بعض أنواع الفعل وهو المضارع بتخليصه - غالباً- للاستقبال.

٣- اختصاصها بطلب التصديق وهو إدراك النسبة، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعاني لا إلى الأفراد، أي: إلى الفعل دون الاسم؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذي هو جزء من مفهوم الفعل، إذ الفعل حدث وزمن. .

ولكون «هل» لها مزيد اختصاص بالأفعال، فإنه لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لنكتة بلاغية. . وهي أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذي هو مفاد الجملة الفعلية، أو يجعل ما سيوجد باعتبار «هل» تخلص المضارع في الغالب للاستقبال، في معرض الكائن الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية، اهتماماً بشأنه واعتناء بأمره، وذلك بناء على قول البلاغيين: إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام. تأمل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ؟﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2]، تجد أن قوله: «فهل أنتم شاكرون» «فهل أنتم مسلمون» أدل على طلب حصول الشكر والإسلام من قولك: فهل تشكرون؟ فهل تسلمون؟ أو فهل أنتم تشكرون؟ فهل أنتم تسلمون؟ وذلك لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أو في مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد في معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله. . وكذا من قولك: أفأنتم شاكرون؟ أفأنتم مسلمون؟، وإن كانت صيغته للثبوت - كما ترى-، لأن «هل» نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمزة، فتركه معها أدل على كمال العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه. .

ولهذا قال البلاغيون: إن قولك: هل زيد منطلق؟ أقوى دلالة على طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول: أزيد منطلق؟. . وقالوا: إن العدول عن الهمزة إلى «هل» في مثل هذا المثال، لا يحسن إلا من البليغ. لأنه هو الذي يلتفت إلى تلك

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٠ .

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٨ .

الدقائق ويراعى هذه النكات البلاغية ويقدر على تطويع الكلام وتكييف العبارات وصياغتها على حسب ما يقتضيه المقام.

ومن الفروق الدقيقة بين الهمزة وهل: أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس في النفس إثبات ما يستفهم عنه، فأنت لا تقول: أجاء عمرو؟ إلا ولديك شعور قوي بمجيئه، أما هل فإنه لا يترجح فيها إثبات ولا نفي، فعندما تقول: هل جاء عمرو؟ لا يكون لديك ترجيح لمجيئه أو عدم مجيئه، فالنسبة المطلوبة بالهمزة يترجح فيها لدى السائل إثباتها ووقوعها، ويكون عنده هواجس قوية ترجح الإثبات على النفي، أما النسبة المطلوبة بهل فلا يترجح فيها إثبات ولا نفي(١).

وبقية أدوات الاستفهام للتصور فحسب، فيسأل بها عن معانيها، ويكون الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه، ولذا لا يلتزم في بناء الجمل معها سوى الضبط العام في النظام الإعرابي لصياغة الجمل، مع مراعاة تصدر تلك الأدوات، فليس وراء بناء الجمل مع تلك الأدوات دقائق ينبغي مراعاتها، كما هو الحال بالنسبة للهمزة و «هل».

فمن: يطلب بها تصور من يعقل أو من يعلم، كقولك: من عندك؟ من فتح بلاد الأندلس؟ فيقال في الجواب زيد والقائد البطل طارق بن زياد. . ولك أن تقول في جواب الأول العالم الصادق. . وفي جواب الثاني: القائد البطل الذي لا تخفى على أحد بطولاته وتفانيه في نشر دين الله. . أي أن الجواب يكون إما بذكر الذات المستفهم عنها، وإما بذكر الأوصاف الخاصة بالمستفهم عنه، المشخصة له.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ..**﴾(٢)، فقد أجاب موسى - عليه السلام- ببيان الصفات الخاصة برب العزة المنفرد بها سبحانه وتعالى. . وانظر في قوله عز وجل: ﴿**قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**﴾(٣)، وقوله عز من قائل: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ..**﴾(٤) وواضح في الآيتين أن الجواب قد اشتمل على ذكر الذات المستفهم عنها.

---

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٨٩ . (٢) سورة طه: ٤٩ ، ٥٠ .
(٣) سورة الأنبياء: ٥٩ ، ٦٠ . (٤) سورة فصلت: ١٥ .

وما : يستفهم بها عن غير العقلاء، فيطلب بها بيان الذات كقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ..﴾(١) وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾(٢) .. كما يطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته كقولك: ما زيد؟ فيجاب عالم أو طويل ومنه قوله عز وجل: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾(٣) .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾(٤) .

فالمراد بالاستفهام في الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التي يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضي الاستفهام في الآية الأولى، وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع في الآية الثانية(٥) .

ويطلب بها أيضاً إيضاح الاسم نحو: ما العسجد؟ فيجاب : الذهب .

متى: ويستفهم بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً، كقولك: متى حضرت؟ ومتى تسافر؟ ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٦) .

أيان: ويستفهم بها عن الزمان المستقبل وتستعمل في مواضع التفخيم والتهويل كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾(٧) .

أين: ويسأل بها عن المكان، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟﴾(٨) .

كيف: ويسأل بها عن الحال كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ..﴾(٩) .

---

(١) سورة طه: ١٧، ١٨ . (٢) سورة الشعراء: ٧٠، ٧٢ .
(٣) سورة الأنبياء: ٥٢، ٥٣ . (٤) سورة الشعراء: ٢٣، ٢٤ .
(٥) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٣٠٩ . (٦) سورة يس : ٤٨ .
(٧) سورة الذاريات: ١٢ . (٨) سورة القيامة : ١٠ .
(٩) سورة البقرة: ٢٨ .

أنى : وتكون بمعنى كيف كقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾(١) .

وبمعنى من أين كقوله تعالى : ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(٢) .

وبمعنى متى كما في قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(٣) (فأنى) في الآية الكريمة تحتمل المعاني الثلاثة ، أي : متى شئتم ، وكيف شئتم ، ومن أين شئتم ، على أن يكون الإتيان في موضع الحرث .

كم : ويستفهم بها عن العدد كقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴾(٤) .

ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً :

كم عمة لك ياجرير وخالة ... فدعاء قد حلبت على عشاري

في رواية من نصب «عمة» «وخالة» ، وفدعاء : من الفدع وهو عوج في المفاصل ، والعشار : مفردها عشراء وهي الناقة النفساء أو التي مضى لحملها عشرة أشهر .

أي : وتستعمل في تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما ، كما في قوله تعالى : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾(٥) .

ويسأل بها أيضاً عن تمييز الزمان أو المكان أو الحال أو العدد ، وكذا عن تمييز العاقل وغير العاقل ، فهي تكتسب معنى ما تضاف إليه ، فتقول في السؤال بها عن تمييز الزمان : في أي يوم عاد البطل؟ وعن المكان : في أي مكان نلتقي؟ وعن الحال : على أي حال تركت أباك؟ وعن العدد : إلى أي عدد بلغت دراهمك؟ وعن العاقل : أي الرجلين أكبر سناً؟ وعن غير العاقل : أي جواد امتطيت؟ .

تلك هي معاني أدوات الاستفهام وهي وإن كانت لا تخلو من فوائد ودقائق واعتبارات بلاغية ، وبخاصة بناء الجمل مع الهمزة وهل ، إلا أن جل اهتمام البلاغيين يتجه إلى المعاني البلاغية التي تفيدها أساليب الاستفهام ، فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية .

---

(١) سورة آل عمران : ٤٠ .
(٢) سورة آل عمران : ٣٧ .
(٣) سورة البقرة : ٢٢٣ .
(٤) سورة الكهف : ١٩ .
(٥) سورة مريم : ٧٣ .

المعاني البلاغية للاستفهام:

يفيد الاستفهام كثيراً من المعاني البلاغية، كالإنكار والتعجب والاستبعاد والتهديد والتهكم والتحقير ونحو ذلك، وكثير من البلاغيين وبخاصة المتأخرون منهم يطلقون على هذه المعاني: «المعاني المجازية للاستفهام» ونحن لا نوافقهم على هذه التسمية ولا نرتضي هذا الإطلاق ولا نقر أن تلك المعاني معانٍ مجازية، وذلك للأسباب الآتية:

١- أن المتقدمين من البلاغيين لم يتحدثوا عن وجه دلالة الاستفهام على تلك المعاني، وإنما بينوا أنها معان تستنبط من سياق الكلام والوقوف على قرائن أحواله، أما وجه الدلالة، فقد شاع الحديث عنها بين المتأخرين الذين تكلفوا وأسرفوا في التقاط العلاقات بين المعنى الأصلي للاستفهام والمعاني البلاغية التي يفيدها، وقد أتعبوا أنفسهم وأتعبوا الدارسين معهم في محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين هذه المعاني دون أن يصلوا إلى شيء مقنع..[1]

٢- أن المعنى الأصلي للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقياً عند إفادة الاستفهام لتلك المعاني البلاغية، ومزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أدائها بطرقها المعهودة، ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام في تلك الأدوات، ولذا يذكر الفراء في كتابه «معاني القرآن» عند حديثه عن الآية الكريمة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أن الاستفهام فيها قد دخله وشابه معنى التعجب فلم يعد استفهاماً محضاً، بل صار استفهاماً غير محض[2].. وهذا دليل على أن معنى الاستفهام ظل باقياً عند إفادة الأسلوب لمعنى التعجب.

ويقول عبد القاهر بعد ذكره لجملة من المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام: «واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالانكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه قد أدعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: «فافعل» فيفضحه ذلك، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له: فأرناه في موضع وفي حال

(١) ارجع إلى البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ص ٣٠٢.

(٢) ارجع إلى معاني القرآن ١ / ٢٣.

وأقم شاهداً على أنه كان في وقت، ولو كان يكون للإنكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر، لكان ينبغي ألا يجيء فيما لا يقول عاقل إنه يكون حتى ينكر عليه. كقولهم: أتصعد إلى السماء؟ أتستطيع أن تنقل الجبال؟ أإلى رد ما مضى سبيل؟ وإذ قد عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال، وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع..»[1].

فهو يشير إلى أن الاستفهام عند إفادته لمعانيه البلاغية يظل باقياً فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى موضع التعجب أو الإنكار أو التقرير، حتى يتأمل ويتدبر ويعلم أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذي يلفته إليه.. كما في الأمثلة التي ضربها عبد القاهر..

٣- عندما تنظر بإمعان إلى تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام لا تستطيع أن تقول: إن الأسلوب الاستفهامي يفيد معنى واحداً كالتعجب مثلاً، بل ترى عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامي.. تأمل الآية السابقة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ...﴾[2] تجد أن الاستفهام بها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوعه والتوبيخ والاستبعاد والتوعد، وغير ذلك من المعاني التي تنبعث من الأسلوب وتشع منه.. فلو قلنا إن إفادة الاستفهام في الآية الكريمة لمعنى التعجب إفادة مجازية والتمسنا علاقة بين طلب الفهم والتعجب، فكيف أو فماذا نقول في إفادته لبقية المعاني التي أفادها؟.

٤- أن المتأخرين أنفسهم الذي قالوا بمجازية هذه المعاني وجدوا في التماس العلاقات لبيان وجه المجاز، تراهم مترددين، وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون، فهم يذكرون وجوهاً من الاحتمالات، قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغراباً منه، فالعلاقة بين طلب الفهم ومعنى الاستبطاء مثلاً في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ؟﴾[3] هي اللزومية، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم من استعمال الملزوم في اللازم، لأن السؤال عن الشيء يستلزم الجهل به، والجهل به يستلزم كثرته عادة أو ادعاء، وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن

---

(١) دلائل الإعجاز ١٥١.

(٢) سورة البقرة: ٢٨.

(٣) سورة البقرة: ٢١٤.

السؤال والبعد يستلزم الاستبطاء . . هكذا يبحرون في التقاط والتماس تلك العلاقات . . وليت وراء هذا الإبحار صيداً يشبع النفس ويمتعها ويربي فيها ملكة التذوق، إنه ليس وراءه إلا التعب وكد الذهن بلا فائدة مرجوة ولا ثمرة مرتقبة، ثم تراهم إذا عجزوا عن الوصول إلى علاقة بين طلب الفهم والمعنى الذي هم بصدد الحديث عنه، تراهم يقولون : إن المعنى هنا مفاد عن طريق الكناية أو عن طريق مستتبعات التراكيب(١) .

فما كان أحرى بهؤلاء المتأخرين أن يلتزموا طريقة المتقدمين التي أشرنا إليها عند الفراء وعبد القاهر، وأن يذعنوا بأن الاستفهام قد دخلته هذه المعاني وشابته وصار بإفادته لها استفهاماً غير محض، إذ التنبيه وإيقاظ المخاطب وحثه على التأمل الذي هو لب الاستفهام، لا يفارقه عند إفادة تلك المعاني . . وهذا هو الذي نراه وندعو إليه . . ندعو إلى تأمل هذه المعاني في سياقاتها الجيدة وتراكيبها الرفيعة، والوصول إليها عن طريق تأمل السياق وإنعام النظر فيه ومعرفة قرائن أحواله، وإيماءات تراكيبه، فهذا هو الذي يربي وينمي ملكة التذوق لدى الدارس . . فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام ونحاول أن ندركها ونتذوقها من خلال السياق وما ينبىء به .

١- معنى الاستبطاء : تأمل قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ؟..﴾(٢) . الخطاب في الآية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم. والمعنى : أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص، وقد جرت سنة الله تعالى أن يبتلي عباده فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاء شديداً ومستهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه - لشدة ما حل بهم ونزل- : متى نصر الله؟ فقد استطالوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر وسر التعبير بأسلوب الاستفهام في مقام الاستبطاء هو إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيما نزل وحل . . ولا يخفى عليك ما للسياق في الآية الكريمة من إبراز وتصوير لحال هؤلاء القائلين وما حل بهم من ابتلاء وشدة جعلتهم يتطلعون إلى فرج الله ونصره الذي طال انتظارهم له . . ومن ذلك أن تقول وقد اشتد الحر وأنت صائم متى يؤذن لصلاة

(١) ارجع إن شئت إلى شروح التلخيص ٢ / ٢٩١ والمطول ص ٢٣٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٤ .

المغرب؟ أنت لا تجهل موعد الآذان والإفطار ولكنك تصور حالتك وطول انتظارك وترقبك لهذا الوقت وتدعو المخاطب ليشاركك ما تعاني منه وتتطلع إلى تفريجه. . ومثله قولك وقد طال انتظارك للقطار: متى يصل القطار؟ وقولك لصاحب لك تدعوه كثيراً للحضور وهو يماطل ويتأخر ولا يجيب دعوتك: كم دعوتك؟ فأنت تستبطىء إجابته وتحثه على مراجعة نفسه ومعرفة تقصيره وخطئه. . ومنه قول المتنبي:

حتام نحن نساري النجم في الظلم وما سـراه على خف ولا قـدم

نساري: من السرى وهو السير ليلاً، يقول: إلى متى نسري مع النجم في الليل، وهو لا يسري على خف كالإبل ولا على قدم كالناس فهو لا يتعب مثلنا ومثل مطايانا، فالمتنبي لا يسأل عن الزمان، ولكنه يستبطىء مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته. . ومثله قول البهاء زهير:

أمولاي إني في هـواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكث

فهو يستبطىء ويتطلع إلى مجيء يوم الخلاص مما يعانيه.

٢- الاستبعاد: وقد يراد من الاستفهام معنى الاستبعاد وهو عد الشيء بعيداً، والفرق بينه وبين الاستبطاء: أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع، أما الاستبطاء فمتعلقه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه ومجيئه. . ومن الاستفهام الذي جاء مفيداً الاستبعاد قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(١) فالكفرة يستبعدون البعث وينكرون وقوعه، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام التي طوى فيها البعث المستفهم عنه والتقدير: أنبعث إذا كنا ترابًا؟ ذلك رجع بعيد، وكأنهم يريدون أن يظل البعث هكذا سؤالاً مثاراً وتعجباً مقاماً يسأله كل كافر ويتعجب من وقوعه كل جاحد عنيد. . ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ. ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾(٢) والمعنى: من أين لهم التذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق وقد جاءهم رسول بين لهم الحق فأعرضوا عنه واتهموه بالجنون، أيريدون الآن أن يتذكروا وأن يكشف عنهم العذاب. . .؟ هيهات هيهات لقد مضى وقت التذكر والاعتبار. . وفي ذلك

---

(١) سورة ق: ٢، ٣.

(٢) سورة الدخان: ١٣، ١٤.

إثارة لهؤلاء الكفرة وتنبيه إلى ما هم فيه من غفلة وعناد ومكابرة وحث لهم على قبول الهدى والانصياع للحق. . ومن ذلك قول أبي تمام:

مـن لـي بإنسـان إذا أغْضَبْتُه ... وجهلـتُ كان الحلـمُ ردَّ جوابـه

فهو يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم والصفح وقوة الاحتمال. . وتقول: لقد صرنا في زمن أغبر، كثر فيه الظلم واعتداء القوى على الضعيف، صار الناس يظلم بعضهم بعضا ويأكلون أموالهم بينهم بالباطل. . فمن يتقي الله اليوم في اليتيم؟ ومن يساعد المسكين؟ ومن يعيد الناس للانصياع إلى الحق المبين؟ فأنت تستبعد أن يوجد في هذا الزمان الأغبر من يقوم بواجبه تجاه دينه وتجاه اليتامى والمساكين. .

٣- التحسر: ويرد الاستفهام مراداً به معنى التحسر والتألم وذلك في مقام يظهر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على ما فاته. .

تأمل قول حافظ إبراهيم في وصف حريق:

سائلـوا الليل عنهـم والنهـارا ... كيف باتت نساؤهـم والعـذارى؟

فهو يتحسر ويتفجع لهؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم وأتى الحريق على ما يملكون من متاع ومأوى فباتوا هم وأهلهم في العراء، وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليلهب الناس ويثير حميتهم لمساعدة المصاب لتبديد ما ألم به وأصابه. . وانظر إلى قول البارودي في رثاء زوجه:

يا دهـر فيـم فجعتنـي بحليلـة ... كانت خلاصـة عدتـي وعتـادي

إن كنت لم ترحم ضناي لبعدهـا ... أفلا رحمـت من الأسـى أولادي

تراه حزيناً متألماً لفراقها وقد صاغ ألمه وتحسره في أسلوب استفهامي ليلهب الناس ويثيرهم إلى مشاركته حزنه وألمه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟﴾(١) فالاستفهام في الآية يفيد تحسر الإنسان وندمه على ما فاته في الدنيا واستبعاده الفرار في ذلك اليوم: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾(٢).

---

(١) سورة القيامة: ٧ - ١٠.

(٢) سورة القيامة: ١١، ١٢.

٤- التعجب : تأمل قوله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾(١) فسليمان - عليه السلام- لما تفقد الطير ولم يجد الهدهد تعجب : كيف لا يراه وهو لا يغيب إلا بإذنه ولذا توعده بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه هذا لسبب قوي يدعو إليه : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ..﴾(٢) ، ومثله قوله عز وجل : ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ..﴾(٣) .

فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، كيف تلد وهي عجوز وقد عاشت حياتها عقيماً، وهذا بعلها قد صار شيخاً، إنه لأمر عجيب ولذا تساءلت الملائكة متعجبة من تعجبها : ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟.﴾ .

ومنه قول المتنبي في وصف الحمى :

أبنت الدهر عندي كل بنت ... فكيف وصلت أنت من الزحام؟

فهو يتعجب من الحمى، كيف وصلت إليه على الرغم من تزاحم الشدائد حوله وتكالبها عليه . .

٥- التنبيه إلى ضلال: كما في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٤)، فهو تنبيه للكفرة إلى خطأ ما يقولون وضلال ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله، ويتضح لك هذا التنبيه عندما تتأمل سياق الآيات الكريمة : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ .وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟.﴾ فقد أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم الدالة على قدرته في أحوال ظهورها واختفائها «الخنس . . الجواري . . الكنس» ثم أقسم بالليل يقبل بظلامه وبالصبح الذي يبدد ذاك الظلام، إن القرآن لمن عند الله نزل به رسول أمين على صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم، وآثر التعبير بالصاحب ليلفتهم إلى أنه صاحبهم الذي يعرفون صدقه وأمانته فهو صادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد

---

(١) سورة النمل : ٢٠ . (٢) سورة النمل : ٢١ .

(٣) سورة هود : ٧٢ . (٤) سورة التكوير : ٢٦ .

رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالأفق المبين، وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يضن بها عليكم، لقد وضح الأمر وانكشف الحق، فأين تذهبون بعدئذ عنه إلا إلى ضلالات ومتاهات؟ فمجيء الاستفهام عقب هذا البيان وتلك التجلية ينبه الغافل ويحذر المعاند ويحث المكابر على النظر والتأمل ليقبل على الحق ويتخلى عن الضلال والعناد.

٦- التهويل: كما في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[١] ﴿الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[٢] ، ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾[٣] ، فالاستفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة، ويصور ويبرز فظاعة العذاب وشدته.

٧- الوعيد والتهديد: كقولك لمن يسيء إليك: ألم أؤدب فلاناً؟ تريد بذلك تهديده وتوعده حتى يقلع عن إساءته.. ومنه قوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ..﴾[٤] ولا يخفى عليك ما يفيده الاستفهام من توعد للكفرة وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين من إهلاك وتعذيب.

٨- الأمر والحث على الفعل: كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟﴾[٦] ، وقوله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ؟﴾[٧] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ؟..﴾[٨] ، وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ...؟﴾[٩] ، فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر، وقد جاء في صيغة الاستفهام، لأن في ذلك إغراء للمخاطب وحثاً له على الاستجابة وقبول الأمر..

(١) سورة الحاقة: ١-٣ .
(٢) سورة القارعة: ١-٣ .
(٣) سورة الهمزة: ٥ .
(٤) سورة المرسلات: ١٥-١٨ .
(٥) سورة هود: ١٤ .
(٦) سورة القمر: ١٧ .
(٧) سورة آل عمران: ١٩ .
(٨) سورة المائدة: ٩١ .
(٩) سورة الحديد: ١١ .

٩- التقرير: وقد يأتي الاستفهام ويراد به التقرير بمعنى طلب الإقرار أو بمعنى التحقيق والإثبات، فمن الأول قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾(١)، فهم يريدون حمله على الإقرار والاعتراف بالفاعل، وعندما يكون التقرير بالهمزة ينبغي أن يليها ما حمل المخاطب على الإقرار به فهم هنا يقررونه بالفاعل ولذا أجابهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾(٢) ومثله قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ؟﴾(٣) فهو تقرير بما يعرفه عيسى -عليه السلام- من هذا الحكم، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول، وفيه توبيخ وتبكيت لمن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله.. ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟﴾(٤)، فالمراد بالاستفهام: تذكير موسى - عليه السلام - بنشأته وتربيته فيهم وحمله على الإقرار بذلك، أملاً من فرعون في أن يقلع ويكف عما جاء به من قبل الله، ولكن أنى له ذلك، وموسى رسول رب العالمين. ومن الثاني: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى..﴾(٥).. ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾(٦).. ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾(٧)، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا؟﴾(٨) فالمراد بالاستفهام في الآيات التقرير بمعنى التحقيق والإثبات ومجيء التحقيق في صورة الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب وحث له إلى تدبر الأمر وتأمله.. ومنه قول جرير في مدح بني أمية:

ألستم خير من ركب المطايا … وأندى العالمين بطون راح

فهو تحقيق وإثبات لكرمهم وشجاعتهم وقد صاغه في صيغة استفهام ليرشد وينبه إلى فضلهم وسبقهم إلى العلاء.

١٠- الإنكار: والهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى الإنكار، ويليها دائماً المستفهم عنه سواء أكان الاستفهام لمجرد طلب الفهم أم للتقرير أم للإنكار أم لغير ذلك كما عرفت في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة.. والاستفهام الإنكاري يرد على نوعين: إنكاري توبيخي وإنكاري تكذيبي.

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٢.
(٢) سورة الأنبياء: ٦٣.
(٣) سورة المائدة: ١١٦.
(٤) سورة الشعراء: ١٨.
(٥) سورة الضحى: ٦، ٧.
(٦) سورة الشرح: ١، ٢.
(٧) سورة الفيل: ٢.
(٨) سورة الإنسان: ١.

فالأول: إنكار وتوبيخ على أمر قد وقع في الماضي بمعنى ما كان ينبغي أن يقع، أو على أمر يخشى المستفهم أن يقع في المستقبل بمعنى ينبغي ألا يكون، فالإنكار أو النفي في التوبيخي موجه إلى الانبغاء والمعنى: ما كان ينبغي في الماضي، وينبغي ألا يكون في المستقبل.. تأمل قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[1]، فالمعنى: ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله سواك وأنعم عليك بالنعم التي تباهى بها وتفتخر.. ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ؟﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾[3]، فالاستفهام في الآيتين للتوبيخ على أمر واقع والمراد: ما كان ينبغي أن يقع منكم ما وقع.. ومنه قول امرىء القيس:

أغـــرك مني أن حبـك قاتلي وأنك مهمـا تأمـري القلب يفعـل

والمعنى: ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك، وتعتقدي أني أصبحت متيماً في هواك، أفعل ما تأمرين به.. وتقول: أعصيت ربك.. أأذيت جارك.. أأهملت في واجبك؟ أي: ما كان ينبغي أن يقع هذا منك.. ولعلك تشعر بما في بيت امرىء القيس من تصوير جميل لقصة حبه مع ما في التعبير من إيجاز وإخفاء لهذا الحب وراء الاستفهام، فهو يستفهم عنه ولا يفصح بإثباته ووقوعه.. وتأمل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا؟﴾[4] تجد أن الاستفهام موجه إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة، بل يحتمل وقوعها في المستقبل والمراد: لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة: وتقول: أتعصى ربك.. أتؤذي أباك.. أتنسى إحسان فلان.. أتخرج في هذا الوقت؟ والمراد تنبيه المخاطب إلى خطأ ما هو مقبل عليه حتى يرتدع عنه، فالمعنى: لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال..

والثاني: وهو الإنكار التكذيبي، ويسمى أيضاً بالإنكار الإبطالي، إذا كان التكذيب في الماضي، كان الاستفهام بمعنى: لم يكن، وإذا كان في المستقبل كان بمعنى لن يكون.. تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً

(١) سورة الكهف: ٣٧.
(٢) سورة يوسف: ٨٩.
(٣) سورة الصافات: ١٢٥.
(٤) سورة النساء: ١٤٤.

عَظِيماً﴾[1] تجد أن الاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم وإبطال ما قالوه، والمعنى: لم يكن من الله تعالى اصطفاء ولا اتخاذ. ومنه قول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فهو يكذب إنساناً توعده بالقتل وينكر أن يقع منه ذلك والمعنى: لن يكون هذا القتل. واقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ؟﴾[2]، فالمراد: أنجبركم ونكرهكم على الاهتداء بها، والمعنى: لن يكون ذلك إلاجبار إذ لا إكراه في الدين.. وتقول: أيرضى عنك ربك وأنتم مقيم على عصيانه؟ أي: لن يكون هذا.

ومنه قول الشاعر:

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته؟ إني إذا للئيم

أي: لن يكون ذلك مني.

هذا وموضع الإنكار - كما مر بك - هو ما يلي الهمزة، تقول في إنكار الفاعل: أأنت تقدر على هذا؟ أأنت تمنعني حقي؟ تريد: لن يكون هذا منك ولن تستطيعه فلست له أهلاً.. وتقول في إنكار المفعول: أعمراً أهنت؟ بمعنى لم يكن ذلك. وتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[3]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4]، فالمعى على إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً أو يبغي رباً.. وتقول في إنكار الفعل: أتوذي أباك..؟ ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ..﴾[5] وقوله عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[6] والمعنى: ينبغي ألا يقع هذا.. وتقول: أتقتلني؟ والمعنى لن يكون ذلك منك، وقد مرت بك شواهد كثيرة لإنكار الفعل إنكاراً تكذيبياً.. وقد يكون الإنكار للفعل ويلي الهمزة غيره وذلك عندما يكون للفعل فاعل محدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواه فيلي الهمزة أو يعطف على ما وليها بأم المتصلة ذلك المحدد كقولك في إنكار الفعل: أفي ليل وقع هذا أم في نهار؟ منكراً الوقوع،

---

(1) سورة الإسراء: ٤٠.
(2) سورة هود: ٢٨.
(3) سورة الأنعام: ١٤.
(4) سورة الأنعام: ١٦٤.
(5) سورة الأعراف: ٢٨.
(6) سورة البقرة: ٦١.

لأن الفعل إذا نفى فاعله أو مفعوله أو محله - كما في المثال- الذي ليس له غيره، لزم من ذلك انتفاء الفعل، وهذا أبلغ في إنكار الفعل وانتفائه، لأن نفي الفعل فيه بطريق الكناية واللزوم، فهو بمثابة دعوى بدليلها. . وقد مرت بك شواهد هذه الصورة في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة فعد إليها هناك. .

١١- النفي: وقد يأتي الاستفهام بمعنى النفي، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[١] والمعنى: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل، ولكن فرق بين الدلالة عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي المعهود، إن في الاستفهام تحريكاً للفكر، وتنبيهاً للعقل وحثاً على النظر والتأمل. . وهذا هو الفرق بين النفي الصريح وبين النفي عن طريق الاستفهام. . انظر إلى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ؟..﴾[٢]، فالمعنى لا محالة: لا أحد يملك لكم من الله شيئاً، ولكن الدلالة على هذا المعنى بالاستفهام فيها تنبيه لهؤلاء المخلفين وحث لهم على تدبر أحوالهم ومراجعة أنفسهم والانقياد للحق واتباع سبيل الرشاد. وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ؟﴾[٣]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[٤]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥] . فالدلالة على النفي بالاستفهام في الآيات الكريمة تمتاز عن الدلالة عليه بطريقه المعهود؛ إذ النفي الصريح خال من التحريك والتنبيه وإثارة المشاعر، أما الاستفهام ففيه بعث على النظر والتأمل وحث على التفكير والتدبر حتى يتبين للمخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويبتعد. . وعد إلى دلالة الاستفهام على الإنكار وتأمل فرق ما بين قولك: أتؤذي أباك؟ أتنسى إحسان فلان؟ وبين قولك: لا ينبغي أن تؤذي أباك. . لا ينبغي لك أن تنسى معروف فلان، فنحن وإن كنا نفسر الاستفهام بهذا المعنى إلا أن هنالك فرقاً جوهرياً يمتاز به الاستفهام الإنكاري عن النفي الصريح وهو أن في الاستفهام إغراء لمن تخاطبه كي يقلع عما فعل أو سيفعل وعما

---

(١) سورة الرحمن: ٦٠ .
(٢) سورة الفتح: ١١ .
(٣) سورة البقرة: ١١٤ .
(٤) سورة العنكبوت: ٦٨ .
(٥) سورة الأحقاف: ٣٥ .

اعتقد أو يعتقد، حيث لم تواجهه صراحة بالنفي أو التكذيب، كما أن في الاستفهام تحريكاً لفكر المخاطب وتنبيهاً له ودعوى كي يتأمل ويتدبر ويعيد النظر فيما يفعل أو يعتقد لعله يستيقن فيذعن للحق ويقلع عن الباطل والضلال.

ومن الاستفهام الدال على النفي قول البحتري:

هلِ الدهــر إلا غمرةٌ وانجلاؤُهــا وشيكــاً وإلا ضيقــةٌ وانفراجُهــا

فالشاعر أراد بالاستفهام أن يحث المخاطب على النظر والتأمل حتى يدرك هذه الحقيقة الواقعة ويعيها فكره، وهي أن الدهر ليس إلا شدة سرعان ما تنجلي، وضيقاً يعقبه فرج.

ومثله قول الآخر:

هل الدهــر إلا ساعة ثم تنقضي بما كان فيها من بلاء ومن خفض؟

١٢- التشويق: وقد يأتي الاستفهام للتشويق وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب واستمالته، كما في الآيات الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟﴾(١)، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ؟ ..﴾(٢)، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(٣)، ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ. وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ؟﴾(٤) ولا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من ترغيب للمخاطب وتشويق له إلى معرفة الجواب، فهو يفكر فيه وينشغل به وينتظره في ترقب وتطلع وعندئذ يأتي الجواب فيقع في نفس المخاطب موقعاً حسناً، لأنه جاء والنفس مهيأة له ومتلهفة إلى معرفته.. إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التي يفيدها الاستفهام، فهي أكثر من أن يحاط بها، لأنها معان تستنبط من السياق وتأمل أحواله، والمعول عليه في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب الجيدة، ولا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه إلى غيره، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله الهادي(٥).

ومنها بالإضافة لما سبق، دلالته على التعظيم.. كما في قول المتنبي:

---

(١) سورة الصف: ١٠.
(٢) سورة آل عمران: ١٥.
(٣) سورة النازعات: ١٥، ١٦.
(٤) سورة النازعات: ١٨، ١٩.
(٥) المطول ص ٢٣٩.

من للمحافل والجحافل والسرى | فقدت بفقدك نيراً لا يطلع

فهو يريد تعظيم المخاطب والإشادة بفضله وأن المحافل وهي المجامع والجحافل وهي الجيوش والسرى أي السير ليلاً والزحف إلى الأعداء، هذه الأمور قد فقدت بفقده نيراً لا يطلع.. ومثله قول الآخر:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا | ليوم كريهة وسداد ثغر

فالمراد بالاستفهام تعظيم نفسه والإشادة بشجاعته وفروسيته، ولا يخفى عليك ما في البيتين من إظهار التحسر والتفجع لفقد من فقدته المحافل والجحافل، وإضاعة القوم لفتاهم المغوار.. ومنها التحقير، كما في الآيات الكريمة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ؟﴾(١)، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾(٢)، ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾(٣).. وكما في قول الشاعر:

تقول ودقت نحرها بيمينها | أبعلي هذا بالرحا المتقاعس

وقول الأخر:

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري | أطنين أجنحة الذباب يضير؟

ومنها التهكم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾(٤) فهم يسخرون منه ويتهكمون بما جاء به، وقد عبروا عن ذلك بصيغة الاستفهام ليدلوا على ثباتهم في الكفر ووقوفهم الصامد في الضلال والمكابرة.. ومنها التمني، وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾(٥)، ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ..﴾(٦)، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ؟﴾(٧)، وكأنهم لفرط ما هم فيه من هول العذاب صاروا يسألون غير الممكن كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده.. هذا وكما ذكرت لك فإن هذه المعاني

---

(١) سورة الشعراء: ٧٠. (٢) سورة الفرقان: ٤١.
(٣) سورة الأنبياء: ٣٦. (٤) سورة هود: ٨٧.
(٥) سورة الأعراف: ٥٣. (٦) سورة الشورى: ٤٤.
(٧) سورة غافر: ٤٧.

يستنبطها الدارس من خلال النظر في السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله، وكثيراً ما تجد أسلوب الاستفهام يفيض بأكثر من معنى بلاغي، تأمل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(1)، تجد الاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخي، أي: لا ينبغي أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم.. كما يفيد التعجيب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان، لأن في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان من العبر والعظات والأدلة على قدرة الله ما لو تأمله الكافر وتدبره لأقلع عن كفره وضلاله، فوجود الكفر منه بعدئذ يدعو إلى التعجب والإنكار.. ومثله قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ؟﴾(2)، فالاستفهام في الآية إنكار لوقوع ذلك منهم وتعجب من وقوعه وحث للإقلاع عنه.. وخذ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟﴾(3)، تجد الاستفهام بها يدل على الحيرة والتخبط والتحسر والندم، وتمني الفرار من العذاب الذي ينتظره، وأنى له ذلك: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾(4)، وتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ؟﴾(5)، فالسؤال الأول يفيد التقرير، والسؤال الثاني يفيد طلب المزيد من الوقود وتمنيه وينبىء بمدى غيظ جهنم وشدة غضبها لكفر هؤلاء الكفرة وتطلعها وتشوقها إلى المزيد منهم.. وخذ هذه الآية - وقد مرت بك -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(6)، فاستفهام الرسول ومن معه وهم صفوة الناس، وقولهم وقد زلزلوا ومستهم البأساء والضراء متى نصر الله؟ يفيد تطلعهم للنصر وتشوقهم وتمنيهم وقوعه وحلوله، كما يفيد استبطاءهم لمجيئه، وهذا ما يصور شدة ابتلائهم ويبين أنه على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وأن يهيئوا أنفسهم لمثل هذا الابتلاء، فلن يدخلوا الجنة إلا إذا محصوا كما محص من قبلهم واختبروا كما اختبروا.. وبهذا يتضح لك أن الأسلوب الاستفهامي يفيض بكثير من المعاني التي يستطيع أن يقف عليها الدارس بتأمل سياقه وتدبر قرائن أحواله.

---

(1) سورة البقرة: ٢٨.
(2) سورة البقرة: ٤٤.
(3) سورة القيامة: ٧-١٠.
(4) سورة القيامة: ١١، ١٢.
(5) سورة ق: ٣٠.
(6) سورة البقرة: ٢١٤.

أسلوب النداء:

النداء: هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة: «أدعو»، والغاية منه أن يصغي من تناديه إلى أمر ذي بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم شرعي كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...﴾[3]، وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...﴾[4].

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة على أرجح الأقوال، لأنه طلب الإقبال، فهي بمعنى: «أقبل» الأمر، وقيل: إن دلالته على الطلب التزامية، لأنه بمقتضى تعريفه: «طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب كلمة: «أدعو» ليصغى إلى ما يريده المتكلم. . . » و«أدعو» فعل مضارع لا أمر، ولكن الدعاء يتضمن طلب الإقبال فلذا جعل النداء من أقسام الطلب، ودلالته عليه دلالة التزامية تضمينية. . ومنهم من يرى أنه مجرد تنبيه لا طلب فيه. . والراجح هو الرأي الأول -كما ذكرت- لأنك عندما تقول: «يامحمد»، فإنك تطلب منه الإقبال عليك، وكأنك تقول له: «أقبل» بصيغة الأمر، وليس «أدعو» بصيغة المضارع.

وحروف النداء هي: الهمزة، وأي، ويا، وآ، وآي، وآيا، وهيا، و«وا»، وأكثرها استعمالاً في نداءات القرآن الكريم هو «يا».

وهذه الأدوات نوعان: ما ينادى به القريب وهو الهمزة وأي، وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات.

وإذا كان النداء هو طلب الإقبال، فإن الأصل فيه أن يكون للقريب الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادي، ولكنهم توسعوا فيه فنادوا البعيد الذي لا يمكن أن يسمع صوت المنادى، أو بمعنى آخر الذي لا يمكن أن يصل إليه صوته، وجعلوا لندائه أدوات ولنداء القريب أدوات - كما رأيت.

---

(١) سورة المدثر: ١-٤.

(٢) سورة المائدة: ٨٧.

(٣) سورة التحريم: ١.

(٤) سورة الطلاق: ١.

ولم يتوقفوا عند نداء البعيد الذي لا يصله صوت المنادى، بل اتسع تصرفهم في النداء فنادوا غير الحي العاقل، كالناقة والطير والوحش، ومشاهد الطبيعة من برق وسحاب وأقمار وشموس وأشجار وأرض وسماء وجبال، وفيافي، وقبور، وأطلال، وديار، كما نادوا أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة وويل ولذة . . ونداء مثل هذه الأمور لا يكون لطلب الإقبال، وإنما يكون لأغراض بلاغية ومقاصد يقصد إليها المتكلم.

قلت: إن النداء يكون بحروف نائبة مناب كلمة: «أدعو»، وهذه الحروف قد تذكر، كما في الآيات التي مرت بك، وكما في قولك أمحمد، ياخالد، هيا سلمى، وقد تحذف فتقول: محمد. . خالد. . سلمى. . تريد نداءهم، ومما ورد فيه حذف أداة النداء، قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. ﴾(1) . . ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾(2) . . ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾(3) فقد حذفت أداة النداء في الآيات الكريمة وتقديرها: أيوسف. . ياأيها الصديق. . ياأيها المرسلون . . ومن ذلك نداء الرب في أساليب القرآن الكريم، فلا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادي مجرداً من حرف النداء، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ..﴾(4) ، وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن الكريم، لم يعثر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا في الآيتين الكريمتين: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(5) . . . ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(6) . ولعل مجيء حرف النداء مع الرب في هاتين الآيتين بصفة خاصة، تعبيراً عن حالة نفسية ألمت بالرسول -عليه السلام- وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم، فأطبق الهم على فؤاده، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته بسبب كفر قومه وإعراضهم، فأراد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه، كما أن في امتداد الصوت بهذا الحرف «يا» ما ينبىء بحالة الرسول النفسية، وكأنه وجد فيها متنفساً لآلامه وأحزانه.

وفي نداء لفظ الجلالة يجوز استبدال ميم مشددة في آخره بحرف النداء فيقال: اللهم، بدلا من: ياالله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾(7) .

---

(1) سورة يوسف: ٢٩ . (2) سورة يوسف: ٤٦ . (3) سورة الذاريات: ٣١ .
(4) سورة البقرة: ٢٦٠ . (5) سورة الزخرف: ٨٨-٨٩ . (6) سورة الفرقان: ٣٠ .
(7) سورة آل عمران: ٢٦ .

هذا وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة وأي، لغرض بلاغي وهو الإشعار بأنه حاضر في القلب لا يغيب عن الخاطر، حتى صار كأنه حاضر مشاهد.. ومن ذلك قول أبي فراس وهو أسير في بلاد الروم ينادي سيف الدولة:

أسيف الهدى وقريع العرب إلام الجفاء وفيم الغضب؟

وما بال كتبك قد أصبحت تنكبني مع هذي النكب[1]

فعلى الرغم من تباعدهما جاء النداء بالهمزة ليعبر عما يضمره له من حب، فهو حاضر في قلبه لا يغيب عن خاطره وكأنه مشاهد أمامه.

ومثله قول الآخر:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان[2]

فهو ينادي سكان هذا المكان وقد عبر بالهمزة الموضوعة لنداء القريب لينبىء بأنهم قريبون منه، لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله..

ومنه قول الآخر:

أأبي لا تبعد وليس بخالد حي ومن تصب المنون بعيد

فهو ينادي أُبَيًّا الذي أصابته المنون فصار بعيداً عنه يناديه بالهمزة ليعبر عن حضوره في قلبه واستقراره في فؤاده.. وتقرأ رسالة والد إلى ولده أرسلها له من مكان بعيد فتراه يقول: «أي بني عليك بالاستقامة وترك المعاصي فإن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاص» فقد عبر بأي في ندائه ابنه وهو بعيد عنه ليدل على أنه حاضر في قلبه لا يبرح خياله ولا يغيب عن فكره ووجدانه.

كما قد ينزل القريب منزلة البعيد فينادي بغير الهمزة وأي لأغراض بلاغية أهمها:

١- الإشعار ببعد منزلته وعلو مكانته، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة منزلة البعد المكاني، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ

---

(١) قريع العرب: سيدهم. تنكبني: تجنبني والمراد أن هذه نكبة تضاف إلى نكبة أسره.. وكتبك بسكون التاء ضرورة: رسائلك، مفردها: كتاب.

(٢) نعمان الأراك: اسم موضع.. والربع: المنزل.

إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[1] ، فإبراهيم -عليه السلام- ينادي أباه وهو قريب منه، وقد استخدم «يا» الموضوعة لنداء البعيد لينبىء ببعد مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه حتى ولو كان على غير دينه . . ومن ذلك نداؤك لفظ الجلالة فتقول: «ياألله» مع أنه أقرب إليك من حبل الوريد.

٢- الإشعار بأن المنادى وضيع المنزلة منحط المكانة وكأنه بعيد عن القلب، فينزل هذا البعد النفسي منزلة البعد المكاني . . كما في قول جرير يهجو ابن أبي خليد:

فخل الفخر يا ابن أبي خليد وأد خراج رأسك كل عام

ومثله قول الفرزدق في هجاء جرير:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

٣- التنبيه على عظم الأمر المدعو له وعلو شأنه، حتى كأن المنادى مقصر فيه غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال، كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾**[2] . ويحمل على ذلك كل النداءات الموجهة من الله تعالى إلى عباده « **يا أيها الذين آمنوا .. يا أيها الناس .. يا موسى أقبل ولا تخف .. يا عيسى ابن مريم .. يا نوح اهبط بسلام منا**» فالله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد، وقد جاء النداء «بيا» الموضوعة لنداء البعيد للتنبيه على عظم الأمر الذي نودي من أجله وعلو شأنه، وليبادر المنادي بالامتثال والاستجابة . . ومن ذلك قوله تعالى على لسان لقمان يوصي ابنه: **﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[3] .

٤- أن يكون المنادي نائماً أو ساهياً، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد الذي يقتضي علو الصوت، كقولك: هيا عمرو استيقظ، أيا خالد تنبه ولا تسه .

٥- الإشعار بغفلة المنادى عن الأمر العظيم الذي يقتضي اليقظة والانتباه، كقولك: هيا فلان تهيأ للحرب . . ومنه قول الشاعر:

يا أيها السادر المزور من صلف مهلا فإنك بالأيام منخدع

---

(١) سورة مريم: ٤٤، ٤٥ .

(٢) سورة المائدة: ٦٧ .

(٣) سورة لقمان: ١٣-١٧ .

وكأن غفلة هذا الغافل جعلتك تبعده عن ساحة الحضور وتنزله منزلة البعيد فتناديه نداءه . . ومنه قول مرة بن محكان السعدي يخاطب ربة بيته ويناديها :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب النداء:

ويأتي أسلوب النداء مفيداً لمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله ، فعندما تنادي القبور أو النوق أو البرق أو التعجب أو الويل ، فإنه يراد بهذا النداء مقاصد وأغراض يرمى إليها المنادي ، كما قد ينادى الحي العاقل لغرض آخر بالإضافة إلى طلب الإقبال . . وإليك أهم هذا المقاصد :

١- الإغراء : وهو الحث على طلب الأمر الذي ينادى له ، كقولك لمن يتظلم : يامظلوم تكلم ، فأنت تريد بهذا النداء إغراءه وحثه على بث الشكوى وإظهار التظلم . . وكقولك لمن يتردد في الإقدام : ياشجاع تقدم ، تريد حثه على المضي والتقدم . .

٢- الاختصاص : وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر صورته صورة المنادي أو المعرف بأل أو بالإضافة أو بالعلمية ، فمثال كون الدال على التخصيص صورته صورة المنادى قولك أنا أفعل كذا أيها الرجل . . ونحن نقول كذا أيها القوم . . واغفر اللهم لنا أيتها العصابة ، فالمراد بالمنادى هو المتكلم نفسه والمعنى : أنا أفعل كذا متخصصاً من بين الرجال . . ونحن نقول متخصصين من بين الأقوام . . واغفر لنا متخصصين من بين العصائب . . ولا مانع من نداء الإنسان نفسه كما في قول عمر رضي الله عنه : «كل الناس أفقه منك ياعمر» ، ومثال الاختصاص المعرف بأل : «نحن العرب أسخى من بذل» وبالإضافة قوله - صلى الله عليه وسلم- : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» وبالعلمية : «بنا تميما يكشف الضباب» . .

والغرض من الاختصاص إما تأكيد مدلول الضمير . . كما في قولك : أنا أفعل كذا أيها الرجل . . وإما إظهار المسكنة والتواضع كقولك : أنا أيها المسكين أطلب المعروف ، وإما الافتخار كقولك : نحن العرب أقرى للضيف .

٣- الاستغاثة : كقولك : ياالله . أي : أقبل علينا لإغاثتنا . .

ومنه قول الشاعر :

يا لقومـي ويالأمثـال قـومـي　　لأنـاس عتوهـم في ازديـاد

٤- الندبة: وهي نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه، كقولك يارأساه، واعيناه .. وامحمداه .. ومنه قول المتنبي:

واحـر قلبـاه ممن قلبـه شبم　　ومن بجسمـي وحالي عنده سقم

٥- التعجب: كقولك وقد شربت ماء بارداً حلواً: «ياللماء» تريد التعجب من برودته وحلاوته .. ومنه قول امرىء القيس:

فيالك مـن ليـل كـأن نجومـه　　بكل مغـار الفتـل شـدت بيذبل

وقول الفرزدق يهجو جريراً:

فوا عجبـا حتى كليـب تسبـني　　كـأن أباهـا نهشـل أو مجاشـع

وقول الآخر:

فوا عجبـا كيف اتفقنـا فناصـح　　وفي ومطـوي على الغـل غـادر

٦- الزجر: كما في قول الشاعر:

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح　　أما ارعويـت ولا اتقيـت كـلامًا

فهو يريد بالنداء زجر قلبه وتأنيبه لعدم استجابته للنصائح وارعوائه عن هواه وصبابته .. ومثله قول الآخر:

أفـؤادي متى المتـاب ألـمـا　　تصـح والشيـب فوق رأسي ألما

٧- الوعيد: كما في قول المهلهل متوعدًا آل بكر:

يا لبكـر أنشـروا لي كليبـا　　يا لبكـر أيـن أيـن الفـرار

٨- التنبيه: وقد يأتي حرف النداء لمجرد التنبيه وذلك عندما يدخل على الحروف، كما في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(١)، وكما في قوله صلى الله عليه وسلم: «يارب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة».

٩- التحسر والتحزن: وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأموات والويل والحسرة وما إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا

---

(١) سورة النساء: ٧٣.

لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ..﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[2] ، فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحسر والتحزن وإظهار الندم، وكأنه يقول : ياويلتي وياحسرتي أقبلا ، فهذا هو أوانكما ، وكأنه أي الكافر لفرط ما هو فيه صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيبان فناداهما . . وهذا ينبىء عما بداخله من أحزان وآلام وتحسر وندم .

ومن ذلك نداء القبر في قول الحسن بن مطير :

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً
أيا قبر معن كنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعاً
ويا قبر معن كيف واريت جوده ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

ونداء الميت في قول العتبى بن مالك :

أعداء ما للعيش بعدك لذة ولا لخليل بهجة بخليل
أعداء ما وجدي عليك بهين ولا الصبر إن أعطيته بجميل

وفي قول الآخر :

دعوتك يا بني فلم تجبني فردت دعوتي يأسا عليا

وقوله :

يا درة نزعت من تاج والدها فأصبحت حلية في تاج رضوان

ونداء المنازل والديار كما في قول الشاعر :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقول الآخر :

أيا منازل سلمى أين سلماك من أجل هذا بكيناها بكيناك

(١) سورة الفرقان : ٢٧-٢٩ .
(٢) سورة الزمر : ٥٦ .

ونداء الناقة في قول حفص بن الأحنف الكناني:

نفرت قلوصي من حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري ياناق منه فإنه ... شراب خمر مسعر لحروب

ونداء البرق في قول أبي العلاء المعري:

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما ... رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال

فوراء تلك النداءات تكمن آلام الشعراء وأحزانهم وتحسرهم وكأنهم لفرط ما يجدون من الوجد والأسى توهموا أن تلك الأشياء تحس وتشعر، أو أرادوا أن يبرزوا ويصوروا للمخاطب أنها تشعر وتعي، وعليها أن تشاركهم آلامهم وأن تستجيب لنداءاتهم، فالقبر في خيال الشاعر حي يعقل وعليه أن يجيب نداءه، والناقة تشعر بآلامه وتفرح لفرحه وتأنس لتلك الحجارة كما أنس.. والميت في قبره ينعم ويحيا ويرى ويسمع تأوهاته.. والمنازل.. والبرق.. وغيرها.. تستجيب لنداء المكروب وتشعر بألم المتألم.. ووراء ذلك تكمن آلامهم وأحزانهم التي تنبعث من تلك النداءات.. وهذا هو السر البلاغي وراء نداء تلك الأشياء..

هذا والنداء يصحب -غالباً- الأمر والنهي والاستفهام، وكأنه يعد النفس ويهيؤها لتلقي تلك الأساليب، ولذا فهي تتقوى به، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر، فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفساً مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واعٍ وذهن منتبه.. ولذا كثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ..﴾[1].. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ.﴾[2]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ..﴾[3] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]، وقد تجمع هذه الأساليب جميعها كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا

(١) سورة الحج: ١.
(٢) سورة المائدة: ١.
(٣) سورة المائدة: ٨٧.
(٤) سورة الصف: ١٠.

كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(١) .

وتجد النداء في الآيات المذكورة قد تقدم على تلك الأساليب وقد يتأخر عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢) .

وقد تتقوى هذه الأساليب بغير النداء، وذلك بأن يقع بعدها ما يحث عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(٣) ، فقوله: ﴿إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ حث على الصلاة وترغيب فيها. . ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٤) ، فقوله: (إنهم كفروا) حث على النهي وتنفير من الصلاة عليهم. ومن ذلك قول بشار:

بكـرا صاحبـي قبـل الهجيـر   إن ذاك النجـاح فـي التبكيـر

فقوله: «إن ذاك النجاح في التبكير» حث على الأمر وترغيب فيه. .

أسلوب التمني:

قالوا في تعريفه: هو طلب أمر تحبه النفس وتميل إليه وترغب فيه، ولكنه لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلاً، أو لكونه بعيداً لا يطمع في نيله. . والأداة الموضوعة له هي: ليت، تقول في تمني الأمر المحبوب الذي لا طمع فيه لكونه مستحيلاً، لا يمكن حصوله: ليت الشباب يعود يومًا . ليت الكواكب تدنو لي. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾(٥) وقوله عز وجل: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٦) ، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾(٧) . . فمريم تتمنى أن تكون قد ماتت قبل ذلك. . والكفرة يتمنون عند معاينة الحساب أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولا

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢ .
(٢) سورة النور: ٣١ .
(٣) سورة التوبة: ١٠٣ .
(٤) سورة التوبة: ٨٤ .
(٥) سورة مريم: ٢٣ .
(٦) سورة الأنعام: ٢٧ .
(٧) سورة الفرقان: ٢٧ .

يكذبوا . . والظالم يعض على يديه ندمًا ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سبيلاً، وتلك الأمور المتمناة لا يرجى حصولها أبداً لكونها مستحيلة الوقوع . . ومنه قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

وقول الآخر :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

فالأمر المتمني في البيتين لا يرجى حصوله لكونه مستحيل الوقوع .

ومنه قول علي بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمنا بعد فرقة وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب

فياليت أن الليل أطبق مظلماً وأن نجوم الشرق لم تتغرب

فقد ملأ لقاء الحبيب عليه نفسه، ولم يدع فيها مجالاً لوعي أو فكر، فأخذ يدعو بالسقيا لليل الذي ضمهما بعد فرقة، ولا معنى لسقيا الليل إلا فقدان الشاعر لوعيه وفكره، ثم أخذ يتمنى أمراً محالا لا يرجى حصوله وهو أن يظل الليل مطبقاً عليهما بظلامه، وأن تبقى النجوم فلا تغرب . . وتقول في تمني الشيء المحبوب الذي يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه لبعد مناله : ليت لي مالا فأحج منه، ليتني ألقى فلاناً فأنتفع بعلمه، والبعد هنا بعد نفسي، مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشيء، وقد لا يكون بعيداً بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] فقد تمنوا أن يكون لهم مثل تلك الكنوز التي تنوء مفاتحها بالعصبة أولي القوة وهي أمنية محببة لنفوسهم، وليست مستحيلة، بل هي ممكنة الوقوع، ولكنهم لا يطمعون فيها لبعد منالها . . ومنه قول مالك ابن الريب :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشي الركاب لياليا

---

(١) سورة القصص : ٧٩ .

فقد تمنى الشاعر في البيت الأول أن يبيت ليلة يجنب الغضا، ذلك الوادي الحبيب إلى قلبه، وهذا غير محال، ولكنه بعيد المنال في نفس الشاعر الذي أحس بدنو أجله فخاطب صاحبيه:

فياصاحبي رحلي دنا الموت فاحضرا ... برابيـــة إنـــي مقيـــم لياليـــا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي ... وردا علـى عيني فضـل ردائيـا
ولا تحسداني بـارك اللـه فيكمـا ... من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
تذكرت من يبكـي علـي فلـم أجـد ... سوى السيـف والرمـح الرديني باكيا

أما تمنيه في البيت الثاني ألا يقطع الركب عرض الغضا وأن يماشي الغضا الركاب، فهو تمن للأمر المحال وقوعه وهذا ينبيء بمدى حب الشاعر وتعلقه بهذا الوادي.. فإذا كان الممكن يطمع في حصوله، صار طلبه ترجيا وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجي كلعل وعسى.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[2]، وكون الممكن مرجوا حصوله، مطموعا فيه أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده - كما أشرت- إلى نفس المتكلم وإحساسه، فمثلاً إذا كنت تطلب حصول مال وتتوقعه وتطمع في وجوده ونيله قلت مترجياً: لعل لي مالاً فأحج به، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك في نيله، قلت متمنياً: ليت لي مالاً فأحج به..

عرفت أن الأداة الموضوعة للتمني هي «ليت» وقد يتمنى بألفاظ أخرى غيرها لأغراض بلاغية.. ومن هذه الألفاظ أدوات الاستفهام مثل هل وأين ومتى، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ؟﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟﴾[4]، ويقول من وقع في شدة يستبعد زوالها: متى الخلاص؟ والسر البلاغي وراء التمني بالاستفهام في الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكناً، فاستفهموا عنه، ولذا فإن الدلالة على التمني

---

(١) سورة عبس: ٣، ٤.
(٢) سورة المائدة: ٥٢.
(٣) سورة غافر: ١١.
(٤) سورة القيامة: ٧-١١.

بطريق الاستفهام تبرز المستحيل -كما في الآيتين- أو البعيد الحصول- كما في المثال- في صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبىء بكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه . .

وقد يتمنى بلو كما في قوله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وقوله عز وجل : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] . فلو في هذه الآيات الكريمة تفيد التمني بدليل نصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها، والفرق بين التمني بلو والتمني بليت هو أن التمني بلو يزداد المتمني فيه بعداً واستحالة وسياق الآيات الكريمة ينبىء بهذا، فقد وقع هذا التمني بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم وقوعه، وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا، ويرجع ازدياد التمني «بلو» بعداً أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هي حرف امتناع لامتناع . . ومن التمني بلو شعراً قول القائل :

ولى الشباب حميدة أيامه ... لو كان ذلك يشترى أو يرجع

ولعلك تشعر بشدة استحالة التمني في البيت وهو رجوع الشباب، وازدياد بعده عن قولك : ليت الشباب يعود، ومرد ذلك - كما قلت- إلى كون «لو» حرف امتناع لامتناع[4] .

وقد يتمنى بلعل كما في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[5]، فبلوغ أسباب السموات من الأمور المستحيلة التي لا يمكن وقوعها وهذا يقتضي استعمال أداة التمني الأصلية . . «ليت»، ولكنه عدل عنها إلى «لعل» التي تفيد الترجي لغرض بلاغي وهو إبراز المتمنى المحال في صورة الممكن القريب الحصول وذلك لكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه . . ومنه قول الشاعر :

---

(١) سورة البقرة : ١٦٧ .

(٢) سورة الزمر : ٥٨ .

(٣) سورة الشعراء : ١٠٠-١٠٢ .

(٤) دلالات التراكيب ٢١١ وبنية الإيضاح ٢ / ٣٣ .

(٥) سورة غافر : ٣٦ .

أسـرب القطا هل من يعير جناحـه		لعلي إلى من قــد هويت أطيـر

وكما تستعمل لعل في مقام: التمني، فقد تستعمل ليت في مقام الترجي، كما في قول جرير:

أقول لها من ليلـة ليس طولهـــا		كطـول الليالي ليت صبحك نوراً

فانبلاج الصبح وهو أمر مترتب الحصول أبرزه جرير في صورة البعيد الحصول فعبر عنه بليت، وذلك لإبراز الشيء المرجو القريب الوقوع في صورة الشيء البعيد إشعاراً بعزته وامتناعه، وهذا ينبىء بمعاناة الشاعر وشعوره بامتداد الليل وطوله..

حروف التنديم والتحضيض:

وهي: هلا وألا ولولا ولوما..

يرى السكاكي أن هذه الأحرف كأنها مأخوذة من «هل»، و«لو» بقلب الهاء همزة في «ألا» مركبتين مع «لا وما» الزائدتين، لإفادتهما معنى التمني، وذلك ليتولد من التمني الذي أفادتاه، معنى التنديم في الماضي، كقولك: هلا أكرمت صاحبك.. لولا قاتلت الأعداء، ومعنى التحضيض في المضارع، كقولك: ألا تكرم صاحبك، لوما تجتهد في عملك، لأن تمني ما فات يتولد منه التنديم وتمني ما هو آت يتولد منه التحضيض، وهذا الوجه في تحليل دلالة تلك الأحرف على معنيي التنديم والتحضيض مبني على افتراض أن استعمال: «هل ولو» في التمني سابق لاستعمال: «هلا وألا ولولا ولوما» في التنديم والتحضيض، لأنه يفترض أن المعنى الثاني مما تولد عن هذا الاستعمال، ولا وجه لإثبات ذلك الافتراض، وبخاصة إذا لاحظنا أن «هل ولو» لم توضعا للتمني، فاستعمالهما فيه لابد أن يكون قد جاء في مرحلة متأخرة عن استعمالهما فيما وضعتا له، ويترتب على هذا أن يكون التنديم والتحضيض قد جاء في الطور الثالث من استعمال الكلمتين، على الرغم من أن التنديم والتحضيض من المعاني التي يحسها الإنسان ويحتاج للعبارة عنها في نفس المرحلة التي يعبر فيها عن معانيه القلبية والذهنية والتي منها التمني والاستفهام وامتناع الشيء لامتناع غيره، فإذا أضفت إلى هذا أن «هل» كانت في الأصل بمعنى «قد» ثم أشربت معنى الاستفهام لطول ملازمتها الهمزة، ازداد هذا الوجه بعداً[1].

---

(١) دلالات التراكيب ٢١٣.

ولم يكن هذا البعد في وجه الدلالة خافياً على السكاكي، ولذا تراه لم يقطع به، بل بناه على الاحتمال حيث قال: «وكأن حروف التنديم والتحضيض، هلا وألا بقلب الهاء همزة، ولولا ولوما، مأخوذة منهما- أي من هل ولو- مركبتين مع لا وما المزيدتين، لتضمينهما معنى التمني، ليتولد منه في الماضي التنديم نحو: هلا أكرمت زيداً، وفي المضارع التحضيض نحو: هلا تقوم..»(١) .. ولذا فإني أرجح ما قاله النحاة في وجه دلالة هذه الأحرف، حيث ذكروا أنها موضوعة للتنديم والتحضيض من أول الأمر..

التعبير بالخبر في موضع الإنشاء:

يقع الخبر في موقع الإنشاء وذلك لأغراض بلاغية يقصد إليها البلاغي.. وأهمها ما يلي:

١ - التفاؤل وإظهار الحرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحقيقه إدخالاً للسرور على المخاطب، ويكون ذلك في «الدعاء» بأن يقصد المتكلم طلب الشيء وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه، أو طلب الكف وتكون صيغة النهي هي الدالة عليه، فيعدل عنهما إلى صيغة الإخبار بالماضي الدالة على تحقيق الوقوع، وفيه إشعار بأن الدعاء للمخاطب قد حصل وتحقق.. من ذلك قولك لصاحبك: وفقك الله للتقوى والعمل الصالح وسدد خطاك ورحمك وغفر لك.. والمعنى: اللهم وفقه وسدد خطاه وارحمه، وقولك: لا سمعت مكروهاً ولا رأيت شراً، والمراد: اللهم لا تسمعه مكروهاً، ولا تره شراً، فعدل عن الأمر والنهي الدالين على الدعاء إلى الإخبار عنه بالماضي الدال على تحقق الوقوع تفاؤلاً وإظهاراً لحرص المتكلم على حدوث ذلك للمخاطب، وإدخالاً للسرور عليه.. ومن ذلك قول الشاعر:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله: «وبلغتها» دعاء للسامع، إذ المراد: اللهم أطل عمره، وبلغه هذه السن، وقد عبر عن ذلك بالماضي إظهاراً لرغبته وحرصه على تحققه ووقوعه..

ومثله قول الآخر:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت بنا نعلنا في الواطئين فزلت

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٧ والإيضاح جـ ٢ ص ٣٣ .

وقول الشاعر في رثاء عمر رضي الله عنه:

جزى الله خيراً من إمام وباركت   يـد اللـه في ذاك الأديم الممزق

٢- الاحتراز عن صورة الأمر أو النهي المشعرة بالاستعلاء تأدباً مع المخاطب حيث يقتضي المقام ذلك التأدب، كقولك لمعلمك: ينظر إلى أستاذي لحظة.. لا يعاقبني أستاذي.. ولو قلت: انظر بالأمر، أو لا تعاقب بالنهي، لكان قولك مخلاً بما يقتضيه المقام من تأدب التلميذ عند مخاطبة أستاذه..

٣- حمل المخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله وذلك كقول الصديق لصديقه: «تزورني غدا» وقول الأستاذ لتلاميذه: تأتونني كل صباح.. بدلاً من زرني وائتوني بصيغة الأمر، وذلك لأن التعبير بصيغة الخبر يحتمل الصدق والكذب -كما عرفت- فلو أن الصديق لم يحضر لزيارة صديقه ألصق به الكذب ونسبه إليه، وكذا التلاميذ إذا لم يأتوا كل صباح كما أخبر أستاذهم، نسبوه إلى الكذب وألصقوه به، والصديق حريص على أن ينزه صديقه ويبعده عن الكذب، والتلاميذ يحرصون على أن يكون أستاذهم بمنأى عن الكذب ومنزهاً عنه، ولذا كان التعبير بالخبر في موضع الإنشاء حاملاً للمخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله.. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» فالمراد: لا تجمعوا في جزيرة العرب بالنهي، وقد جاء بصيغة الخبر حملاً للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية.. ومنه قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) ، فقوله: «لا ينكح .. لا ينكحها» خبر أريد به النهي، وفي بعض القراءات بالجزم على النهي، وعلى قراءة الرفع يكون التعبير بالخبر في موضع الإنشاء أبلغ في الزجر وآكد؛ لأنه يبرز المنهي عنه في معرض الواقع المحقق رغبة في حدوثه وحرصاً على تحقيقه وحثا على الامتثال وسرعة الإجابة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٢) ، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم

---

(١) سورة النور: ٣.

(٢) سورة البقرة: ٨٣.

مِّن دِيَارِكُمْ﴾(١)، فالمعنى على النهي أي: لا تعبدوا إلا الله، لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم، وقد عدل عنه إلى الخبر حملاً للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثا لهم على سرعة الإجابة والامتثال.

التعبير بالإنشاء في موضع الخبر:

وقد يقع الإنشاء في موقع الخبر لأغراض ومقاصد يرمي إليها البلاغي.. أهمها:

١- الاهتمام بالشيء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(٢)، والمعنى: «وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد» فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر، تنبيهاً إلى وجوب الاهتمام بالمأمور به والحرص على تحقيقه.

٢- الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب، كقوله صلى الله عليه وسلم: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، فالمعنى: «تبوأ مقعده من النار» وقد عدل عنه إلى صيغة الأمر للدلالة على أنه مطلوب، وأنه واقع يؤمر به، وليس على الكاذب إلا الرضا وتنفيذ المطلوب وفي هذا ما فيه من الوعيد والتحذير والزجر..

٣- الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٣) فالمعنى: إني أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر: «واشهدوا» احترازاً عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل، وفيه أيضاً تعظيم لهود - عليه السلام- وإعلاء لشأنه وتحقير لهؤلاء الكفرة المشركين، حيث أبرزه الأمر في صورة الآمر الذي يوجه إليهم الأمر، وعليهم أن يخضعوا ويذعنوا وأن يستجيبوا لما يأمر به.

تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء:

وبعد أن عرفت الأساليب الإنشائية والخبرية، وما بينهما من فروق دقيقة، وما في اللغة العربية من طواعية لصرف الجملة عن الإنشاء إلى الخبر، وعن الخبر إلى الإنشاء.. ينبغي لك أن تعلم أن المتكلم البليغ والأديب المقتدر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما

---

(١) سورة البقرة: ٨٤.

(٢) سورة الأعراف: ٢٩.

(٣) سورة هود: ٥٤.

يقتضيه كل موطن منها، فيورد كلامه ويصوغ عباراته ملائمة للمقام. . وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء مما يجذب السامع ويحرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه، فعلى البليغ مراعاة ذلك، وأن يعرف المواطن التي تحتاج إلى حدة وانفعال وإثارة وتحريك فيورد فيها الأساليب الإنشائية من أمر ونهي واستفهام وتعجب وترج وتمن ونداء، وأن يعرف المواطن التي تقتضي السرد والحكاية، فيورد بها الجمل الخبرية، وأمام البليغ نماذج ثرية وأمثلة حية من الشعر العربي. . انظر إلى الشعر الجاهلي وتبين كيف كان الشاعر يتساءل ويأمر صاحبيه ويتمنى ويصف ناقته ورحلته ويتعجب مما يرى ويشاهد، فتأتي أساليبه ملائمة للمقامات ومبنية على التنويع الذي يجذب السامع ويسترعى انتباهه.

❑❑❑

الفصل الثالث
الفصل والوصل

الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل باب دقيق المجرى لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار . . . وقد تنبه العلماء قديماً لدقة هذا الباب وجعلوه البلاغة بأسرها حيث سئل أحدهم عن البلاغة فقال: البلاغة معرفة الفصل من الوصل(١) . . . وقال عبد القاهر: «وأعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفى غامض ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب . . .»(٢).

والوصل معناه العطف؛ عطف الكلام بعضه على بعض، سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل، وسواء أكان بالواو أم بغيرها كالفاء وثم و «أو». والفصل هو ترك العطف، هذا ما ذكره السكاكى . . ولكن البلاغيين جرت عادتهم فى حديثهم عن الفصل والوصل أن يتجاوزوا عطف المفردات وعطف الجمل التى لها محل من الإعراب، معللين ذلك بأن عطف المفردات وكذلك الجمل التى لها محل من الإعراب، أمره هين ويسير، إذ لا يقصد به سوى مجرد التشريك فى الحكم الإعرابى، أما دقة الفصل والوصل فإنما تظهر فى الجمل التى لا محل لها من الإعراب . . . كما تجاوز البلاغيون العطف بغير الواو قائلين: إن الواو من بين حروف العطف هى التى لا تفيد سوى مجرد الإشراك فى الحكم ومطلق الجمع، فالعطف بها دقيق مشكل، أما غيرها من حروف العطف فتفيد مع التشريك فى الحكم معانى أخرى، فالفاء تفيد: الترتيب والتعقيب، وثم تفيد الترتيب والتراخى

(١) البيان والتبين ١ / ٨٨ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣٧ .

و«أو» تفيد تردد الفعل بين شيئين أو التخيير أو الإباحة، ولذا لم يشكل العطف بتلك الأحرف . . [(١)]. وهذا الذى ذكروه وإن كان لا يخلو من الصحة، إلا أننا لا نعدم وجوهاً دقيقة وأسراراً خفية نجدها كامنة وراء العطف بغير الواو، كما أننا لا نعدم وجوهاً أدق وأسراراً أخفى تكمن وراء عطف المفردات والجمل التى لها محل من الإعراب . . . ولذا فإنا سنبدأ دراستنا للفصل والوصل بالإشارة إلى هذه الدقائق وتلك الأسرار .

العطف بغير الواو:

انظر إلى قول الله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾[(٢)]، تجد أن الجمل قد وصلت فى الآيات الكريمة بحرفى العطف «ثم» و«الفاء»، ووراء الوصل بهذين الحرفين تكمن الدقائق واللطائف، فقد بدأت بالخلق الأول، خلق آدم عليه السلام من طين، ولما أريد وصله بالخلق الثانى، خلق التناسل، عطف عليه بثم لما بينهما من التراخى، ثم تحدثت الآيات عن أطوار الخلق، فوصلت خلق العلقة بالنطفة «بثم» لما بينهما من التراخى ثم توالت الأطوار خلق المضغة فالعظام فكساء العظام لحماً، موصولة بالفاء، حيث لم يكن هناك تراخ بينها، ثم وصل تسويته إنساناً بكساء العظام لحماً بحرف العطف «ثم» إشارة إلى التراخى بينهما . . [(٣)] هذا وعندما تتأمل ما عطف بثم تجده أدق وأبعد مما عطف بالفاء، فقد نزل الاستبعاد عقلاً أو رتبة منزلة التراخى والبعد الحسى، فعطف بثم ونزل القرب عقلاً أو رتبة منزلة القرب الحسى، فعطف بالفاء . . [(٤)] ثم جاء قوله تعالى: «فتبارك الله أحسن الخالقين» معطوفاً بالفاء على تلك الجمل التى جلت أطوار الخلق فى هذا النظم المبدع لتنبيه الإنسان إلى ما يجب عليه من المبادرة والإسراع إلى تعظيم الله عز وجل والإشادة بحسن خلقه وعجيب صنعه، ولهذا نطق أكثر من صحابى بختام الآيات الكريمة: «تبارك الله أحسن الخالقين» قبل أن يمليها النبى – صلى الله عليه وسلم – لكاتب الوحى، ويبتسم النبى عليه الصلاة والسلام قائلاً: «هكذا نزلت» .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣١ والإيضاح ٢ / ٦٢ .
(٢) سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤ .
(٣) ارجع إلى الطراز جـ ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) روح المعانى جـ١٨ ص ١٥ .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الإنسانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾(١)، ولاحظ كيف جاء تقدير الإنسان موصولاً بخلقه وإيجاده بالفاء: «خلقه فقدره»، تنبيهاً على أن التقدير مرتب على الخلق وأنه لا تراخى بينهما. وكذا عطف إقباره على موته بالفاء أيضاً: «أماته فأقبره»، إذ لا مهلة بين الموت والإقبار، ولما كان الزمن ممتداً بين تيسير السبيل وتقدير خلقه، وبين التيسير والإماتة، وبين الإقبار والنشر جاءت هذه الجمل موصولة بثم التى تفيد امتداد الزمن وإطالة المسافة: «.. فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ..». وخذ قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾(٢)، وتأمل كيف عطفت الهداية هنا على الخلق بالفاء «خلقنى فهو يهدين»، بينما عطفت على الخلق والتقدير فى سورة عبس بثم: «من نطفه خلقه فقدره ثم السبيل يسره ..» ويرجع هذا الاختلاف إلى السياق والمقام، فالآيات فى سورة الشعراء تتحدث عن إبراهيم - عليه السلام - والعطف بالفاء ينبئ بقوة يقينه وكمال إيمانه بربه، فقد بلغ إيمانه مبلغاً جعله لا يعتد بما بين الخلق والهداية من طول الزمن وامتداد المسافة، ولذا عطف هدايته على خلقه بالفاء: «خلقنى فهو يهدين»، أما فى سورة عبس فالحديث عن الكافر «قتل الإنسان ما أكفره» ولهذا جاء العطف بثم .. وانظر فى بقية الآيات تجد عطف السقى على الإطعام بالواو إذ المراد الجمع بينهما دون مراعاة لترتيب، وقدم الإطعام على السقى مراعاة لحسن النظم وتناسق الآيات. ثم جاء عطف الشفاء على المرض «بالفاء» إشارة إلى حدوث ومجيء الشفاء عقب المرض وترتيبه عليه، وتنبيها إلى عظم المنة بالعافية بعد المرض بلا تراخ، وانظر إلى حسن الأدب حيث أسند الشفاء إلى الله تعالى دون المرض «مرضت ... يشفينى»، ثم عطف الإحياء على الإماتة بثم لما بينهما من التراخى وامتداد الزمن.

هذا والسياق هو الذى يحدد كيفية الوصل بين الجمل ويعين حرف العطف الذى يتحتم استخدامه دون غيره، انظر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾»(٣).

(١) سورة عبس: ١٧ - ٢٢.
(٢) سورة الشعراء: ٧٨ - ٨١.
(٣) سورة الكهف: ٥٧.

ثم تأمل قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾(١)، تجد أن سياق الآية الأولى يتحدث عن الكفرة الذين مازالوا يحيون . . . يعاندون ويكابرون، ويرفضون قبول الهداية . . ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فهؤلاء يعرضون عن الآيات فور تذكيرهم بها ولذا ناسب العطف بالفاء التي تفيد التعقيب: «ذكر بآيات ربه فأعرض عنها»، أما سياق الآية الثانية فيتحدث عن المجرمين الذين انتهت حياتهم وماتوا على الكفر . . ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾(٢)، فهؤلاء قد استمر تذكيرهم في الدنيا بالآيات وامتد زماناً بعد زمان ثم أعرضوا عنها إعراضاً نهائياً بالموت وهذا يلائمه العطف بثم التي تفيد الامتداد والتراخي . . «ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون.»

وبهذا يتضح أن العطف بغير الواو يكمن وراءه من الدقائق والأسرار واللطائف ما ينبغي إظهاره وتجليته ولا يمكن إغفاله والتغاضي عنه . . .

عطف المفردات:

يذكر بعض البلاغيين أن المفردات يعطف بعضها على بعض بالواو إذا كانت متناسبة متجانسة، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣)، فالصلاة والنسك والمحيا والممات أسماء متناسبة، وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤)، فالفواحش والإثم والبغي والشرك والقول على الله مالا يعلمون، ألفاظ متجانسة، ومثله قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾(٥)، فالله والملائكة والكتب والرسل أسماء بينها تناسب وتآلف . . وهذا الذي ذكره البلاغيون غير سديد ولم يسلم لهم لأن التناسب بين الألفاظ والتلاؤم والتجانس بين الكلمات مطلوب سواء أعطفت هذه الكلمات أم لم

---

(١) سورة السجدة : ٢٢ .
(٢) سورة السجدة : ٢٠ ، ٢١ .
(٣) سورة الأنعام : ١٦٢ .
(٤) سورة الأعراف : ٣٣ .
(٥) سورة البقرة : ٢٨٥ .

تعطف، وقد ذكروا ذلك فى علم البديع وسموه: «مراعاة النظير» فالمتكلم ينبغى له أن يراعى التناظر والتجانس والتآليف بين ألفاظه وألا يباعد فى القول . . ولذا عاب نصيب على الكميت قوله:

أم هل ظعائن بالعلياء يافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب

فقد عقد عقدة عند سماعه، ولما سأله الكميت ماذا تحصى ؟ أجاب: خطأك، باعدت فى القول، أين الأنس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أسنانها شنب

وعاب النقاد قول أبى تمام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم:

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا عنها طلول باللوى ورسوم

لا والذى هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

مازلت عن سنن الوداد ولا غدت نفسى على إلف سواك تحوم

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين وهما متباعدان لا تجانس بينهما، والذى أوقع أبا تمام فى هذا العيب هو محاولته التخلص من الغزل والانتقال إلى المديح، ولكنه لم يحسن التخلص ووقع فيما وقع فيه من عدم التجانس بين مرارة الفراق وكرم الممدوح . . . وقد انتصر البعض لأبى تمام فقالوا: الجامع خيالى لتفاوتهما فى خيال الشاعر، أو وهمى وهو ما بينهما من شبه التضاد؛ لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم، أو التناسب، لأن كلاً منهما دواء فالصبر دواء للعليل، والكرم دواء للفقير، وكل هذه تكلفات باردة، لا تبرر خطأ أبى تمام، إذ المعتد به هو التناسب الظاهر بين الكلمات والألفاظ . . . وخلاصة القول أن التناسب والتجانس والتآلف بين الألفاظ ليس مقصوراً على كونها معطوفة، بل لا بد من مراعاة النظير بين المفردات سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة . . . كما يذكر البلاغيون أن الصفات لا يعطف بعضها عل بعض إلا إذا كانت متضادة كما فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(1)، أما إذا كانت غير مضادة فإنها تذكر بلا عطف كما فى قوله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ

(1) سورة الحديد: ٣ .

اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(١)، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾(٢)، تجد أن الصفات قد توالت بلا عطف إلا «ثيبات وأبكاراً» فقد عطفتا لما بينهما من التضاد .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣)، توالت الصفات بلا عطف ما عدا صفتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد جاءت الواو بينهما لأنهما متضادان . . . وعندما يرى هؤلاء البلاغيون أن الواو قد جاءت بين صفتين ليس بينهما تضاد يحاولون أن يتلمسوا وجهاً من التضاد بينهما، كما فى قوله تعالى: ﴿حم . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾(٤)، حيث عطفت فى الآية: «قابل التوب» على «غافر الذنب» وهما غير متضادين ولكن البلاغيين يتعسفون عندما يحاولون إثبات وجه من التضاد بين الصفتين فى الآية الكريمة . . . فقد ذكروا أن المغفرة ترجع إلى السلب، لأن معنى «غافر» الذى لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق، وقبول التوبة يرجع إلى الإثبات، لأن معناه قبول الندم والعذر وبين السلب والإثبات تضاد . . . وقالوا أيضاً: إن الجمع بينهما لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين، بين أن تقبل توبته فتكتب له طاعة، وبين أن تمحى ذنوبه، كأنه لم يذنب . . وقالوا: إن المغفرة مختصة بالعبد وقبول التوبة مختص بالله تعالى، فالله عز وجل يغفر حينا من تلقاء نفسه بفضله، وحينا يعفو عن المذنب بسبب ندمه واعتذاره وتوبته(٥) .

وما من ريب فى أن هذا تعسف ظاهر، ونحن فى غنى عنه خاصة وأن ما قالوه من الصفات المتضادة يجب فيها العطف بالواو قول غير سديد، فقد ترد الصفات متضادة وبدون عطف كما فى قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(٦).

وكما فى قول امرئ القيس:

مكر مفر مقبـــل مدبر معاً　　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

---

(١) سورة الحشر: ٢٣، ٢٤ .
(٢) سورة التحريم: ٥ .
(٣) سورة التوبة: ١١٢ .
(٤) سورة غافر ١ - ٣ .
(٥) الطراز ٢ / ٣٦ .
(٦) سورة الواقعة: ١ - ٣ .

كما ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة، مثل الآية المذكورة: «غافر الذنب وقابل التوب . . » ومثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾(١)، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ ... الآية﴾(٢)، ؛ فالأولى والأجدر أن تهتم الدراسة البلاغية بالبحث عن الأسرار الكامنة وراء الواو وأن تكشف وتجلى سر مجيئها حين تأتى وسر تركها حين تترك، فهذه الواو تفيد التغاير وعندما تأتى بين الصفات فإنها تفيد كمال اتصاف الموصوفين بكل صفة منها على حدة، انظر إلى قوله تعالى: «الصابرين والصادقين والقانتين . . » تجد أن الواو دلت على كمالهم فى كل واحدة منها (٣) . . وعندما تترك الواو وتأتى الصفات متوالية بلا عطف فإنها تفيد كمال اجتماعها فى الموصوف، خذ قوله تعالى: «التائبون العابدون الحامدون السائحون . . . الآية . . » وقوله: « . . مسلمات مؤمنات قانتات . . . » وتأمل فستجد أن ترك الواو أفاد أن هذه الصفات مجتمعة فى الموصوفين، وكأنها صفة واحدة، فذكر الواو بين الصفات يفيد أنهم كاملون فى كل صفة على حدة، وتركها يفيد أنها مجتمعه فيهم . . » (٤)

وعلى هذا فقول امرئ القيس:

مكـر مفـر مقبـل مدبـر معـاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

يفيد أن هذه الصفات قد اجتمعت فى الجواد فى وقت واحد من غير أن تكون مستقلة متغايرة، ولو أنه قال: مكر ومفر ومقبل ومدبر، لما صح أن يقول معاً . . وكذا القول فى الآية الكريمة «ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة» . أى: تخفض وترفع فى زمن واحد، ويقع منها الفعلان معاً، ولو قيل فى غير القرآن خافضة ورافعة، لم يفد ذلك . . وكذا قولنا: فلان كاتب شاعر يخالف: فلان شاعر وكاتب، فالأول أفاد اجتماع الكتابة والشعر، والثانى أفاد كمال اتصافه بكل صفة على حدة . .

وكما تقع الواو بين الصفات، فقد تأتى بين الصفة والموصوف وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكان الحال مفرداً أم جملة . . انظر إلى قوله

(١) سورة آل عمران: ١٦، ١٧ .
(٢) سورة الأحزاب: ٣٥ .
(٣) الكشاف ١ / ٢٦٣ .
(٤) الكشاف ٢ / ٢٤٦ .

تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1]، فالفرقان صفة للكتاب، وقد عطفت عليه بالواو، وأفاد هذا العطف الجمع بين كونه كتاباً منزلاً، وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل، وخذ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]، فضياءَ وذكراً: حال متعددة للفرقان، وقد جاءت بالواو لتفيد الجمع بين كونه فرقاناً وضياء وذكراً . . [3] .

واقرأ قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم..﴾[4]، فقد عطفت الواو جملة الصفة «ثامنهم كلبهم» على الموصوف «سبعة» وهذا العطف أفاد - كما ذكر الزمخشري - شدة لصوق الصفة بالموصوف، وهذا يؤذن بثبات تلك الصفة وصوابها، ولذا قال بعد القولين الأولين «رجماً بالغيب»، وجاء عقب هذا القول: «ما يعلمهم إلا قليل .» [5]

وإفادة الواو لشدة لصوق الصفة بالموصوف، يكمن وراء ما تفيده من معنى التغاير، فكأن القائلين قد قالوا قولين، قالوا: سبعة وقالوا: ثامنهم كلبهم، ويتضح هذا في قولنا: جاء محمد غلامه يسعى بين يديه، وجاء محمد وغلامه يسعى بين يديه، فالأول إخبار عن مجئ هذا حاله، والثاني إخبار عن المجئ وعن حالهُ وكأنك بعد الإخبار بالمجئ استأنفت إخباراً آخر عن حال المجئ[6] .

وتأمل الآيتين: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ..﴾[7]، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ..﴾[8]، تجد أن الكتاب مما يمكن إخفاؤه وإنكاره، أما المنذرون فلا يتأتى إنكارهم، ولهذا جاءت الواو بين الموصوف وجملة الصفة في الآية الثانية لتؤكد لصوق الصفة بموصوفها، دفعاً لما قد يقع من إنكار، وجاءت الآية الأولى بدون الواو، لأنها لا تحتاج إلى هذا التأكيد، وجاء التأكيد - كما قلنا - من إفادة الواو لمعنى التغاير، وكأنك

---

(١) سورة البقرة: ٥٣ .
(٢) سورة الأنبياء: ٤٨ .
(٣) الدلائل ص ١٣٣ والكشاف ١ / ١٠٤ .
(٤) سورة الكهف: ٢٢ .
(٥) الكشاف ٢ / ٥٥٧ .
(٦) الدلائل ص ١٤١ .
(٧) سورة الشعراء: ٢٠٨ .
(٨) سورة الحجر: ٤ .

تبتدىء بها إخباراً آخر، ففرق بين أن تذكر قرية هذه الصفة جزء منها، وأن تذكر قرية ثم تبتدىء وصفاً لها.[1]

وقد زعم بعض البلاغيين أن الواو لا تدخل بين الصفة والموصوف فلا تقول: جاء زيد والكريم، على أن الكريم هو زيد، لأنه يستحيل عطف الشيء على نفسه..»[2] ... ولا يخفى عليك الآن رد هذا الزعم، كما لا يخفى عليك أن عطف الصفة على الموصوف، ليس عطفاً للشيء على نفسه، بل إن الصفة تفيد معنى آخر ومرجع ذلك إلى ما تفيده الواو من معنى التغاير ...

هذا وعندما ننظر فى المفردات المعطوفة، وترتيبها فى الكلام وتقديم ما قدم منها وتأخير ما أخر، نجد كثيراً من الدقائق واللطائف والاعتبارات البلاغية.. تأمل قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[4]، تجد أن عطف الوالدين، الأرحام على ضمير لفظ الجلالة يدعو إلى الاهتمام بهم ويلفت وينبه إلى ما ينبغى لهم من حسن الرعاية، وجميل المعاملة، فلا يخفى عليك ما بين المعطوف والمعطوف عليه من تباعد وتباين وفى اقترانه به تشريف وتعظيم وحث على مزيد من البر والعطف ...

وترى فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ..﴾[5]، تقديماً للأنعام على الأناسى؛ لأن فى حياة الأنعام حياة للأناسى.. وقد يكون فى التقديم تعظيم وتشريف للمقدم كما فى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ..﴾[6]، وقوله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ..﴾[7].

وقد يكون التقديم للترقى من العدد القليل إلى العدد الكثير كما فى قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ..﴾[8]، وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ..﴾[9]، أو للتدنى من الكثير إلى القليل كما فى قوله تعالى:

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٣ .
(٢) الطراز ٢ / ٣٤ .
(٣) سورة النساء : ١ .
(٤) سورة الإسراء : ٢٣ .
(٥) سورة الفرقان : ٤٩ .
(٦) سورة النساء : ٦٩ .
(٧) سورة التوبة : ١٠٠ .
(٨) سورة النساء : ٣ .
(٩) سورة فاطر : ١ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾[1]، أو مراعاة للتقديم الزمنى كقوله عز وجل: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ..﴾[2]، إلى غير ذلك مما يكمن وراء عطف المفردات من دقائق وأسرار .

❑ ❑ ❑

الوصل والفصل بين الجمل:

عرفنا فيما سبق أن الجمل نوعان: جمل لها محل من الإعراب، وجمل لا محل لها من الإعراب، كما عرفنا أن الجمل التى لها محل من الإعراب حكمها حكم المفرد، لأنها تقع موقعه وتأخذ حكمه الإعرابى، فالعطف عليها يكون بمثابة العطف على الفرد . .

يقول عبد القاهر: «الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين، أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك، كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد، كان عطف الثانية عليها جارياً مجرى عطف المفرد وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهراً، والإشراك بها فى الحكم موجوداً .»[3] . . . وهذا لا يعنى أن الجمل التى لها محل من الإعراب لا تخضع لما تخضع له الجمل الأخرى التى ليس لها محل من الإعراب بل هى خاضعة لما تخضع له وما يجرى على هذه من أحكام الفصل والوصل يجرى على تلك، بالإضافة إلى أن الجمل التى لها محل من الإعراب تختص بخضوعها لهذا الحكم الظاهر وهو وقوعها موقع المفرد، فإذا أردنا إشراك الجملة الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى عطفنا بالواو مع مراعاة المناسبة أو الجهة الجامعة التى تسوغ العطف، وإذا لم نرد التشريك فى الحكم الإعرابى يمتنع العطف . . . فتعالوا ننظر فى هذا الحكم الذى تختص به الجمل التى لها محل من الإعراب، ثم نمضى بعد ذلك إلى مواضع الفصل والوصل التى تخضع لها جميع الجمل . . .

متى توصل الجمل التى لها محل من الإعراب ؟ ومتى يتعين فصلها ؟ :- توصل الجمل التى لها محل من الإعراب، إذا قصد تشريك الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى،

(١) سورة سبأ : ٤٦ . (٢) سورة التوبة : ١١١ .

(٣) دلائل الإعجاز ١٤٦ .

وكان بينهما مناسبة، أى: جهة جامعة تسوغ العطف، كما فى قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، فجملة «يقبض» وقعت خبراً للفظ الجلالة، وجملة «يبسط» عطفت عليها بالواو؛ لأن القصد إشراك الثانية للأولى فى الحكم الإعرابى وهو وقوعها خبراً للمبتدأ، وبين الجملتين تناسب، إذ المسند إليه فى كل منهما واحد وهو الله عز وجل، وبين المسندين «يقبض ويبسط» تضاد فهما متناسبان، وسر بلاغة الوصل فى هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر، وأنه بيده الأمر وإليه المرجع، فالجمع بين القبض والبسط مما يحقق ذلك .

ولو ترك العطف فقيل فى غير القرآن: والله يقبض يبسط بدون الواو، لكان ذلك موهما أن قولنا: «يبسط» رجوع عن قولنا: يقبض وإبطال له، ومما يبرز تلك العظمة أيضاً: عطف جمله «وإليه ترجعون» على جملة «والله يقبض ويبسط» لما بينهما من التوسط بين الكمالين وعدم المانع من العطف - الآتى بيانه - وانظر إلى ما أفادته «الفاء» فى قوله «فيضاعفه له» من الترتيب والتعقيب . . . نظم بديع ودقائق عجيبة، المتصدق المنفق فى سبيل الله كأنه يقرض الله قرضاً حسناً، والله عز وجل يعجل له الثواب بل ويضاعفه له أضعافاً كثيرة، والذى يبادر بمضاعفة الثواب هو الله القادر . . الذى يقبض ويبسط وإليه المرجع والمآل . . . حث على البذل والعطاء وتأكيد للإثابة ما بعده تأكيد . .

ومن أمثلة العطف لقصد التشريك فى الحكم الإعرابى قولنا: «فلان يعطى ويمنع ويضر وينفع ويأمر وينهى ويحسن ويسىء ويحل ويعقد . . . » تجد أن الواو قد أضفت على المعنى قوة وظهوراً حيث أوجبت للمسند إليه الفعلين معاً وجعلته يفعلهما جميعا، ولو قلت: يعطى يمنع . . يضر ينفع، من غير واو لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون رجوعاً عن الأول وإبطالاً له . . وغالباً ما تستعمل مثل هذه الأساليب فى مقام المدح الذى يحتاج إلى المبالغة وإظهار قوة الفعل[2] . . .

تأمل قول أبى تمام مادحاً:

لهان علينـا أن نقـول وتفعـلا ونذكر بعض الفضل منك وتُفضلا

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ١٤٨ .

تجد أن جملة: «أن نقول» قد وقعت فاعلاً للفعل «هان» ثم اشتركت معها بقية الجمل فى هذا الحكم فعطفت بالواو، ولو أردت إسقاط هذه الواوات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ لأنك تجد المعنى يمتنع عليك، حيث أراد أبو تمام أن يجمع بين مدحه وكرم الممدوح وبين ذكره لبعض فضائل الممدوح وزيادة الممدوح فى العطاء . . . فأى واو تطاوعك فى الذهاب دون أن يضيع المعنى الذى قصد إليه الشاعر . ؟

وتأمل قول الآخر:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

تجده قد قصد إلى الجمع بين الإهانة والإكرام وبين كف الأذى والإيذاء، ولا يخفى عليك مدى الترابط بين هذه الجمل، وأنك لو حاولت نزع جملة منها لا ختل المعنى وضاع غرض الشاعر . .

ومن ذلك قول المتنبى:

وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب

فقد اشتركت الجملتان: «لا يناله نديم» و«لا يفضى إليه شراب» فى وقوعهما صفة لموضع، ومقام المبالغة فى كتمان السر يقتضى هذه المشاركة . . .

ومثله قول المعرى:

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغباً أكل المرار

اشتركت الجملتان: «أعبد كل حر» و«علم ساغباً أكل المرار» فى وقوعهما خبراً للمبتدأ «حب العيش»، ولو أسقطنا الجملة الثانية لضاع غرض المعرى، حيث أراد: أن حب الحياة حباً شديداً والجرى وراء متاع الدنيا قد جعل الحر عبداً واضطر الإنسان إلى أن يحتمل الأذى، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بالجملتين معاً . . .

وخذ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[1]، تجد الجملتين: «لا يستطيعون نصركم» و «لا أنفسهم ينصرون»، قد وقعتا خبراً للمبتدأ، والجمع بينهما يحقق ما تهدف إليه الآية الكريمة من تحقير هذه المعبودات،

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٧ .

وهذا لا يتم إلا بالجملتين معاً كما لا يخفى . . إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التى يكون هدف المتكلم من ورائها اشتراك الجملتين فى الحكم الإعرابى . . كقولك : على يقول ويكتب . . . ألم تعلم أنى أحترمك وأقدرك . . . إنى أحسنت وأسأت . . يكفيك ما قلت وسمعت . . أيحسن أن تنهى عن شيء وتأتى مثله . . ولا يخفى عليك وجه المناسبة بين الجملتين فى كل ما مر من شواهد وأمثلة ، فإذا انعدمت المناسبة بين الجملتين امتنع اقترانهما ، فلا تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، حيث لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل السمك . . . ولهذا عيب قول أبى تمام :

لا والذى هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

سواء أجعل من عطف المفرد على المفرد أى : عطف كرم أبى الحسين على مرارة النوى أم عن عطف الجمل أى : عطف جملة : «أن أبا الحسين كريم» على جملة : «أن النوى صبر» ووقوعهما مفعولاً به لقوله «عالم» . . وقد مر بنا البيت فى عطف المفردات ووقفنا على دفاع من حاول الدفاع عن أبى تمام وأن يلتمس وجهاً للمناسبة بين كرم الممدوح ومرارة الفراق . . .

وأذكرك هنا بما قلته هناك من أن المناسبة والتلاؤم والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف ، فكما لا يجوز أن تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، فإنه يمتنع أيضاً قولك : هو يكتب الشعر يأكل السمك ، بدون واو وكذا يمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم الممدوح بلا عطف . . . فلا وجه إذاً لما صنعه البلاغيون من قصرهم المناسبة على المفردات والجمل المعطوفة ، لأن المناسبة بين المفردات أو الجمل مطلوبة عند اقترانها بالعطف أو بدون العطف . .

هذا وقول البلاغيين : «إن قصدت التشريك فى الحكم الإعرابى عطفت» [1] معناه : جواز العطف وأنه هو الغالب والأكثر ولا يفهم منه وجوب العطف ، لأن مرادهم أنك إذا لم تقصد التشريك فى الإعراب يمتنع العطف حتى لا يتوهم خلاف المراد ، ومما يرجح هذا الزعم قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ..﴾[2] ، حيث

---

(١) الإيضاح ٢ / ٦٣ .

(٢) سورة الرحمن : ١-٤ .

اشتركت الجمل الثلاث فى وقوعها خبراً للمبتدأ، وقد جاءت مفصولة كما ترى . . . ومن ذلك قولنا: فلان أغناك بعد فقر . أعزك بعد ذل . كثرك بعد قلة . فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد، فماذا تنكر من إحسانه . . ؟

ومنه قول أبى هلال:

ووجـه تشـرب مـاء النعيـم　　فلـو عصـر الحسـن منـه انعصر
يمــر فأمنحــه ناظــرى　　فينشــر وردا عليــه الخفــر

ومجىء هذه الجمل المشتركة فى الحكم الإعرابى منقطعة يشعر بأن كل واحدة منها تنهض بالغرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها [1] . . .

- وكما قلت - فإن الغالب والأكثر أن تجىء الجمل التى قصد تشريكها فى الحكم الإعرابى معطوفة، على نحو ما مر بنا من شواهد، بل أحياناً نجد أن هذا العطف واجب قد تعين وأن تركه يوهم خلاف المراد - كما رأينا فى قوله تعالى: «واللّه يقبض ويبسط» وقولهم «فلان يعطى ويمنع ويحل ويعقد» . .

وقول الشاعر:

لا تطمعـوا أن تهينونا ونكرمكـم　　وأن نكـف الأذى عنكـم وتؤذونا

فترك العطف فى مثل هذه الشواهد يوهم إبطال الجملة الأولى والرجوع عنها، ومن ثم وجب وصلها حتى لا يتوهم خلاف المراد . .

فإذا لم يقصد تشريك الجملة الثانية للأولى فى الحكم الإعرابى تعين فصلهما، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد، تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ..﴾[2]، تجد أن جملة: «اللّه يستهزىء بهم»، قد فصلت عن جملة: «إنا معكم» حيث لم يقصد التشريك بينهما فى الحكم الإعرابى، فجملة: «إنا معكم» مقول القول، وجملة «اللّه يستهزىء بهم»، إخبار من اللّه عز وجل، ولو وصلت بالأولى لأدى هذا

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٠٤ .

(٢) سورة البقرة: ١٤ ، ١٥ .

الوصل إلى توهم أنها من مقول المنافقين، فدفعاً لهذا التوهم تعين الفصل بينهما . . . أما فصل: «إنا معكم» عن «إنما نحن مستهزءون»، فلكمال الاتصال الآتى بيانه، وكذا لا يجوز عطف: «اللّه يستهزىء بهم» على جواب الشرط: «قالوا»، لأن استهزاء اللّه بهم غير مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم . . . ولاحظ الوصل بين جملتى: «يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم» لوقوعهما خبراً للفظ الجلالة، فالعطف لقصد التشريك فى الحكم .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ .أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ..﴾(١)، فجملة: «ألا إنهم هم المفسدون» لم يقصد تشريكها فى الحكم الإعرابى لجملة: «إنما نحن مصلحون»، لأنها ليست من مقولهم بل هى من كلام رب العزة، إخبار منه تعالى، ولذا وجب الفصل بينهما حتى لا يتوهم غير المراد . .

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾(٢)، فقد فصل: «ألا إنهم هم السفهاء» عن: «أنؤمن كما آمن السفهاء» حتى لا يتوهم أنها من كلام المنافقين، إذ هى من كلام رب العزة، إخبار منه تعالى، والوصل يوهم أنها من مقول المنافقين، وهو مالا يخفى فساده . . . ولاحظ فى الآيتين الوصل بين جملتى: «إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» وبين جملتى: «إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»، والوصل بينهما للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع من العطف - كما سنرى فى مواضع الوصل . .

هذا وقصد التشريك فى الحكم الإعرابى أو عدم قصده وإن كان ظاهراً بيناً فى كثير من التراكيب، إلا أنه قد يدق ويلطف بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر . . انظر فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ..﴾(٣)، فقد يقول صاحب النظرة العاجلة إن الجمل: «رب إنى وضعتها أنثى . . . وليس الذكر كالأنثى، وإنى سميتها مريم، وإنى أعيذها» من مقول مريم، أما جملة: «واللّه أعلم بما وضعت»،

---

(١) سورة البقرة: ١١، ١٢ . (٢) سورة البقرة: ١٣ .

(٣) سورة آل عمران: ٣٦ .

فمن كلام اللّه تعالى وقد جاءت موصولة بمقولات مريم، ولكن عندما يتأنى هذا العاجل ويتأمل يتضح له أن هذه الجملة: «واللّه أعلم بما وضعت» جملة اعتراضية وليست معطوفة على مقولات مريم، وهنالك قراءة بضم تاء: «وضعت» وعلى هذه القراءة تكون الجملة من مقولات مريم، ويكون فى الترتيب التفات من الخطاب فى «رب» إلى الغيبة فى: «واللّه» ثم التفات ثان إلى الخطاب فى: «وإنى أعيذها بك . . .»، ووراء هذا الالتفات سر بلاغى دقيق وهو الإشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة وكمال علمه تعالى ثم إلى قربه من عباده فهو أقرب إليهم من حبل الوريد، ولذا عندما دعت مريم خاطبت: «رب إنى . . . وإنى أعيذها بك وذريتها . .» وعندما أخبرت عن علمه، التفتت إلى الغيبة: «واللّه أعلم بما وضعت» ففى هذا الالتفات إنباء ببعد المنزلة وعلو المكانة وكمال علم اللّه تبارك وتعالى.

وخلاصة القول أن الجمل التى لها محل من الإعراب إذا قصد إشراكها فى الحكم الإعرابى وصلت، وقد ترد نادراً بلا وصل . . . وإذا لم يقصد التشريك وجب فصلها، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد . . وهذا الحكم يختص كما هو واضح بالجمل التى لها محل من الإعراب، ثم هى تخضع لأحكام فصل ووصل الجمل التى ليس لها محل من الإعراب، والتى سنتحدث عنها الآن.

مواضع الفصل:

ذكر البلاغيون أن الفصل بين الجمل ينحصر فى خمسة مواضع هى:

١ - كمال الاتصال: وهو أن تتفق الجملتان فى الإنشائية أو الخبرية لفظاً ومعنى أو معنى فقط، ويكون بينهما من الاتصال والاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو، لأن العطف وصل خارجى، وهذه الجمل قد صار ما بينها من التلاحم والاتصال والترابط أقوى وأشد من الربط الخارجى، ولذلك ينبغى أن نقول: ترك العطف بين هذه الجمل لقوة اتصالها وشدة ترابطها، ولا يقال: فصل بينها، وترجع قوة اتصال تلك الجمل وشدة ترابطها إلى أمور ثلاثة: -

الأول: أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيداً لفظياً أو معنوياً انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[1]، تجد أن الجملة الثانية: «أمهلهم رويداً»، توافق الجملة

(١) سورة الطارق: ١٧ .

الأولى فى اللفظ والمعنى وأنها توكيد لفظى لها، ولذا صارت الصلة قوية بين الجملتين فلا تحتاج إلى ربط بالواو؛ لأن التوكيد والمؤكد كالشىء الواحد، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشىء على نفسه .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، تجد أن الجملة الأولى: «ذلك الكتاب» أفادت: أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذى بلغ الغاية القصوى فى كمال الهداية وترجع هذه الإفادة إلى تعريف الطرفين: تعريف المسند إليه باسم الإشارة الدال عل البعيد «ذلك» إشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة، وتعريف المسند بالألف واللام «الكتاب»، . . . وجملة «لا ريب فيه» تفيد نفى الريب عنه وأنه لا يتطرق إليه شك، وهذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة الأولى، إذ يلزم من بلوغ القرآن الكريم درجة الكمال ألا يكون محلاً للريب والشك، فجاءت جملة «لا ريب فيه» مقررة لهذا المعنى، ومؤكدة له . . وجملة «هدى للمتقين»، تفيد بلوغ القرآن فى الهداية مبلغاً لا يدرك كنهه، حتى كأنه هداية محضة، وهذا مأخوذ من تنكير «هدى» الذى يدل على التعظيم، ومن أنه لم يقل «هاد»، بل «هدى»، وهدى خبر لمبتدأ محذوف أى هو هدى، فهو الهداية نفسها، ولا يخفى عليك تأكيد هذه الجملة لمعنى الجملة الأولى: «ذلك الكتاب» . . . ولذا ترك العطف بين هذه الجمل لأن بينها اتصال قوى فهى لا تحتاج إلى ربط بالواو . .

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[2]، فجملة «إنما نحن مستهزءون» مؤكدة لجملة «إنا معكم»؛ لأنهم ما داموا مستهزئين بالإسلام وأهله، فهم مستمرون فى معية شياطينهم . . . ولاحظ أن الجملتين قد وقعتا مقولاً للقول وهذا يؤكد ما قلناه لك من أن الجمل التى لها محل من الإعراب تخضع لمواضع الفصل والوصل التى تخضع لها الجمل التى ليس لها محل . . .
وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا..﴾[3]، تجد أن جملة: «لا

---

(١) سورة البقرة: ٢ . (٢) سورة البقرة: ١٤ .
(٣) سورة البقرة: ٦-٩ .

يؤمنون» مؤكدة لجملة: «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم»، لأن معنى الثانية: يستوى عندهم الإنذار وعدمه، وجملة: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم . . . » تأكيد ثان أبلغ من التوكيد الأول لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان فى غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة، ولذا ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينها من كمال الانصال . . كما تجد أن جملة: «يخادعون الله والذين آمنوا» مؤكدة لجملة «آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين» . لأن من يضمر خلاف ما يظهر فإنه يخادع . . وانظر فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً . .﴾(١)، تجد أن جملة «كأن فى أذنيه وقراً» مؤكدة لجملة: «كأن لم يسمعها»، لأن معنى «كأن لم يسمعها»: أنه لم يسمعها مصادفة أو قصداً لعدم سماعها، ومعنى الثانية: أنه لم يسمعها لفساد سمعه، فلما كانت الثانية مقررة مؤكدة للأولى ترك العطف لما بينهما من كمال الاتصال . . .

هذا - وكما ذكرت لك - أن الجملة الثانية المؤكدة للأولى، إما أن تكون بمثابة التوكيد اللفظى، وهو ما يكون مضمون الجملة الثانية فيه مؤكد لمضمون الجملة الأولى لا تفاق مفهوميهما كما رأينا فى الآية الكريمة: «فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» . وكما فى الآية الكريمة: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» فجملة «هدى للمتقين» يتفق مفهومها مع جملة: «ذلك الكتاب» . لأن الكمال فيهما كمال فى الهداية - كما رأينا -، وإما أن تكون الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوى وهو أن يختلف مفهوم الجملتين، ويكون معنى الثانية مقرراً لمعنى الأولى على نحو ما رأينا فى الشواهد المذكورة، وهذا يعنى أن الجملة الثانية تتضمن معنى جديداً، ولكنه يؤكد معنى الأولى . . . تأمل الآية: «كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً»، تجد أن الجملة الثانية تحمل معنى جديداً يخالف معنى الأولى، ولكنه يؤكده ويقرره . . وتأمل الآية: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» تجد أن جملة: «لا ريب فيه» تحمل معنى جديداً وهو نفى الريب عن القرآن، وهذا المعنى يؤكد ويقرر معنى الجملة الأولى: «ذلك الكتاب» . وانظر فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . .﴾(٢)، وتأمل شدة التلاحم وقوة الاتصال بين الجمل فى هذا القول الكريم،

---

(١) سورة لقمان : ٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

ثم لاحظ أن كل جملة تحمل معنى جديداً يغاير معنى الأخرى، ولكنها تصب جميعاً فى جهة واحدة، وتهدف إلى غاية واحدة، ألا وهى توكيد الوحدانية .[1]

ومن أقوالهم فى هذا الصدد قول المتنبى :

وما الدهـر إلا من رواة قصائـدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فالشطر الثانى لم يعطف على الشطر الأول، لأنهما قد اتحدا فى المعنى واللفظ، فلا حاجة إلى وصلهما بالواو لقوة الرابطة وشدة الاتصال بينهما . . . وقول الأحوص :

إذا رمـت عنهـا سلـوة قال شافـع من الحـب ميعـاد السلو المقابـر

ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا سريرة حب يـوم تبلـى السرائـر

فجملة : «ستبقى لها . . . » مؤكدة ومقررة لجملة : «ميعاد السلو المقابر» ولذا ترك العاطف، لأن شدة الترابط وكمال الاتصال بينهما لايحوجان إليه . .

الثانى : أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل الكل أو البعض أو بدل الاشتمال، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[2]، فصلت الجملة الثانية : «أمدكم بأنعام . . . » عن الأولى : «أمدكم بما تعلمون»، لأن الثانية بمثابة بدل البعض من الأولى، حيث إن النعم الأربع المذكورة بعض من النعم التى يعلمونها، فبين الجملتين ترابط قوى وكمال اتصال، لا تحتاج معه إلى ربط بالواو . . ومثله قوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[3]، فقوله : «يفصل الآيات» بدل بعض من قوله : «يدبر الأمر»، لأن تدبير الأمر يشمل تفصيل الآيات وغيره . . وخذ قوله تعالى : ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[4]، تجد أن الجملة الثانية بمثابة بدل الكل من الجملة الأولى . . وقوله عز وجل : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[5]، فصلت الجملة الثانية «اتبعوا من لا يسألكم أجراً» عن الأولى : «اتبعوا المرسلين» لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى، إذ المراد من الأولى حمل المخاطبين على اتباع الرسل،

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ٣١٥ .

(٢) سورة الشعراء : ١٣٢-١٣٤ .

(٣) سورة الرعد : ٢ .

(٤) سورة المؤمنون : ٨١ ، ٨٢ .

(٥) سورة يس : ٢٠ ، ٢١ .

والجملة الثانية أوفى بهذا، لأن معناها: لاتخسرون شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم، فيكون لكم جزاء الدنيا وجزاء الآخرة . . .

ولا يخفى عليك أن الجملة الثانية التى هى بمثابة البدل أوفى بتأدية المعنى من الأولى فقوله: «أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون» أوفى بتأدية المعنى المراد من قوله: «أمدكم بما تعلمون» حيث دلت على المعنى بالتفصيل من غير إحالة إلى علمهم وهم المعاندون . . . وانظر فى قول القائل:

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن فى السر والجهر مسلماً

تجد أن قوله: «لا تقيمن» بدل اشتمال من قوله «ارحل»، وقوله «لا تقيمن» أوفى بتأدية المراد، إذ المقصود: إظهار شدة الكراهة لإقامته بسبب خلاف سره العلن، وقوله: «لا تقيمن» يحقق ذلك، لأنك إذا قلت: لا تقم عندى، لم تقصد كفه عن الإقامة فحسب، وإنما تقصد إظهار الكراهة لإقامته . .

الثالث: أن تكون الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى، كما فى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾[1]، ففى الجملة الأولى: خفاء وإبهام، وفى الثانية بيان وإيضاح له، والبيان والمبين كالشىء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال . . . وتكمن بلاغة هذه الصورة فى أن للبيان بعد الإبهام وقعاً فى النفس وأثراً حسناً، فالشىء إذا أبهم تطلعت إليه النفس واشتاقت لبيانه، فإذا ما جاء البيان صادف نفساً يقظة متطلعة، فيتمكن فيها فضل تمكن . . .

ومن شواهده كذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟﴾[2]، فجملة الاستفهام بيان لقوله: «اذكروا نعمة اللّه عليكم» . . . وقوله عز وجل ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا: مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[3]، فجملة: «قالوا: ما أغنى عنكم»، بيان لجملة «نادى أصحاب الأعراف» . . وانظر فى قوله لبيد:

(١) سورة طه : ١٢٠ .
(٢) سورة فاطر : ٣ .
(٣) سورة الأعراف : ٤٨ .

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

يتآكلون مغالة وخيانة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

تجد أن قوله: «يتآكلون مغالة وخيانة» بيان لقوله: «بقيت فى خلف كجلد الأجرب».

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ..﴾[1]، تجد أن جملة: «يذبحون أبناءكم» والجملة المعطوفة عليها: «ويستحيون نساءكم» بيان وإيضاح لجملة: «يسومونكم سوء العذاب» ولذا لم يعطفا عليها بالواو لما بينهما من شدة ترابط وقوة تلاحم وكمال اتصال . . .

ثم انظر فى قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[2]، تجد أن الواو فى هذه الآية من سورة إبراهيم قد وصلت جملتى: «يسومونكم سوء العذاب»، «يذبحون أبناءكم»وذلك لأن المقام مقام تذكير بنعم اللّه تعالى . . . «اذكروا نعمة اللّه عليكم . . . »، وهذا يقتضى تعداد النعم، فجعل الإنجاء من سوء العذاب نعمة، وإنجاء الأبناء من التذبيح نعمة أخرى، وكأن التذبيح جنس آخر لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه، ثم جاء إنجاء النساء من الاستحياء نعمة ثالثة، أما فى سورة البقرة فليس المقام مقام تذكير بالنعم، بل هو سرد للقصة وعرض لها وهذا قد اقتضى أن تكون الجملة الثانية وما عطف عليها: «يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم»، بياناً وتفسيراً للجملة الأولى: «يسومونكم سوء العذاب» وليستا جنسين آخرين مغايرين لسوء العذاب . . .

يقول الزمخشرى: «فإن قلت: فى سورة البقرة «يذبحون» وفى الأعراف: «يقتلون» وههنا: «ويذبحون»مع الواو، فما الفرق ؟ قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر . . »[3]

---

(١) سورة البقرة: ٤٩ .

(٢) سورة إبراهيم: ٦ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٦٨ .

وهذا هو شأن الواو عندما تأتى بين الجمل التى بينها كمال اتصال وقوة ترابط ، لأن ما فيها من معنى التغاير الذى لا يبرحها ينعكس على هذه الجمل فيوهم أنها معان متمايزة ومختلفة ، ووراء ذلك تكمن الأسرار والدقائق اللطيفة . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1] ، ثم إلى قوله عز وجل فى نفس السورة عن قوم شعيب : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2] ، تجد أن الواو قد ذكرت بين جملتى : «إنما أنت من المسحرين» ، «ما أنت إلا بشر مثلنا» فى مقالة أصحاب الأيكة لشعيب ، وتركت فى مقالة ثمود لصالح ، ويعلل الزمخشرى ذلك بقوله : «فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود ؟ ، قلت : إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم : التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم . . »[3] . . . وكأن أصحاب الأيكة أرادوا أن يعددوا فى مقالتهم الأسباب المنافية للرسالة ، ولذا أضافوا : «وإن نظنك لمن الكاذبين» ، فصارت الأسباب ثلاثة : كونه مسحراً وكونه بشراً وكونه من الكاذبين ، أما ثمود فكأنهم لم يقصدوا تعداداً لهذه الأسباب ولذلك ذكروا سبباً واحداً وهو كونه مسحراً ثم قرروه بكونه بشراً . . . وخذ قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[4] ، . . وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[5] ، وتأمل تجد أن جملة : «ونجيناهم من عذاب غليظ» ، مؤكدة ومقررة للجملة قبلها : «نجينا هوداً . . . » ، وكذا جملة : «وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً» مؤكدة لقوله : «أخذنا من النبين ميثاقهم . . . » ، فبين الجملتين كمال اتصال ، وعلى الرغم من ذلك لم تترك الواو ، بل جئ بها لغرض لطيف وسر دقيق ، وهو التنويه بشأن الميثاق ، والتفخيم والتهويل من شأن العذاب ، ولذا وصف كلا منهما بالغلظ ، فالعطف بالواو مع الوصف بالغلظ يوهم أن الميثاق المأخوذ من النبيين صار كأنه ميثاق آخر مغاير للأول ، وأن العذاب الذى نجى منه هود

(١) سورة الشعراء : ١٥٢ ، ١٥٣ .
(٢) سورة الشعراء : ١٨٥ - ١٨٧ .
(٣) الكشاف ٣ / ١٢٧ .
(٤) سورة هود : ٥٨ .
(٥) سورة الأحزاب : ٧ .

ومن معه صار كأنه عذاب آخر غير الأول وفى هذا ما ينبىء بعظم الميثاق ويومىء إلى هول العذاب وفظاعته . . وانظر فى قول الشاعر :

أبنى إن أهلــك فإنـــى ... قد بنيت لكم بنية
وجعلتكم أبنـــاء سادا ... ت زنادكـم ورية

تجد أن جملة : «جعلتكم أبناء سادات»، بيان لجملة : «بنيت لكم بنية» وقد وصلهما الشاعر بالواو التى تقتضى المغايرة، وذلك لتميز المعنى الذى دخلت عليه الواو فى باب الشرف والسيادة، وكأنه يريد أن يجعله فوق ما ذكره فى البيت الأول ومتميزاً عنه . . .

ثم تأمل الآيات الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١) . . ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ...﴾(٢) . ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ...﴾(٣)، . . ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤)، . . ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥)، فلا يخفى عليك مجىء الواو فى هذه الآيات بين جمل بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكمال اتصال، وأن هذا المجىء ينبىء بمعان دقيقة وأسرار لطيفة فتكرار الأمر بالتقوى وعطف أحدهما على الآخر يؤذن بأن الأمر الثانى غير الأول، ووراء ذلك إعلاء لشأن التقوى وحث عليها . . وكذا وصل الأمرين بالذكر «فاذكروا اللّه . . . واذكروه . . »، إعلاء لشأن الذكر وحض عليه، وكأن الأمر الثانى غير الأول . . وفى عطف الاصطفاء على الاصطفاء : «إن اللّه اصطفاك وطهرك واصطفاك . . . » إيهام بأنهما متغايران وكأن اللّه اصطفاها أولاً ثم رجع فاصطفاها ثانياً، وفى هذا مزيد تكريم، ومثله عطف الفلاح على الهدى . . «أولئك على هدى . . . وأولئك هم المفلحون»، وفى آية الرعد أبرزت الواو ثلاث صور متغايرة للذين كفروا، فى كل صورة منها من البشاعة والشناعة ما يجعلها شيئاً قائماً برأسه، مستقلاً عن غيره(٦) . .

وهكذا يتضح لنا أن مجىء الواو بين الجمل التى قد اشتد ترابطها وقوى تلاحمها وكمل اتصالها وراءه من الأسرار واللطائف مالا يخفى على المتأمل الواعى والناظر الدقيق . . .

(١) سورة الحشر : ١٨ .
(٢) سورة البقرة: ١٩٨ .
(٣) سورة آل عمران : ٤٢ .
(٤) سورة الرعد : ٥ .
(٥) سورة البقرة : ٥ .
(٦) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٢٢ وما بعدها .

٢ - كمال الانقطاع بلا إبهام : وهو أن يكون بين الجملتين تباين تام وانقطاع كامل ويرجع ذلك إلى اختلافهما إنشاء وخبراً لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط ، أو إلى فقدان المناسبة بينهما . . .

ويجب أن تعلم أن البلاغيين لا يجوزون بهذا تفكك الكلام وتنافر جملة وعدم ارتباط أجزائه وتباعد معانيه بحيث لا يضمه سياق ، ولا يجمعه قران ، هم لا يقصدون بكمال الإنقطاع جواز الجمع بين الجمل المتشاردة ، لأن هذه الجمل لا يضمها سياق واحد ، ولا يجمعها قران واحد سواء أعطفت أم لم تعطف ، وإنما يريدون به فقدان المناسبة الخاصة التى تسوغ العطف ، وتجوز الوصل . . وسيتضح لك هذا من خلال النصوص والشواهد .

ذكر البلاغيون أن كمال الانقطاع يتحقق فى ثلاث صور:

الصورة الأولى : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء ، لفظاً ومعنى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾[1] ، فالجملة الأولى : «لا تستوى الحسنة ولا السيئة» خبرية لفظاً ومعنى ، والجملة الثانية : «ادفع بالتى هى أحسن» ، إنشائية لفظاً ومعنى ، والفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود ، ولذا وجب الفصل بينهما . . ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[2] ، وقوله عز وجل : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾[3] ، ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[4] ، فقد فصل بين الجمل فى هذه الآيات الكريمة لاختلافها إنشاء وخبراً لفظاً ومعنى ، ولأن الفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود . . وانظر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[5] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[7] .

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ .
(٢) سورة الحجرات : ٩ .
(٣) سورة الأنعام : ١٠١ .
(٤) سورة الأنعام : ٩٩ .
(٥) سورة الأنعام : ١٥١ .
(٦) سورة التوبة : ١٠٣ .
(٧) سورة التوبة : ٨٤ .

تجد أن الجمل الخبرية: «نحن نرزقكم . . إن صلاتك سكن . . إنهم كفروا بالله . . » قد فصلت عن الجمل الإنشائية قبلها، وهذا الفصل إما أن يكون سببه كمال الانقطاع حيث اختلفت الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى، وإما أن يكون سببه شبه كمال الاتصال الآتى بيانه حيث وقعت الجملة الثانية جواباً لسؤال أثارته الأولى . .

ومن ذلك قول الشاعر:

وقـال رائدهم أرسوا نزاولها   فكل حتـف امرىء يجـرى بمقدار

فقد فصل جملة: «نزاولها» عن جملة: «أرسوا» لكمال الانقطاع أو لشبه كمال الاتصال، ومثله قولك: لا تدن من الأسد يأكلك، برفع «يأكل» . .

هذا ونرى كثيراً من الجمل التى اختلفت إنشاء وخبراً لفظاً ومعنى قد جاءت موصولة بالواو، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(١)، وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾(٢)، وقوله عز قائلاً: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ...﴾(٣)، وقوله عز من قائل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ . وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾(٤)، تجد أن الواو قد جاءت بين الجمل المختلفة إنشاء وخبراً لفظاً ومعنى . . ومن ذلك المثال المشهور: لا تأكل السمك وتشرب اللبن برفع «تشرب» وقولنا: باسم الله وصل اللهم على نبينا محمد، إلى غير ذلك . . وهذه الواو قد ذهب النحاة فى توجيهها إلى أنها «واو الاستئناف» وليست عاطفة للخبر على الإنشاء، حيث يذكر ابن هشام أن الواو فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾(٥)، وفى قولهم: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» وفى قولك: «دعنى ولا أعود»: للاستئناف، وليست للعطف إذ لو كانت للعطف للزم عطف الخبر على الأمر أو النهى . . . (٦)

---

(١) سورة الأنعام: ١٢١ .

(٢) سورة طه: ٨، ٩ .

(٣) سورة البقرة: ٢٤، ٢٥ .

(٤) سورة ص: ٢٠، ٢١ .

(٥) سورة البقرة: ٢٨٢ .

(٦) المغني ٢ / ٣٣ .

وذهب البلاغيون إلى أنها لعطف القصة على القصة أى لعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر . . . يقول الزمخشرى فى توجيه العطف فى قوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : «فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق ، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق» (١) وهذا هو معنى الاستئناف الذى ذكره النحاة ، فهو عطف لقصة على قصة ، أو بمعنى آخر : عطف مضمون كلام على مضمون كلام ، أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، سواء أجاءت هذه الواو بين خبر وإنشاء ، كما فى الشواهد المذكورة ، أم بين خبرين ، كقوله تعالى : ﴿. . ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٢) ، وقوله عز وجل : ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٣) .

وكما فى قول الشاعر :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى ... قضيته ألاّ يجور ويقصدُ

أم بين إنشاءين كقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ . وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٤) ، وقوله عز وجل : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ . . .﴾(٥) .

والفاء فى ذلك مثل الواو فى إفادة الاستئناف ، والفرق بينهما أن الواو لمطلق الجمع فهى تفيد جمع قصة إلى قصة ، أى : تضم جملاً مسوقة لغرض إلى جمل مسوقة لغرض آخر ، أما الفاء فترتب قصة على قصة ، أى ترتب مضمون كلام على مضمون كلام آخر . (٦)

---

(١) الكشاف ١ / ٢٥٣ .

(٢) سورة الحج : ٥ .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٦ .

(٤) سورة الأنعام : ٥٠ ، ٥١ .

(٥) سورة النساء : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٦) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٤٦ وما بعدها .

وخلاصة القول أن الواو عندما تذكر بين الخبر والإنشاء فهى إما واو الاستئناف التى تفيد عطف القصة على القصة - كما وضحنا -، وإما أن تكون عاطفة لجملة على جملة، ويكون فى الكلام حذف، والذى يحدد نوع الواو أهى عاطفة أم للاستئناف، إنما هو السياق ومقتضيات الأحوال . . انظر فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا﴾[1]، تجد أن الأمر «اتخذوا» مقول لقول محذوف والتقدير: وقلنا اتخذوا، فالواو عاطفة لجملة خبرية على أخرى مثلها . . . ومثله قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2]، أى: وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق . . وخذ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[3]، ؛فالأمر «اهجرنى» معطوف على محذوف والتقدير: فاحذرنى واهجرنى . . أى أن الواو وصلت الجملة الإنشائية بأخرى مثلها . .

الصورة الثانية: أن تختلف الجملتان إنشاء وخبراً معنى فقط وتتفقا لفظاً، كقولنا: مات فلان رحمه الله، وقال عمر رضى الله عنه، فجملة: «رحمه الله»، «رضى الله عنه» كل منهما خبرية لفظاً وإنشائية معنى، لأنهما دعائيتان، ولذا فصل بين كل منهما وبين الجملة السابقة لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء معنى فقط، ومن ذلك قول الشاعر:

ملكتــــه حبلــى ولكنــــه   ألقـــاه من زهـــد على غاربى

وقـــال: إنى فى الهوى كاذب   انتقـــم اللّـــه من الكـــاذب

فجملة: «انتقم الله . .» جملة دعائية فهى خبرية لفظاً إنشائية معنىً ولذا فصل بينها وبين جملة: «قال إنى فى الهوى كاذب»، ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال بتقدير: قلت، حيث تقع جملة «قلت: انتقم الله من الكاذب» جواباً لسؤال أثارته الجملة قبلها . .

هذا ويشترط للفصل ألا يوهم خلاف المراد كما فى الأمثلة المذكورة، فإن أوهم خلاف المقصود وجب الوصل كقولك لصديق لك: أشفى أخوك ؟ فيجيبك: لا وعافاك الله، وجب الوصل بين جملتى الجواب؛ لأن الفصل يوهم خلاف المراد، وهو أن الصديق يدعو عليك لا لك، وسيأتى إيضاح ذلك وبيانه . .

---

(١) سورة البقرة: ١٢٥ .   (٢) سورة الحج: ٢٢ .

(٣) سورة مريم: ٤٦ .

الصورة الثالثة : أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء لفظاً ومعنى ولكن يفقد الجامع بينهما ، أى لا توجد المناسبة المعينة الخاصة التى تصحح العطف ، وذلك نحو قول أبى العتاهية :

الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى اللّه رجا وخافا

فقد اتفقت الجملتان فى الخبرية لفظاً ومعنى ، ولكن لم توجد المناسبة التى تسوغ عطف الثانية على الأولى ، ولذا فصل بينهما ، ومثله قول الآخر :

إنما المرء بأصغريه كل امرىء رهن بما لديه

فلا يوجد الجامع الذى يصحح عطف الجملتين على الرغم من اتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى ولذا فصل بينهما فى البيت . . .

ويعنى البلاغيون بالجامع أو التناسب بين الجملتين ، أن يكون المسند إليه فى إحداهما بسبب من المسند إليه فى الأخرى وكذلك المسند ، هذا ما أجمع عليه البلاغيون ، والجمهور يرى أن تتوفر المناسبة أيضاً فى المتعلقات ، وسنفصل القول فى هذا عند حديثنا عن مواضع الوصل ، والذى نريد أن ننبه إليه الآن هو أن البلاغيين لا يعنون بفقدان الجامع جواز الجمع بين جمل شاردة متنافرة ، لا يتأتى أن يضمها سياق واحد ، وأن يعد الفصل بين تلك المتنافرات مبرراً لوضعها فى قران ، وجمعها فى سياق واحد ، بل إن مرادهم بفقدان الجامع : المناسبة الخاصة التى أشرنا إليها ، لا المناسبة العامة التى ينبغى توافرها بين الجمل سواء أعطفت أم لم تعطف ، انظر مثلاً إلى تلك الجمل : «سأل زكريا ربه أن يهبه ولياً يرثه واختلف النقاد فى شعر أبى تمام والضحك يبطل الصلاة ويشتد الحر صيفاً واليهود أعداء العرب» . . هذه الجمل لا تقال فى سياق واحد هكذا فهى فاسدة سواء أفصلت أم وصلت ، ولذا نبه البلاغيون إلى وحدة السياق وإلى مراعاة النظير ، وتقديم من يقول البيت وأخاه على من يقول البيت وابن عمه ، وذكروا حسن التخلص من غرض إلى آخر . . . فالمناسبة إذاً نوعان ، مناسبة خاصة وهذه إذا فقدت صح اقتران الجمل ولكنها تكون مفصولة لكمال الانقطاع وهو فقدان هذا الجامع الخاص ، ومناسبة عامة وهذه لا بد من وجودها بين الجمل الموصولة والمفصولة ، وإلا فسد الكلام . . . ومما فقدت فيه المناسبة الخاصة قوله تعالى : ﴿**الَّذين يُؤْمنُونَ بالْغَيْب وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ وَالَّذين يُؤْمنُونَ بمَا أُنزلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزلَ من قَبْلكَ وَبالآخرَة هُمْ يُوقنُونَ أُولَئكَ عَلَىٰ هُدًى مّن رَّبّهمْ وَأُولَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا**﴾[1] ، فقد فصل بين «الذين يؤمنون» و «إن الذين

---

(١) سورة البقرة : ١-٦ .

كفروا . . . » لعدم وجود المناسبة التى تسوغ العطف، أما المناسبة العامة التى تصحح جمع الجملتين فى سياق واحد فهى «التضاد بينهما» وهو رابط حى ومثير لما يتضمنه من التشويق إلى معرفة القصة الثانية، قصة الكفرة بعد الوقوف على قصة المؤمنين . . . ونظير الآية قوله تعالى: ﴿طسٓ تلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[١]، وخذ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[٢]، تجد أن الترابط قوى بين «الشمس والقمر بحسبان» وما قبله، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذى خلق الإنسان وعلمه البيان والذى أحكم حركة الشمس والقمر . . أما المناسبة الخاصة التى تسوغ العطف فهى غير موجودة ولذا فصل بين «الشمس والقمر بحسبان» وما قبلها . . إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة، والمناسبة العامة واضحة جلية . .

هذا - وكما ذكرت - أن الواو إذا وجدت بين جمل بينها كمال انقطاع، فهى واو الاستئناف التى تفيد عطف القصة، سواء أوقعت تلك الواو بين خبر وإنشاء أم بين خبرين أم بين إنشاءين، على نحو ما مر بك من شواهد، وتكثر هذه الواو الاستئنافية فى القصص القرآنى، حيث تعطف بها القصة على القصة، انظر فى قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ . وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ . . . . . وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ . .﴾[٣]، تجد أن الواو قد عطفت أحداث قصة موسى على ما تقدمها من الحديث عن إبراهيم وضيفه، ثم عطفت قصة عاد وأحداثها على قصة موسى، ثم ثمود . . . وهكذا . . . وتسمى هذه الواو كما قلنا «واو الاستئناف»، ومثلها «فاء الاستئناف» وقد مر الفرق بينهما . . . فالاستئناف ثلاثة أنواع: استئناف بالواو أو الفاء، واستئناف بغير الواو والفاء وهو ما يكون فى تلك الجمل التى تتفق إنشاء أو خبراً لفظاً ومعنى ولا يوجد بينهما الجامع المسوغ للعطف فتأتى الجملة الثانية وقد استؤنف أى: ابتدىء بها معنى جديد، واستئناف بيانى وهو شبه كمال الاتصال الذى سنتحدث عنه الآن .

(١) سورة النمل: ١-٤ . (٢) سورة الرحمن: ١-٥ .
(٣) سورة الذاريات: ٣٨ - ٤٦ .

٣ - شبه كمال الاتصال:

ويسمى أيضاً بالاستئناف البيانى وهو أن تكون الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جواباً له كما فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[١]، فالجملة الأولى: «إنه ليس من أهلك»، أثارت سؤالاً فحواه: كيف لا يكون من أهلى وهو ابنى؟ وجاءت الجملة الثانية جواباً لهذا السؤال المثار: «إنه عمل غير صالح»، ولكون الجملة الثانية جواباً لسؤال تتضمنه الجملة الأولى، وينبعث منها، كانت مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، كما يرتبط الجواب بالسؤال، ومن ثم ترك العطف بينهما لأن الجواب لا يعطف على السؤال، لما بينهما من ترابط وثيق وصلة قوية.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾[٢]، وقوله عز وجل: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾[٣]، وقوله جل وعلا: ﴿ **قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[٤]، تجد الجواب قد فصل عن السؤال المصرح به فى هذه الآيات الكريمة، وفصل الجواب عن السؤال المصرح به، إما لكمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من صلة قوية وإما لكمال الانقطاع، لأن جملة السؤال إنشائية، وجملة الجواب خبرية وكما فصل الجواب عن السؤال المصرح به، فإنه يفصل كذلك عن السؤال المقدر الذى اقتضته الجملة الأولى وأثارته فى ذهن المخاطب وقد ذكر البلاغيون أن سبب الفصل عندئذ هو الاستئناف البيانى أى شبه كمال الاتصال، وليس لكمال الاتصال الذى مر، لأن الجواب ليس بياناً للجملة الأولى، بل لشيء ينبعث منها وهو السؤال الذى أثارته واقتضته، وقد سمى الاستئناف هنا استئنافاً بيانياً وهو غير الاستئناف بالواو أو الفاء أو الاستئناف بالجملة، أى: القطع، لأنه استئنف يوضح ويبين جواب السؤال المثار المنبعث من الجملة الأولى، فالجملة الثانية ليست منفصلة عن الأولى فى الواقع، ومنقطعة عنها، بل مبنية وموضحة لشيء فيها، ولذا سميت الثانية مستأنفة استئنافاً بيانياً.. هذا والسؤال المنبعث من الجملة الأولى قد يكون عن السبب العام...

كما فى قول الشاعر:

قال لى كيف أنت؟ قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

---

(١) سورة هود: ٤٦.
(٢) سورة القارعة: ٨-١١.
(٣) سورة البلد: ١٢، ١٣.
(٤) سورة الحج: ٧٢.

فجملة: «قلت عليل»، أثارت سؤالاً عن سبب العلة، تقديرة: ما سبب علتك ؟، وجاءت الثانية: «سهر دائم وحزن طويل» جواباً له، أما جملة: «قلت عليل»، فمفصولة عن السؤال المصرح به قبلها لكمال الاتصال أو لكمال الانقطاع، كما أوضحنا . .

ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى:

وقد غرضت من الدنيا فهل زمنى　　　معط حياتى لغر بعد ما غرضا

جربت دهرى وأهليه فما تركت　　　لى التجارب فى ود امرىء غرضا (١)

فقد أثار البيت الأول تساؤلاً عن سبب سأمه وضجره، فكأن قائلاً قال له: لم تقول هذا ويحك ؟ وما الذى جعلك تطوى عن الحياة إلى هذا الحد كشحك ؟، فأجاب البيت الثانى هذا التساؤل المنبعث من البيت الأول: «جربت دهرى وأهليه . .»، ولذا فصل أوقل: ترك العطف بينهما لما بين السؤال والجواب من اتصال وثيق، وترابط قوى . . وخذ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢)، تجد أن جملة: «تراود فتاها عن نفسه» قد أثارت سؤالاً عن سبب تلك المراودة وهو سؤال عن السبب العام، وقد جاء جوابه: «قد شغفها حباً» ثم إن هذا الجواب أثار تساؤلاً آخر فحواه: وما رأيكن فى هذا ؟، فأجيب «إنا لنراها فى ضلال» وتلاحظ أن هذا التساؤل الثانى ليس عن السبب، بل هو عن رأيهن فيما صنعته امرأة العزيز من المراودة الناجمة عن حبها فتاها .

وقد يكون السؤال المثار عن السبب الخاص، أى عن سبب معين محدد، كما فى قول الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس　　　كلاكله أناخ بآخرين

فقل للشامتين بنا أفيقوا　　　سيلقى الشامتون كما لقينا

فقد انبعث من الشطر الأول للبيت الثانى تساؤل عن سبب معين، وكأن سائلاً سأل: لم نقول لهم أفيقوا ؟ هل سيلقوا كما لقيتم ؟، فأجيب سيلقى الشامتون كما لقينا . . .

---

(١) غرض: بكسر الراء: مل وسئم وضجر وبفتحها: حاجة . والغر: الغافل وما غرضا: لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت .

(٢) سورة يوسف: ٣٠ .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١)، حيث فصلت جملة: «إن النفس لأمارة بالسوء»، عما قبلها، لأنها وقعت جواباً لسؤال تضمنته وهذا السؤال عن السبب الخاص، إذ فحواه: لم نفيت التبرئة عن النفس، هل النفس أمارة بالسوء؟، فجاء الجواب: إن النفس لأمارة بالسوء . . . ومنه أيضاً قوله عز وجل ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٢)، فقد فصلت الجملتان: «سيجزيهم بما كانوا يفترون» . . ، «سيجزيهم وصفهم» . . عما قبلهما لشبه كمال الاتصال، حيث وقعت كل منهما جواباً لسؤال اقتضته الجمل قبلها، وكأن سائلاً سأل: لم هذه الافتراءات ولم تلك الأوصاف الجائرة؟ هل سيجزون على ذلك؟

فجاءت الإجابة: «سيجزيهم بما كانوا يفترون . . سيجزيهم وصفهم» . وواضح أن السؤال المثار فى الآيتين عن السبب الخاص . . . وقد يكون السؤال المنبعث من الجملة الأولى عن غير السبب . . كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾(٣)، فقد فصلت الجمل: « قال: سلام» «قال: ألا تأكلون»، «قالوا: لا تخف» عما قبلها لأنها أجوبة لما تضمنته تلك الجمل من أسئلة أثيرت فى ذهن السامع، وكأنه سأل فماذا قال إبراهيم؟ فأجيب: «قال: سلام . . . قال: ألا تأكلون» وماذا قالت الملائكة؟ قالوا لا تخف وبشروه . . . ومثل هذا كل ما تراه فى التنزيل من لفظ «قال» مفصولاً عما قبله، غير معطوف عليه بعاطف . . . ومن أقوالهم فى هذا الصدد، قول الشاعر:

زعم العواذل أننى فى غمرة ... صدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى (٤)

فالجملة الأولى: «زعم العواذل أننى فى غمرة»، حركت السامع وأثارت فى ذهنه سؤالاً: أصدقوا فى ذلك الزعم أم كذبوا؟، فأخرج الكلام مخرجه لو كان ذلك قد قيل له، ففصل جملة: «صدقوا . . .»، ومثله قول جندب بن عمار:

---

(١) سورة يوسف: ٥٣ .

(٢) سورة الأنعام: ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) سورة الذاريات: ٢٤-٢٨ .

(٤) الغمرة: الشدة . وتنجلي: تنكشف وتزول .

زعـم العـواذل أن ناقـة جنـدب   بجنـوب خبـت عريت واجمت

كـذب العـواذل لو رأيـن مناخنا   بالقادسيـة قلـن: لـج وذلـت [1]

فقد فصل البيت الثانى عن الأول لوقوعه جواباً لسؤال فحواه أصدقن أم كذبن فى زعمهن ؟ ، وتلاحظ أن واو الجماعة فى البيت الأول فى قوله «صدقوا» ، قد عادت إلى لفظ «العواذل» ، إما على أنه جمع عاذل جمعاً سماعياً مثل فارس: فوارس . أو على أنه جمع عاذلة بمعنى جماعة عاذلة من الذكور . . أما فى بيت جندب فقد عاد إليه ضمير النسوة: رأين وقلن ، على أنه جمع عاذلة أى جمع مؤنث . . . كما تلاحظ أن الجملة المستأنفة أى: جملة الجواب فى بيت جندب قد وضع فيها الظاهر موضع المضمر ، فازداد بهذا أمر الاستئناف تأكيداً ، من حيث وضعه وضعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله ، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام . . ومثله - وقد مر بك - قول الشاعر:

فقـل للشامتـين بنـا أفيقـوا   سيلقـى الشامتـون كمـا لقينـا

فلم يقل «سيلقوا» بل وضع الظاهر موضع المضمر ليزداد الاستئناف تأكيداً . . ومن الشواهد أيضاً قول أبى تمام:

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملاً   إن السمـاء ترجى حين تحتجـب

فكأن سائلاً سأله: كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحقيق آمالك ومآربك ؟ فأجاب: إن السماء ترجى حين تحتجب . .

وقول الآخر:

يرى البخيل سبيل المـال واحدة   إن الكـريم يـرى فى مالـه سبلا

وكأن المخاطب عندما سمع الشطر الأول سأل ، وما رأى الكريم فى ماله ؟ ، فأجاب: إن الكريم يرى فى ماله سبلا . . وقول الآخر:

فغنها وهى لك الفداء   إن غناء الإبل الحداء

فعندما قال الشاعر: غنها وهى تلك الفداء ، توهم أن سائلاً سأله: وما غناء الإبل؟ أغناؤها الحداء أم أنك تقصد شيئاً آخر غير الحداء ؟ ، فأجاب: إن غناء الإبل الحداء . .

---

(١) عريت وأجمت: أهملت وأزيل عنها رحلها فاستراحت. لج وذلت: اشتد فى السير فأتعب ناقته.

وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى ما يفيده من إثارة المخاطب وتحريك ذهنه، فهذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى، قد انبعث فى ذهن المخاطب أو فى ذهن المتكلم الذى أدرك أن الجملة ينبعث منها هذا السؤال، وأن المخاطب ينتظر جواباً له وبياناً فعندما يأتى البيان ويرد الجواب يقع فى النفس أحسن موقع وأفضله . . ولذا يقول المبرد عند حديثه عن بيت امرىء القيس :

كأن قلوب الطيـر رطبـا ويابسـا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

«فهذا مفهوم المعنى، فإن اعترض معترض فقال : فهلا فصل فقال : كأنه رطبا العناب وكأنه يابسا الحشف البالى ؟ قيل له : العربى الفصيح الفطن يرمى بالقول مفهوماً، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عياً . »[1] . . .

ولما قال خلف الأحمر لبشار وقد استمع لبيته :

بكـرا صاحبـى قبـل الهجير   إن ذاك النجـاح فى التبكيـر

«لو قلت يا أبا معاذ : بكرا فالنجاح، كان أحسن» فقال بشار : «إنما بنيتها أعرابية وحشية . . ولو قلت : بكرا فالنجاح، كان من كلام المولدين» . . ومراده أن التكرار، أى تكرار فعل الأمر أفاد التأكيد بوجه ظاهر لا دقة فيه، أما ما صنعه فقد أفاد التوكيد بوجه خفى دقيق، مرجعه إلى انبعاث السؤال من الجملة الأولى وإجابة الجملة الثانية عنه . . . وقد أجمل القزوينى سر بلاغة هذا الأسلوب فى قوله : «وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة : إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شىء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك . . »[2]

هذا ومن الاستئناف ما يأتى بإعادة اسم ما استؤنف عنه كقولك : أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، ومنه ما يبنى على صفته . كقولك : أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك، وهذا أبلغ لا نطوائه على بيان سبب الإحسان . .

وقد تأتى الجملة المستأنفة أى جملة الجواب بلا حذف شىء منها، كما فى قول المتنبى :

(١) الكامل جـ٢ ص ٣٦ .
(٢) الإيضاح ٢ / ٧٩ .

وما عفت الرياح له محلاً   عفاه من حدا بهم وساقا

وكما فى قول الوليد بن يزيد الأموى :

عرفت المنزل الخالى   عفا من بعد أحوال

عفاه كل حنان   عسوف الوبل هطال [1]

لما نفى المتنبى العفاء عن الرياح، ولما ذكر الوليد عفاء المنزل كان مظنة أن يسأل عن الفاعل من هو ؟ أو ما هو ؟ فأجابا عن ذلك : عفاه من حدا بهم وساقاً . . عفاه كل حنان ، ولم يحذف شيء من جملة الجواب، إذ لو حذف الفعل فقيل : من حدا بهم . . كل حنان ، لما دل دليل عليه . وذكر جملة الاستئناف كاملة بلا حذف يجعلها أشد انفصالاً وأتم استقلالاً عن الجملة الأولى التى انبعث منها السؤال . .

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة عليه، ويكثر هذا عند ذكر الشعراء للديار والأطلال، وكذا عند المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء، حيث يقطع الكلام ويستأنف معنى جديد . .

من ذلك قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده   وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المعصرات به   وكل حيران سار ماؤه خضل [2]

لما ذكر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة، اشتاقت النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته، وكأنها سألت : ما خبر هذا الطلل ؟ وما صفته ؟ ، فاستأنف الشاعر حديثاً عنه، وبنى الكلام على حذف صدر الاستئناف «المسند إليه» «فقال : ربع قواء أذاع المعصرات به .

ومثله قول ذى الرمة :

إلى لوائحَ من أطلال أحْوِية   كأنها خِلَلٌ مَوْشِيَّة قُشُبُ

---

(١) عفا : درس والمراد بالأحوال : الأحوال التي سعد فيها بأحبابه وسكانه . والحنان : السحاب . وعسوف الوبل : شديد المطر .

(٢) المعصرات : السحاب وكذا الحيران والساري . أذاع به : ذهب . والخضل : الكثير . والقواء : الموحش .

دار لميـــة إذ مـــى تساعفـنــا ولا يَرى مثلَها عُجْم ولا عَرَب [1]

استأنف مبينا شأن الأطلال، وحذف صدر الاستئناف، إذا المراد:

تلك دار لمية . . ومنه فى المديح قول الشاعر:

هم حلوا من الشرف المعــلَّى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

بناة مكـــارم وأســـاةُ كَلْـم دمـاؤهم من الكَلَــب الشفـــاء[2]

وقول الآخر:

سأشكر عمـراً إن تراخــت منيتــى أيادى لـم تمنن وإن هـى جلــت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقوله:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

نجــوم سمـاء كلما انقض كوكب بـــدا كوكب تأوى إليه كواكبه [3]

إلى غير ذلك مما يقطع فيه الشعراء كلامهم ويستأنفون معانى أخرى فيحذفون عندئذ صدر الاستئناف لدلالة الدليل عليه . . فإن قلت: ألا يؤدى حذف صدر الاستئناف إلى احتياج جملة الاستئناف إلى ما قبلها، وعندئذ لا يكون انفصالها تاماً واستقلالها كاملاً ؟ . . قلت: ليس كل حـذف يؤدى إلى الاحـتيـاج وعـدم الاستـقـلال؛ بل إن الحـذف فى الشواهد المذكورة قد ساعد على استقلال الجمل المستأنفة وعدم احتياجها إلى ما قبلها ويتضح لك هذا عندما تقدر المحذوف فتقول: ذاك ربع قواء . . . تلك دار لمية . . . هم بناة مكارم هو فتى غير محجوب الغنى . . هم نجوم السمـاء . . إذ تجد أن اسم الإشارة والضمير قد جعل تلك الجمل مرتبطة بما قبلها محتاجة إليه، أما الحذف فيجعلها مستقلة

(١) اللوائح: ما تبين ولاح . . وأحوية: بيوت مجتمعة واحدتها حواء. والخلل: بطائن أجفان السيوف واحدتها: خلة . وموشية: منقوشة. وقشب: جدد .

(٢) الكلم: الجرح. والكلب: داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب .

(٣) الجزع: خرز فيه بياض وسواد.

عنه . . ولاحظ أن هناك فرقاً بين هذه الشواهد وبين بيتى المتنبى والوليد، إذ الحذف فى بيتى المتنبى والوليد يؤدى إلى الغموض واللبس لعدم وجود دليل يدل على المحذوف . . واقرأ: وما عفت الرياح له محلاً من حدابهم . . . عفا من بعد أحوال كل حنان عسوف الوبل . . . تجد المعنى لا يستقيم عند الحذف، ولو فرضت استقامته فستجد أن جملة الاستئناف محتاجة إلى ماقبلها . . . أما حذف صدر الاستئناف فى الشواهد المذكورة، فقد ساعد على استقلالها وعدم احتياجها إلى ما قبلها، كما وضح لك . . . ومما حذف فيه صدر الاستئناف من آى الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ .رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ..﴾[(١)]، بقراءة يُسبح مبنيا للمفعول، وكأن سائلاً سأل: من يسبح ؟ فأجيب: رجال بحذف صدر الاستئناف وهو هنا المسند . . ومن ذلك أسلوب «نعم وبئس» نحو: نعم الرجل خالد، وبئس رجلاً عمرو، على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو الذم خبر لمبتدأ محذوف، وكأن سائلاً سأل من الممدوح ومن المذموم ؟ فأجيب: الممدوح خالد والمذموم عمرو .

وقد يحذف الاستئناف كله ويقوم ما يدل عليه مقامه، كقول الحماسى:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

فقد أثار صدر البيت سؤالاً تقديره: أكذبنا أم صدقنا ؟ فأجيب: كذبتم فى زعمكم، وقد حذف هذا الجواب، وأقيم قوله: لهم إلف وليس لكم إلاف مقامه لدلالته عليه، ويجوز اعتبار قوله: «لهم إلف وليس لكم إلاف»، جواباً لسؤال اقتضاه الجواب المحذوف، وكأنه لما قيل: كذبتم، قالوا: لم كذبنا ؟ قال: لهم إلف . وليس لكم إلاف، فيكون فى البيت على هذا استئنافان . . ويجوز أن يكون الفصل فى البيت لشبه كمال الانقطاع الآتى بيانه . .

وقد يحذف الاستئناف كله لدلالة السياق عليه كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ .وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[(٢)]، . . أى: نعم الماهدون نحن، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[(٣)]، أى: نعم العبد أيوب . .

---

(١) سورة النور: ٣٦، ٣٧ .

(٢) سورة الذاريات: ٤٧، ٤٨ .

(٣) سورة ص: ٤٤ .

هذا وقد تأتى الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو بالواو، وتسمى الفاء فاء الاستئناف وكذا الواو تسمى واو الاستئناف، ولكن الاستئناف بهما يختلف عن الاستئناف البيانى؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال الكلام وانفصاله، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر، كما مر بك . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(١) .

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية الأولى، إذ وقعت جواباً لسؤال تضمنته، وجاءت الآية الثالثة بالواو فآذنت بالاستقلال، وصار الكلام معها من قبيل عطف القصة على القصة . .

ومن ذلك قول الشاعر:

أرى بصرى عن كل يوم وليلة ... يكل وخطوى عن مدى الخطو يقصر

ومن يصحب الأيام تسعين حجة ... يغيرنه والدهر لا يتغير

حيث جاء البيت الثانى مستأنفاً بالواو التى تؤذن بالاستقلال . .

والاستئناف بالفاء يجعل الكلام مرتباً بعضه على بعض، وليس متولداً بعضه من بعض . انظر إلى قول أبى تمام:

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

تجد أن الفاء قد جعلت الكلام مرتباً بعضه على بعض . . . وخذ قوله تعالى: ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾(٢)، تجد أن هذه الفاءات: «فسقى لهما . . فقال ربى . . فجاءته إحداهما . .»، قد جعلت الكلام مرتباً بعضه على بعض . .

(١) سورة سبأ: ٣١ - ٣٣ .
(٢) سورة القصص: ٢٣ - ٢٥ .

أما الاستئناف البيانى فالكلام فيه يتولد بعضه من بعض، إذ ينبعث من الجملة الأولى سؤال وتقع الثانية جواباً له، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباط الجواب بالسؤال وهو ارتباط داخلى وثيق وليس ارتباطاً لفظياً ظاهراً، كما فى الاستئناف بالفاء، ولا استقلالاً وتبايناً كما فى الاستئناف بالواو . .

٤ - شبه كمال الانقطاع:

وقد عرفوه بقولهم: أن تكون الجملة مسبوقة بجملتين يصح وصلها بالأولى منهما لوجود المناسبة التى تسوغ الوصل، ولا يصح عطفها على الثانية، فيترك العطف دفعاً لتوهم العطف على الثانية، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى، بهذا الحائل .

من ذلك قول الشاعر:

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلاً أراها فى الضلال تهيم

فقد فصل جملة: «أراها فى الضلال . . .» عن الجملة الأولى: «تظن سلمى . . .» لأن عطفها عليها يوهم أنها معطوفة على جملة: «. . . أبغى بها بدلاً»، فتكون بهذا من مظنونات سلمى، وهى من كلام الشاعر، لا من مظنوناتها، فدفعا لهذا التوهم وجب الفصل . . ومثله قول الآخر:

يقولون: إنى أحمل الضيم عندهم أعوذ بربى أن يضام نظيرى

فصل جملة: «أعوذ بربى» عن جملة: «يقولون» مع جواز عطفها عليها، حتى لا يتوهم عطفها على جملة: «أحمل الضيم . . .»، فتكون من مقولهم وهى ليست منه، بل هى من كلام الشاعر . . .

ويمكن أن يكون من هذا الموضع قول الحماسى:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

فيكون فصل جملة: «لهم إلف . . .» عن جملة . «زعمتم» دفعاً لتوهم عطفها على جملة: «أن إخوتكم قريش»؛ إذ هى ليست من زعمهم بل من كلام الحماسى . . وانظر فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

بِهِمْ﴾[1]، فقد مر بك امتناع عطف جملة: «اللّه يستهزىء بهم» على جملة: «إنا معكم»، أو على جملة: «قالوا»، أما عطفها على جملة الشرط وجوابه: «إذا خلوا إلى« شياطينهم قالوا .» فجائز، ولكن يمنع منه توهم عطفها على إحدى الجملتين المذكورتين . . وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ .أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ .وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾[2]؛ ولا يخفى عليك أنه يمكن رد سبب الفصل فى هذه الشواهد إلى شبه كمال الاتصال كما نبه كثير من البلاغيين وبذا يلغى هذا الموضع من مواضع الفصل .

٥ - الفصل لعدم الاشتراك فى القيد:

أو كما عرفه بعض البلاغيين بالتوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف وهو عدم الاشتراك فى الحكم . . وقد استشهدوا لهذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ..﴾[3]، فقد فصل جملة: «اللّه يستهزىء بهم عن جملة: «قالوا»، لأن قولهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم أما استهزاء اللّه بهم فدائم فى كل آن، وليس مقيداً بهذا الوقت، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك فى القيد . . . وأما فصل هذه الجملة: «اللّه يستهزىء بهم» عن جملة «إنا معكم» فلعدم قصد التشريك فى الحكم الإعرابى - كما مر بك فى الجمل التى لها محل من الإعراب - . . . بقى أن أذكرك بما نبهتك إليه من أن الجمل التى لها محل من الإعراب تخضع لما تخضع له الجمل التى لا محل لها من الإعراب من مواضع الفصل المذكورة، وانظر مثلاً فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[4]، تجد أن الجمل الثلاث: «امرأة العزيز تراود . .» . «قد شغفها حباً» . «إنا لنراها فى ضلال . .» قد وقعت مقولاً لقول النسوة فلها من الإعراب محل، وقد فصل بينها لشبه كمال الاتصال، إذ أثارت الجملة الأولى سؤالاً فحواه ما سبب تلك المراودة؟، فجاء التعليل: «قد شغفها حباً»، وكذا تضمنت الثانية

(١) سورة البقرة: ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة البقرة: ١١-١٣ .

(٣) سورة البقرة: ١٤ ، ١٥ .

(٤) سورة يوسف: ٣٠ .

سؤالاً تقديرة: وما رأيكن ؟، فأجيب بالجملة الثالثة: «إنا لنراها فى ضلال مبين . .» . . وارجع إلى ما سقناه من شواهد فى مواضع الفصل المذكورة ليتضح لك أن الجمل جميعها سواء فى تلك المواضع . وأنك لا تستطيع قصر هذه المواضع على الجمل التى لا محل لها من الإعراب . .

وبهذا نكون قد فرغنا من مواضع الفصل بين الجمل . وننتقل الآن إلى مواضع الوصل . . .

مواضع الوصل بين الجمل:

وقفنا - فيما سبق - على أن الجمل التى لها محل من الإعراب، يوصل بينها إذا قصد التشريك فى الحكم الإعرابى، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يكن هنالك مانع يمنع من الوصل .

وقد ذكر البلاغيون موضعين آخرين للوصل بين الجمل وهما:

١- التوسط بين الكمالين:

والمراد بالكمالين: كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وقد عرفوه بقولهم: أن تتفق الجملتان خبراً أو انشاء لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، فمثال اتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، فقد اتفقت الجملتان: «إن الأبرار لفى نعيم» و «إن الفجار لفى جحيم» فى الخبرية لفظاً ومعنى، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يمنع من العطف مانع، ولذا وصل بينهما كما ترى . . وكذا القول فى الآيتين: «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع . . . . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل . . .»، ولا يخفى عليك ما يفيده الجمع بين الجمل فى الآيتين، من إبراز قدرة الله عز وجل فى أسمى معانيها، وتأمل: تؤتى الملك من تشاء وتنزع وتعز من

---

(١) سورة الانفطار: ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة آل عمران: ٢٦ ، ٢٧ .

تشاء وتذل . . . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل . . . وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب . . . لا يقدر على تلك الأضداد إلا الخالق القادر المهيمن ذو السلطان والملك . . ومثال ما اتفقت فيه الجملتان فى الإنشائية لفظاً ومعنى قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1] ، فقد اتفقت الجمل : خذوا زينتكم . . كلوا . . اشربوا . لا تسرفوا ، فى الإنشائية لفظاً ومعنى ، ومن ثم وصل بينها . . ومما اتفقت فيه الجملتان فى الإنشائية معنى ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2] ، ففى الآية ثلاث جمل الأولى : لا تعبدون إلا اللّه ، والثانية حذف فيها فعل الأمر وتقديرها : وأحسنو بالوالدين إحسانا ، والثالثة : وقولوا للناس حسناً . . والجملتان الثانية والثالثة إنشائيتان لفظاً ومعنى كما ترى ، أما الأولى فخبرية لفظاً ، إنشائية معنى ، لأنها تعنى النهى أى : لا تعبدوا إلا اللّه ، وبهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث فى الإنشائية فى المعنى فقط دون اللفظ .

ومما اتفقت فيه الجملتان فى الخبرية معنى قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3] ، فجملة : «واشهدوا . . » إنشائية لفظاً خبرية معنى ، إذ المراد : إنى أشهد اللّه وأشهدكم ، وبهذا يكون اتفاق الجملتين فى الخبرية معنى لا لفظاً . . . وإنما عدت مثل هذه الجمل «توسطاً بين الكمالين» ، لاتفاقها فى الخبرية أو الإنشائية مع وجود المناسبة المسوغة للوصل ، فليست من قبيل كمال الانقطاع الذى عرفته . . . كما أنها ليست من قبيل كمال الاتصال لعدم وجود الروابط والصلات القوية بينها والتى عرفتها فى صور كمال الاتصال ، ولذا سمى البلاغيون هذا الموضع بالتوسط بين الكمالين .

٢ - كمال الانقطاع مع الإيهام:

كقولك لتاجر : أتبيع هذه السلعة ؟ فيجيبك : لا وعافاك اللّه ، وقولك لصديق لك أشفى والدك ؟ فيجيب : لا ولطف اللّه به ، وقولك : أتاب العاصى ؟ فتجاب : لا ويهديه اللّه . فبين الجملتين كما ترى كمال انقطاع ؛ لأن جملة : «لا» خبرية لفظاً ومعنى ،

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .
(٢) سورة البقرة : ٨٣ .
(٣) سورة هود : ٥٤ .

والجمل: عافاك الله - لطف الله به - يهديه الله - خبرية لفظاً، إنشائية معنى، وكمال الانقطاع - كما درست - يوجب الفصل بين الجملتين، إلا أن الفصل هنا يوهم خلاف المراد، إذ يتوهم أن المجيب يدعو بعدم العافية وعدم اللطف وعدم الهداية، وأنه قد أجاب بجملة واحدة منفية، سلطت فيها «لا» على ما بعدها وليس بجملتين، فدفعا لهذا الإيهام يجب الوصل بين الجملتين، ولذلك إذا اندفع هذا الإيهام بأن يسكت المتكلم قليلاً بعد النطق بالحرف «لا»، أو يذكر الجملة المنفية كاملة، فيقول: لا أبيعه، ثم يذكر الجملة الدعائية «عافاك الله»، عندئذ يجب الفصل، إذ لا إيهام . .

الجامع أو التناسب بين الجملتين:

عرفت أن اتفاق الجملتين فى الخبرية أو الإنشائية يوجب الوصل بينهما إذا وجدت المناسبة أو الجامع المسوغ للوصل، وكذا عند قصد التشريك فى الحكم الإعرابى، فما مراد البلاغيين بهذا الجامع أو بتلك المناسبة ؟ يريد البلاغيون بذلك: أن يكون المسند إليه فى الجملة الأولى بسبب من المسند إليه فى الجملة الثانية، وكذا المسند فيهما، يقول عبد القاهر: «واعلم أنه يجب أن يكون المحدث عنه فى إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه فى الأخرى، كذلك ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى مما يجرى مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر الأول فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعر، كان خلفاً، لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب وعمرو شاعر، وزيد طويل القامة وعمرو قصير، وجملة الأمر أنها - يقصد الواو - لا تجيء حتى يكون المعنى فى هذه الجملة لفقاً لمعنى فى الأخرى ومضاماله، مثل أن زيداً وعمراً إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكى الأحوال على الجملة، كانت الحال التى يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة فى النفس إلى الحال التى عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيل أبداً، والمعانى فى ذلك كالأشخاص، فإنما قلت مثلاً: العلم حسن والجهل قبيح، لأن كون العلم حسناً مضموم فى العقول إلى كون الجهل قبيح، واعلم أنه إذا كان المخبر عنه فى الجملتين واحداً كقولنا: هو يقول ويفعل ويضر وينفع ويسيء ويحسن ويحل ويعقد وأشباه ذلك، ازداد معنى الجمع فى الواو قوة وظهوراً وكان الأمر حينئذ صريحاً . . »[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

وقد اختلف البلاغيون فى المتعلقات، هل ينبغى أن يعتبر فيها التناسب أيضاً؟ والصواب أنه لا يعتبر فيها ذلك إلا إذا كانت مقصودة بالذات ومرادة فى الجملتين، كقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[1]. وكما فى قول الشاعر:

أريـــد حياتـــه ويريـــد قتلـى   عذيـرك من خليلك من مـــراد

هذا وقد تكون المناسبة بين الجمل دقيقة خفية وعندئذ تحتاج إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال به.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2]، تجد أن المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، لا تتضح لك إلا بالتأمل وإطالة النظر، إذ عند التأمل تعرف أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل، حيث ينتفعون بها فى جل معاشهم وانتفاعهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك يكون بنزول المطر، فيكثر تقلب وجوههم فى السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به، ولا شىء لهم فى ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم فى منزل عن التنقل من أرض إلى سواها ... وبهذا يتضح لك أن الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة فى ذهن البدوى وأخيلة أهل الوبر..

كما أنه قد يتحد كل من المسند والمسند إليه ولا تجد مسوغاً للوصل على نحو ما ترى فى قولك: انظر إلى غزارة علم عمرو... وانظر إلى هذا القطع فى ثوبك، فمثل هاتين الجملتين لا يجمعهما سياق واحد لا منفصلتين ولا موصولتين، على الرغم من اتحاد المسند والمسند إليه فى كل منهما... وقد يختلف كل منهما فى الجملتين وتوجد المناسبة المسوغة للوصل، على نحو ما ترى فى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ..﴾[3]، فالمسند إليه فيهما: «الضر وإخوة يوسف» مختلفان لا تناسب بينهما، وكذلك المسندان: «المس والمجىء»، وعلى الرغم من هذا وصل بين الجملتين لوجود المسوغ للوصل وهو أن المس سبب فى المجىء.

---

(١) سورة غافر: ٤١.   (٢) سورة الغاشية: ١٧ - ٢٠.

(٣) سورة يوسف: ٨٨.

محسنات الو صل:

ومن محسنات الوصل أن تتناسب الجملتان في الاسمية والفعلية، وفي المضي والمضارعة، وفي الأمر والنهي، وفي الإطلاق والتقييد . . . انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[1]، تجد تناسب الجملتين في الاسمية . . . ومنه قول الشاعر:

أسود إذا ما أبدت الحرب نابها   وفي سائر الدهر الغيوث المواطر

ومن تناسبهما في المضي قوله تعالى: ﴿ . . فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2]. وقول الشاعر:

أعطيت حتى تركت الريح حاسرة   وجدت حتى كأن الغيث لم يجد

ومن تناسبهما في المضارعة قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ . . ﴾[3] . . وقول الشاعر:

نروح ونغدو لحاجاتنا   وحاجة من عاش لا تنقضى

ومن تناسبهما في الأمر والنهي قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[5].

ومن تناسبهما في التقييد قول الشاعر:

دنوت تواضعاً وعلوت مجداً   فشأناك انحدار وارتفاع

وإنما يعد التناسب فيما ذكر من محسنات الوصل مالم يدع داع إلى المخالفة، فلو دعا داع إلى المخالفة كان الحسن في تلك المخالفة التي دعا إليها هذا الداعي واقتضاها المقام، انظر في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . . ﴾[6].

---

(١) سورة الانفطار: ١٣، ١٤.
(٢) سورة الأنفال آية ٢٦.
(٣) سورة آل عمران: ٢٦.
(٤) سورة الأعراف: ٣١.
(٥) سورة لقمان: ١٧ - ١٩.
(٦) سورة النساء: ١٤٢.

فقد آثر التعبير بالمضارع «يخادعون» ليفيد أن خداع المنافقين حادث متجدد، وبالاسم «خادعهم» ليفيد أن فعل اللّه ثابت ودائم فى جميع الأحوال، وفي هذا زيادة فى التنكيل والتعذيب . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1] . . يقول الزمخشرى فى بيان السر البلاغى للمخالفة فى الآية: «فإن قلت: هلا قيل وفريقا قتلتم؟ قلت: هو على وجهين أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره فى النفوس وتصويره فى القلوب، وأن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحرومون حول قتل محمد صلى اللّه عليه وسلم لولا أنى أعصمه منكم . . »[2] وبهذا يتضح لك أن المقام قد يقتضى عدم تناسب الجملتين فيما ذكر، وعندئذ يكون الحسن فيما اقتضاه المقام ودعا إليه الحال .

فروق فى الجملة الحالية:

مر بك جواز مجيء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال كذلك مفردة أم جملة، وعرفت ما يكمن وراء مجيء الواو أو تركها من دقائق وأسرار . . ونريد أن نفصل لك القول فى الحال عندما تأتى جملة، متى تقترن جملة الحال هذه بالواو، ومتى تمتنع الواو ومتى يجوز الإتيان بالواو ويجوز تركها، وقبل أن نفصل لك القول فى تلك الجمل الحالية ننبهك إلى ما ذكرناه آنفاً من أن الواو لما فيها من معنى المغايرة فهى تؤذن بالاستقلال، وكأن القائل عندما يقول: جاء زيد وغلامه يسعى بين يديه، قد أخبر إخبارين، أخبر بمجيء زيد ثم بحاله عند المجيء . وهذا من شأنه أن يؤكد جملة الحال وأن يفيد شدة لصوقها بصاحبها . . أما إذا قال القائل: جاء زيد غلامه يسعى بين يديه، فهو يخبر خبراً واحداً، يخبر عن مجيء هذه حاله وتلك هيئته . . تأمل قول عبد القاهر: «وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقت حالاً ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول فى الإثبات . تفسير هذا أنك إذ قلت جاءنى زيد يسرع كان بمنزلة قولك: جاءنى زيد مسرعاً فى أنك تثبت مجيئاً فيه إسراع وتصل أحد المعنيين بالآخر، وتجعل الكلام خبراً واحداً وتريد أن تقول جاءنى كذلك، وجاءنى بهذه الهيئة، وهكذا قوله:

---

(١) سورة البقرة: ٨٧ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٩٥ .

وقد علوت قتود الرحل يسفعني   يوم قُدَيديمة الجوزاء مسموم [1]

كأنه قال: وقد علوت قتود الرحل بارزاً للشمس ضاحياً، وكذلك قوله:

متى أرى الصبح قد لا حت مخايله   والليل قد مزقت عنه السرابيل

لأنه في معنى: متى أرى الصبح بادياً لائحاً بيناً متجلياً، وعلى هذا القياس أبداً . . . وإذا قلت: جاءني وغلامه يسعى بين يديه ورأيت زيداً وسيفه على كتفه، كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسعي الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجيء بالواو كما جيء بها في قولك: زيد منطلق وعمرو ذاهب، والعلم حسن والجهل قبيح، وتسميتنا لها واو الحال، لايخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة» [2] . وإياك أن يلتبس عليك الأمر فتظن أن جملة الحال قد انفصلت بهذه الواو عن صاحبها وتباعدت عنه، إن الأمر على عكس هذا؛ لأن هذه الواو قد قربت الحال من صاحبها وأبرزتها جلية واضحة شديدة الالتصاق به، مؤكدة الانتساب إليه - كما وضحت لك - وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن الجملة الحالية قد يجب اقترانها بالواو وقد يمتنع وقد يجوز . . . وإليك البيان .

إذا كانت الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مقرون بقد امتنع اقترانها بالواو كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3] . وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[4] . وقوله جل وعلا: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[5] . وقوله عز من قائل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾[6] . ومنه قول الشاعر:

وقد علوت قتود الرحل يسفعني   يوم قـديديمة الجوزاء مسموم

---

(١) القتود بضم القاف جمع قتد وهو خشب الرحل المعهود. وسفعه: لفحه بحره فغير لونه، وسفعته النار كذلك. وقديديمة: تصغير قدام ظرف مكان. والجوزاء من منازل الشمس. ويوم مسموم: هبت فيه ريح السموم بكثرة وهي ريح حارة.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٣) سورة الكهف : ٢٨ .

(٤) سورة المدثر : ٦ .

(٥) سورة الأنعام: ١١٠ .

(٦) سورة الليل : ١٧ ، ١٨ .

وقول الآخر :

ولقـد أغتـدى يـدافع ركنـى أحـوذى ذو ميعـة إضريـج [1]

أما ما جاء من نحو قول العرب : قمت وأصك عينه ، وقول عبد الله بن همام السلولى :

فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنهم مالكا

وقول عنترة العبسى :

علقتها عرضاً وأقتل قومها زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم

فقيل : إن ما فى المثال شاذ وما فى البيتين ضرورة ، وقيل إنه على حذف المبتدأ والتقدير : قمت وأنا أصك . . نجوت وأنا أرهنهم . . علقتها عرضاً وأنا أقتل . . وقال عبد القاهر : ليست الواو للحال بل هى للعطف والفعل المضارع فى تأويل الماضى والمعنى : قمت وصككت . . نجوت ورهنت . . علقت وقتلت . .

وإن كان المضارع مقروناً بقد وجب اقتران الجملة بالواو كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ..﴾[2] ، وكقولك : لِمَ لَمْ تستعد وقد ترحل غداً . .

وإن كان المضارع منفياً جاز أمران : اقتران الجملة بالواو ، وترك الواو ، والمضارع المنفى يظل مضارعاً إذا كان النفى بغير لم ولما ، أما المنفى بلم أو لما فهو ماض معنى ؛ لأن لم ولما يقلبانه إلى الماضى ، وهو أى المنفى بلم ولما مما يجوز فيه الأمران أيضاً . . فمما جاء بالواو قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ﴾[3] ، فى قراءة من قرأ بتخفيف النون ، وكقولهم : «كنت ولا أخشى بالذئب» ، أى : لا أخوف به . . . وقولهم : يصيب ولا يدرى ويقول ولا يفعل . وكقول مسكين الدارمى :

أكسبته الورق البيض أبا ولقد كان ولا يدعى لأب

---

(١) الأحوذي : السريع في السفر وفي غيره ، وصف للفرس ، والإضريج : الفرس الجواد ، الواسع اللبان الشديد العدو ، وذو ميعة : ذو ليونة وسهولة في السير .

(٢) سورة الصف : ٥ .

(٣) سورة يونس : ٨٩ .

وكقول مالك بن رفيع وكان قد جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

بغانـــى مصعـــب وبنـــو أبيـــه فأين أحيـــد عنهـــم لا أحيـــد

أفـــادوا من دمـــى وتوعـدونـــى وكنـــت وما ينهنهنـــى الوعيـــد

فكان في هذه الشواهد تامة بمعنى : وجد، وقد اقترنت الجملة الحالية بالواو كما ترى وفعلها مضارع منفى . . ومما جاء بغير الواو قوله تعالى : ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾(١)، وقوله عز وجل : ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾(٢)، وقول الشاعر :

إن تلقنى لا ترى غـيرى بناظـرة تنس السلاح وتعرف جيهة الأسد

وقول الآخر :

لـــو أن قوماً لارتفـــاع قبيلـــة دخلوا السمـــاء دخلتها لا أحجب

وقوله :

عهدتك ما تصبـو وفيك شبيبـة فما بالك بعـد الشيب صباً متيماً

وكذلك إذا كانت الجملة الحالية جملة فعلية فعلها ماض لفظاً أو معنى جاز الأمران أيضاً اقترانها بالواو، وعدم اقترانها، والماضى لفظاً لا يقع حالاً إلا وهو مقرون بقد ظاهرة أو مقدرة، والماضى معنى هو المضارع المنفى بلم أو لما - كما ذكرت - . . فمما جاء بالواو قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ..﴾(٣)، وقوله عز وجل : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ..﴾(٤)، وقول امرىء القيس :

أيقتلنى وقد شغَفْت فؤادَها كما شغَفَ المهنُوأةَ الرجلُ الطالى

وقوله أيضاً :

فجئت وقد نضّت لنوم ثيابها لدى السِّتر إلاَّ لبسة المتفضل

فالجملة الحالية كما ترى فعلها ماض لفظاً وقد اقترن بالواو . . ومما جاء فعلها ماضياً معنى وقد اقترن بالواو أيضاً قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ

(١) سورة المائدة : ٨٤ .
(٢) سورة النساء : ٧٥ .
(٣) سورة آل عمران : ٤٠ .
(٤) سورة مريم : ٨ .

إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ..﴾[2].

وقول كعب بن زهير:

لا تأخذني بأقـوال الوشاة ولـم ... أذنب وإن كثـرت في الأقاويـل

وقـوله عـز من قـائل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِيـنَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾[3] .. ومما جاء بلا واو قوله تعالى ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[4].. وقـول الشاعر:

وإني لتعـروني لذكـراك هـزة ... كما انتفض العصفـور بلله القطر

وقول الآخر:

متى أرى الصبح قد لاح مخايله ... والليـل قـد مزقت عنه السرابيل

وكقـوله تعـالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[5] وقـوله عـز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ..﴾[6].

وقول زهير:

كأن فـتات العهـن في كل منـزل ... نزلن به حـب الفنـا لـم يحطـم[7]

وإذا كانت جملة الحال اسمية فالأولى أن تأتي بالواو كقولك جاء زيد وعمرو أمامه، وأتاني وسيفه في يده، وكقول امرىء القيس:

أيقتلنـي والمشـرفي مضاجعـي ... ومسنونـة زرق كأنيـاب أغـوال

وقوله أيضاً:

ليـالي يدعونـي الهوى فأجيبه ... وأعـين من أهـوى إلى روان[8]

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.
(٢) سورة مريم: ٢٠.
(٣) سورة البقرة: ٢١٤.
(٤) سورة النساء: ٩٠.
(٥) سورة آل عمران: ١٧٤.
(٦) سورة الأحزاب: ٢٥.
(٧) الفتات: اسم لما انفت وتقطع من الشيء. والعهن: الصوف المصبوغ. والفنا: عنب الثعلب.
(٨) روان: جمع رانية أي: مديمات النظر.

وقد يأتى بدون الواو كقولك: كلمته فوه إلى فى، ورجع عوده على بدئه . .

وقول الشاعر:

ولــولا جنــان الليل مــا آب عامر إلى جعفــر سربالــه لم يمـــزق

فإن كان المبتدأ فى الجملة الحالية ضمير صاحب الحال وجبت الواو ولا تصلح جملة الحال بدونها البتة، كقولك: جاء زيد وهو راكب ودخلت عليه وهو يملى الحديث . . فلا يجوز أن تقول: «جاء زيد هو راكب»، ولا «دخلت عليه هو يملى الحديث» ومن ذلك قوله تعـالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] . وقوله جل وعلا: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ..﴾[2]

وإن كان الخبر فى الجملة الحالية ظرفاً أو جاراً ومجروراً وقدم على المبتدأ كثر فيها أن تجىء بغير الواو كقولك: قدم المقاتل على كتفه سيف وأقبل فى يده سوط، وقول بشار:

إذا أنكرتنــى بلــدة أو نكرتهــا خرجت مع البــازى على ســواد [3]

وقول الآخر:

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً فى رأس غمدان دارا منك محلالاً [4]

ويقل مجيئها عندئذ بالواو وكقولك: جاء وعليه ثوب، ومر وفى يده سيف وقد جاءت فى النظم الكريم بالواو وبدونها . . .

قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾[5]، وقال عز قائلاً: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾[6]، وقد مر بك السر البلاغى الكامن وراء ذكر الواو وتركها فى الآيتين الكريمتين.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢ . (٢) سورة البقرة: ١٨٧ .

(٣) البازي ويقال له أيضًا الباز: ضرب من الصقور. وعلى سواد: أي بقية من الليل.

(٤) غمدان: بضم الغين: حصن بصنعاء . ومحلال: لينة سهلة يحل الناس بها كثيرًا، والبيت لأمية بن أبي الصلت في مدح سيف بن ذي يزن.

(٥) سورة الحجرات: ٤ . (٦) سورة الشعراء: ٢٠٨ .

ومما يجيء بالواو في الأكثر، ثم يأتي بغير الواو في مواضع فيلطف مكانه، الجملة قد دخلتها «ليس» تقول: أتاني وليس عليه ثوب، ورأيته وليس معه شيء . . هذا هو الكثير المستعمل، وقد جاءت بدون الواو فحسن موقعها ولطف، كما في قول الأعرابي:

لنـــا فتـــى وحبـــذا الإفتـــاء تعرفـــه الأرســـان والـــدلاء

إذا جرى في كفـــه الرشـــاء خلى القليـب ليـس فيـه مـــاء [1]

وقد تجد أن الجملة الاسمية جاءت بغير واو فحسنت، ثم تنظر وتتأمل فتجد أن سبب الحسن دخول حرف على المبتدأ، كما في قول الفرزدق:

فقلـت عسى أن تبصرينـي كأنما بني حوالي الأســود الحـــوارد [2]

فإنه لولا دخول «كأن» على المبتدأ لم يحسن الكلام إلا بالواو بأن يقال: عسى أن تبصريني وبني حوالي الأسود . .

وشبيه بهذا أن ترى الجملة قد جاءت حالاً عقب مفرد فلطف مكانها وحسن، ولو أوردت أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها هذا المفرد لم يحسن، كما في قول ابن الرومي:

واللّـــه يبقيـــك لنـــا سالمـــاً بـــرداك تبجيـــل وتعظيـــم

فقوله: «برداك تبجيل» في موضع حال ثانية، ولو أنك أسقطت «سالماً» من البيت فقلت: واللّه يبقيك برداك تبجيل وتعظيم لم يكن شيئاً [3] .

وقد تجد الجملة الحالية جملة اسمية والمبتدأ فيها ضمير يعود إلى صاحب الحال وعلى الرغم من هذا تمتنع الواو بلاغة، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** ﴾ [4]، فجملة: «هم قائلون»، حال ثانية وقد صدرت بضمير يعود إلى صاحبها، فحقها أن تكون بالواو، ولكن الواو امتنعت هنا، وامتناعها لسر بلاغي وهو كراهة أن يتوالى حرفا عطف وهما «أو والواو» في اللفظ، فلما استقبح تواليهما امتنعت واو الحال .

---

(١) الأرسان: جمع رسن وهو الحبل. والرشاء: حبل الدلو. والقليب: البئر. وخلى القليب: تركه.

(٢) الحوارد: الغضاب مفرده حارد.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ . (٤) سورة الأعراف: ٤ .

الفصل الرابع

الإيجاز والإطناب

لكل مقام مقال، والبلاغة كما عرفها البلاغيون، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالحال قد تقتضى الإيجاز فى القول وطى الكلمات وعندئذ تكون البلاغة فى أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه، وقد تقتضى الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون البلاغة فى الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام . . ولذا قال الأعرابى عندما سئل عن «البلاغة : البلاغة الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل»، وسأل معاوية صحار العبدى : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ فقال صحار : الإيجاز . قال معاوية : وما الإيجاز ؟ فأجاب : أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء [(1)] . .

وقال عبد الله بن المقفع : «البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها ما يكون فى الإشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذاب البين، فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته، فقيل له : فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلكالموقف ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذى يجب من سياسه ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد

(١) البيان والتبين ١ / ٩٦ .

والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: رضا الناس شيء لا ينال . .»[١] . . وقد امتدحوا الإيجاز كثيراً فقالوا: البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى . . البلاغة لمحة دالة . . البلاغة كلمة تكشف عن البقية . . . ولعل السبب في هذا يرجع إلى أمية العرب، وإلى أنهم أمة صافية الذهن، دقيقة الحس، سريعة الفهم، فالعربى تكفية الإشارة وتغنيه اللمحة، وغير العربى يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول، وبهذا علل الجاحظ إيجاز القرآن الكريم عند خطاب العرب والأعراب، والبسط والإطالة عند خطاب بنى إسرائيل . .[٢] وهذا ما يفسر لنا أيضاً سر السؤال الذى وجه إلى ابن المقفع فى قوله المذكور والذى ندرك منه رائحة الاعتراض على مدح الإطناب فى موضعه وفى مقامه الذى اقتضاه: «فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف . .» . .

وبهذا يتضح لك أن للإيجاز مقامات تقتضيه، ومواضع تلائمه، كالحكم والأمثال، كما أن للإطناب مقامات تقتضيه، ومواضع تلائمه، كالمدح والفخر والوعظ، وما يحسن فيه الإيجاز لا يحسن فيه الإطناب، وكذلك ما يحسن فيه الإطناب لا يحسن فيه الإيجاز، ومن مقامات الإيجاز مقامات الحذف التى عرفتها فى باب المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل، كما أن من مقامات الإطناب تلك المقامات التى وقفت عليها عند دراستك لذكر المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل[٣] .

❐ ❐ ❐

الإيجاز: معناه وأنواعه:

وقد عرفوا الإيجاز بأنه: اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل . . أو عرض المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ليسهل تعلقها بالذهن وتذكرها عند الحاجة إليها فى المناسبات المختلفة . . وهو نوعان:

---

(١) البيان والتبين ١ / ١١٥ .

(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .

(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب .

١ - إيجاز قصر ٢ - إيجاز حذف

فإيجاز القصر هو الدلالة على المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة، أى: تضمين العبارات القليلة القصيرة معانى كثيرة غزيرة دون أن يكون فى تراكيبها لفظ محذوف . . كما فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(١)، فقد جمع فى هذه الآية الكريمة جميع مكارم الأخلاق؛ لأن فى «العفو» الصفح والإغضاء ومسامحة من أساء والرفق فى كل الأمور، وفى الأمر بالعرف: صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة، وغض الطرف عن كل محرم، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله عز وجل، وفى الإعراض عن الجهال: الصبر والحلم وكظم الغيظ . . فهذه ألفاظ قليلة وقد فاضت معانيها إلى الغاية، وزادت عن الحد إلى غير نهاية . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(٢)، فقد دلت هذه الجملة من الآية الكريمة على استقصاء جميع الأشياء والشئون، حتى روى أن ابن عمر رضى الله عنهما قرأها فقال: «من بقى له شىء فليطلبه» . . ومنه قوله عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ (٣)، فهذه الجملة يدخل تحتها كل أمر محبوب وينتفى بها كل صنوف المكاره . . وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾(٤)، فتلك ثلاث كلمات حوت معانى غزيرة، إذ شملت الأمر بالنفير العام للجهاد، وقطعت جميع الحجج والذرائع المعوقة عن الجهاد . . وقوله عز وجل: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾(٥)، فقد دلت هذه الآية الكريمة على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للناس وللدواب من عشب وشجر وحطب ولباس ونار وماء وغير ذلك . . وانظر إلى قوله عز من قائل فى وصف إنهاء الطوفان: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٦)، فقد قصت القصة مستوعبة بحيث لم يخل بشىء منها فى أوجز عبارة وأخصر قول . . ومن المشهور فى هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(٧)، إذ المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ كان ذلك قوياً له إلى أن يكف عن القتل ولا يقدم عليه فأوجب ذلك حياة الناس، فانظر كيف اندرجت المعانى المتكاثرة تحت هذه الألفاظ القليلة . . وقد كان أوجز كلام قيل فى هذا المعنى، قول

---

(١) سورة الأعراف: ١٩٩ .
(٢) سورة الأعراف: ٥٤ .
(٣) سورة الأنعام: ٨٢ .
(٤) سورة التوبة: ٤١ .
(٥) سورة النازعات: ٣١ .
(٦) سورة هود: ٤٤ .
(٧) سورة البقرة: ١٧٩ .

العرب: «القتل أنفى للقتل»، ولكن الآية الكريمة بنظمها الدقيق المعجز، وبلاغتها السامية، فاقت هذا القول من وجوه متعددة أهمها:

١ - فيما قالوه تكرار، والنظم الكريم لا تكرار فيه.

٢ - ليس كل قتل نافياً للقتل، إذ لا ينفى القتل القتل إلا إذا كان على حكم القصاص، وهذا ما تفيده الآية الكريمة دون القول المذكور.

٣ - فى الآية طباق لطيف بين القصاص والحياة.. والضد يظهر حسنه الضدد..

٤ - الآية جعلت القصاص كالأصل للحياة وذلك بدخول الحرف «فى» عليه، وفى ذلك مالا يخفى من المبالغة الجميلة والتخييل العجيب، إذ جعل الفناء محلاً للحياة..

٥ - الآية الكريمة أو جز من القول المذكور.

٦ - فى تنكير كلمة «حياة» إفادة للتعظيم والتنويع، فهى حياة عظيمة فريدة، تمتاز عن حياة البشر وكأنها حياة مستقلة خاصة، إذ إن من هم بالقتل عندما يعلم أنه سيقتص منه فإنه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل فيسلم صاحبه ويسلم هو فيحيا ويحيا صاحبه.. تلك حياة عظيمة فريدة..

٧ - خلو الآية الكريمة من لفظ «القتل» المشعر بالوحشة، وإشارتها إلى تحقيق العدل بلفظ القصاص...

ومن شواهد إيجاز القصر أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1] أي: لا شفاعة ولا طاعة فليس المراد نفى طاعة الشفيع بمعنى أن الشفيع يوجد ولكن لا يطاع، بل المراد أنه لا شفاعة أصلاً.. ومنه قول امرىء القيس:

على لا حب لا يهتدى بمناره ... إذا سافه العود النباطى جرجرا[2]

أي: لا منارة ولا اهتداء.. وقول أوس بن حجر:

---

(١) سورة غافر: ١٨.

(٢) اللاحب: الطريق. والمنار: العلامة تجعل على الطريق. وسافه: شمه، والعود: الجمل المسن، والنباطي: الضخم. وجرجر: ضج ورغا، وإنما يرغو الجمل لمعرفته ببعد الطريق ومشقة السير فيه.

لا يفـــزغ الأرنـــب أهوالهـــا ولا ترى الضـب بهـا ينجحـــر [1]

أي: لا أرنب ولا فزع، ولا ضب ولا انجحار . . ففى هذه الشواهد قد انتفى القيد والمقيد معاً، والنفى موجه إلى القيد فقط، ولا يخفى عليك ما فى هذا من إيجاز . . وانظر إلى قول الشريف الرضى:

مالوا إلى شعب الرحال وأسندوا أيدى الطعـــان إلى قلـــوب تخفق [2]

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة فى أثناء وصفهم بالغرام عبر عن ذلك بقوله: وأسندوا أيدى الطعان إلى قلوب تخفق . .

وقول أبى تمام:

وظلمت نفسك طالباً إنصافهـــا فعجبـــت من مظلومـــة لم تظلـــم

أراد: أكرهتها على تحمل الصعاب والمشاق فأنصفتها بذلك إذ أوجبت لها مجداً عريقاً وذكراً حسناً، فصارت بهذا الصنيع مظلومة لم تظلم . .

وقول الآخر:

وإن هو لم يحمل عن النفس ضيمها فليس إلى حسـن الثنـاء سبيـــل

فقد جمع فى البيت الصفات الحميدة من شجاعة وسماحة ومروءة ونجدة وإغاثة ملهوف وغير ذلك؛ لأن هذه الصفات من ضيم النفس، إذ تجد بحملها مشقة وعناء . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أوتى جوامع الكلم، والكلام الجامع هو الذى تتكاثر معانيه وتقل ألفاظه، ومن جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار» «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» «إن الله لا يمل حتى تملوا» «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد» فتلك ألفاظ قليلة حوت معانى كثيرة يطول بك القول لوصفها والإحاطة بها . . . ومن إيجاز الكتاب، ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى المأمون بشأن رجل يهمه أمره إذ قال فى كتابه: «كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله» . .

---

(١) ينجحر: يدخل جحره. . يصف مفازة بأنها غير مطروقة للناس.

(٢) شعب الرحال بضم الشين: خشبها، وميلهم إليها إشارة إلى ركوبهم عليها ورحيلهم للقتال. وتخفق: تضطرب لفراق الأحبة.

وما كتبه إليه أيضاً يحثه على تعجيل أرزاق الجند: «كتابى إلى أمير المؤمنين، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم، فاختلت لذلك أحوالهم والتأثث معه أمورهم» ولا يخفى عليك ما فى الكتابين من معان غزيرة صيغت فى عبارات قليلة وألفاظ موجزة، وهذا هو شأن إيجاز القصر الذى يجرى مجرى الأمثال فى الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة . .

انظر إلى ما كتبه جعفر بن يحيى البرمكى ووقع به فى كتاب رجل شكا إليه بعض عماله: «قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت» . .

أما إيجاز الحذف، فقد عرفه البلاغيون بأنه: التعبير عن المعانى الكثيرة فى عبارة قليلة وذلك بحذف شىء من التركيب مع عدم الإخلال بتلك المعانى . . ولا بد فى كل حذف من وجود أمرين: داع يدعو إليه، وقرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه . . والمحذوف إما أن يكون جزء كلمة، أو كلمة أو جملة أو أكثر من جملة . . ، إليك بيان ذلك:

حذف جزء الكلمة:

كما فى قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]، فالأصل: ولم أكن بغيا وقد حذفت النون تخفيفاً . . وقوله عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[2]، فى قراءة من قرأ بترخيم المنادى، والأصل: يا مالك، فحذفت الكاف إشارة إلى ما هم فيه من ألم وعذاب وضيق وحزن . .

ومنه قول لبيد:

* درس المنا بمتالع فأبان *

أراد: درس المنازل . . ومنه قول علقمة بن عبدة:

كأن إبريقهم ظبى على شرف   مقدم بسبا الكتان ملثوم

أراد: بسبائب الكتان . . وقول الحارث الجرمى:

---

(١) سورة مريم: ٢٠ .

(٢) سورة الزخرف: ٧٧ .

قــومى هــم قتلوا أميــم أخى   فــإذا رميــت يصيبنى سهمــى

أراد: يا أميمة، فحذف حرف النداء، ورخم المنادى فحذف منه التاء . . وارجع إلى باب المسند إليه فى الجزء الأول من هذا الكتاب لتقف على الأسرار البلاغية الكامنة وراء الحذف فى هذه الشواهد . .

حذف الكلمة: وله صور كثيرة أهمها:

١ - حذف الحروف، كحذف همزة الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ**﴾(١)، إذ المراد: أمثل الجنة التى وعد المتقون كمن هو خالد فى النار . . ؟ فحذفت الهمزة، وفى حذفها زيادة تصوير لعناد المعاندين ومكابرة المكابرين الذين يسوون بين الحق والباطل وبين من يتمسك بالبينة ومن يتبع هواه . . يقول الزمخشرى: «فإن قلت»: مامعنى قوله تعالى: «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار . . كمن هو خالد فى النار»؟، قلت: هو كلام فى صورة الإثبات ومعنى النفى والإنكار، لا نطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله فى حيزه وانخراطه فى سلكه وهو قوله تعالى: ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله**﴾ ، فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار ؟، أى: كمثل جزاء من هو خالد فى النار، فإن قلت: فلم عرى من حرف الإنكار وما فائدة التعرية ؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التى تجرى فيها تلك الأنهار، وبين النار التى يسقى أهلها الحميم . . » (٢) . . ومنه قوله تعالى ﴿**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾(٣)، إذ المراد: أو تلك نعمة . . ؟ وقوله عز وجل: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾(٤)، ، أى: أو من ذريتى ؟ . . فحذفت الهمزة فى الموضعين» (٥) . . وكحذف «لا» النافية كما فى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا**

(١) سورة محمد: ١٥ .
(٢) الكشاف ٣ / ٥٣٣ .
(٣) سورة الشعراء: ٢٢ .
(٤) سورة البقرة: ١٢٤ .
(٥) ارجع إلى أسرار هذا الحذف في رسالتنا الحذف في ضوء أساليب القرآن.

تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[1]، أى: لا تفتأ.. وكحذف حرف النداء كما فى الآية الكريمة: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا..﴾[2].. وكما فى البيت:

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

إذ المراد: يا يوسف أعرض.. يا أميمة. فحذف حرف النداء[3].

٢ - حذف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل كالمفعول والحال والجار والمجرور، على نحو ما مر بك فى تلك الأبواب.

٣ - حذف المضاف، كما فى قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[4]، أى أهل القرية وأصحاب العير، فحذف المضاف فى الموضعين، وحذفه يشير إلى شهرة السرقة وذيوعها وكأنهم يريدون: أن أمر سرقته قد اشتهر وذاع إلى حد أنك لو سألت الجمادات لأجابت، ولو سألت الحيوانات لنطقت وأخبرت.. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾[5]، إذ المراد: ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع، فحذف المضاف وهو «داعى» رفعاً لشأنه وتنزيها له عن أن يقرن فى اللفظ بهذا الذى ينعق بما لا يسمع وأن يضاف إلى الذين كفروا.. وحذف المضاف يقع كثيراً فى النظم الكريم على نحو ما ترى فى الآيات الكريمة: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ أي: في سبيل الله ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ أى: تناول طيبات ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أى: رحمة الله ونعيم اليوم الآخر ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ أي: من عذابه، وقد ظهرت هذه المضافات فى الآية الكريمة: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ ومنه قوله عز وجل: ﴿فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ أى: فى مراودته.

٤ - حذف المضاف إليه: كما فى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[6]، أى: بعشر ليال، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[7]، أى: من قبل الغلب ومن بعده.

---

(١) سورة يوسف: ٨٥. (٢) سورة يوسف: ٢٩.

(٣) ارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٤) سورة يوسف: ٨٢. (٥) سورة البقرة: ١٧١.

(٦) سورة الأعراف: ١٤٢. (٧) سورة الروم: ٤.

٥ - حذف الموصوف: كما فى قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾(١)، أى: حور قاصرات الطرف . . وقوله عز وجل: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٢)، أى: وعمل عملاً صالحاً فاكتفى بالصفة عن الموصوف فى الآيتين لذيوع الصفة وشهرتها.

٦ - حذف الصفة: كما فى قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾(٣)، أى: يأخذ كل سفينة صالحة، بدليل قوله: «فأردت أن أعيبها . .»، والحذف هنا يوحى بجبروت هذا الملك وإفساده وشدة ظلمه، فغصبه ليس قاصراً على الصالح من السفن، بل تجاوزه إلى غير الصالح، فغايته هى الغصب والاستيلاء، فالحذف فى الآية يصور مدى طغيان الملك وشدة ظلمه.

٧ - حذف القسم: كقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٤)؛ أى: تاللّه لئن لم ينته وقوله عز وجل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾(٥)، أى: واللّه لئن لم يفعل، فحذف القسم فى الموضعين.

٨ - حذف جواب القسم: كقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾(٦)؛ فقد حذف جواب القسم لوضوحه وبيانه، وتقديره: لتبعثنَّ.

٩ - حذف الشرط: كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٧)، وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾(٨)، والتقدير: فإن تتبعونى يحببكم اللّه . . فإن تتبعنى أهدك صراطاً سوياً.

١٠ - حذف جواب الشرط: كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٩)، أى: أعرضوا بدليل قوله بعده: ﴿وما تأتيهم آية من آيات

---

(١) سورة ص: ٥٢.
(٢) سورة مريم: ٦٠.
(٣) سورة الكهف: ٧٩.
(٤) سورة الأحزاب: ٦٠.
(٥) سورة يوسف: ٣٢.
(٦) سورة الفجر: ١-٥.
(٧) سورة آل عمران: ٣١.
(٨) سورة مريم: ٤٣.
(٩) سورة يس: ٤٥.

ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ وهذا الحذف يشير إلى أنه كان ينبغى لهم أن يستجيبوا ويقبلوا النصح فيحققوا التقوى، وما كان ينبغى لهم الإعراض والتولى؛ وكأن طيه من اللفظ ينبىء بضرورة التخلى عنه وإسقاطه من الأذهان والمسارعة إلى قبول الهداية والحق . . ومنه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1]؛ والتقدير: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها سعدوا وحصلوا على النعيم المقيم الذى لا يحيط به الوصف . . . وبلاغة حذف الجواب هنا تكمن فى أن النفس تذهب فى تقدير الجواب المحذوف كل مذهب، وفى الدلالة على أنه شىء لا يحيط به الوصف ولا تتسع له العبارة . . وتأمل ما وراء هذه الواو «وفتحت» من تكريم وتشريف لهؤلاء الذين اتقوا، فقد فتحت لهم أبواب الجنة قبل أن يأتوها تكريماً لهم وتعظيماً لشأنهم، ثم انظر إلى وصف الذين كفروا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[2]، تجد أن «فتحت» قد جاءت بدون واو فهى جواب «إذا»، ومجيئها بدون الواو يشير إلى شدة مواجهتهم بالعذاب، فأبواب جهنم مغلقة لا تفتح إلا عند وصولهم إليها «إذا جاءوها فتحت أبوابها» حتى تواجههم بصنوف العذاب وألوان الآلام . . . أما أبواب الجنة فتفتح قبل مجىء الذين اتقوا وتجهز قبل وصولهم وتعد، تكريماً لهم وتعظيماً ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾[3] . . ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[4] . . وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾[5] . والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً وشيئاً فظيعاً لا يحيط به الوصف، فقد حذف الجواب هنا قصداً إلى إفادة التهويل والتفظيع . . ومن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[6]، والتقدير: لو أن قرآنا أوتى تلك القوة الخارقة لكان هذا القرآن، فحذف جواب «لو» هنا يشير إلى وضوحه وظهوره وانصراف الأذهان إليه بمجرد التلفظ بجملة الشرط . .

١١ - حذف جواب الاستفهام: كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[7]، فحذف جواب

---

(١) سورة الزمر: ٧٣ .
(٢) سورة الزمر: ٧١ .
(٣) سورة ص: ٥٠ .
(٤) سورة السجدة: ١٢ .
(٥) سورة الأنعام: ٢٧ .
(٦) سورة الرعد: ٣١ .
(٧) سورة التوبة: ١٢٧ .

الاستفهام وتقديره: «لا يرانا من أحد» بدليل قوله: «ثم انصرفوا»، لأنهم لم ينصرفوا إلا بعد تأكدهم من أنه لا أحد يراهم، والحذف هنا يشير إلى حذرهم ومبلغ حيطتهم وكأن الجواب كان همساً فى الآذان وليس أصواتاً مسموعة . .

١٢ - حذف المعطوف: كما فى الآية الكريمة: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[١]، أى: لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه .

حذف الجملة:

والمراد بالجملة، الجملة التامة التى تفيد معنى مستقلاً ولا تكون جزءاً من كلام آخر، ولهذا لا يدخل فيها حذف المعطوف وحذف الأجوبة: جواب القسم وجواب الشرط وجواب الاستفهام؛ لأنها وإن كانت جملة فهى لا تستقل بالإفادة، بل هى جزء من كلام آخر ومن أجل هذا عددناها من قبيل حذف الكلمة . . ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٢]، والتقدير: فضرب فانفجرت، فحذفت جملة: ضرب، وحذفها يشير إلى سرعة إجابة موسى - عليه السلام - وامتثاله لأمر ربه . . ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[٣]، والمعنى: فعل ما فعل من كسر قوة أهل الشرك، ليحق الحق ويبطل الباطل . . وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤]، فحذفت الجملة الحال والتقدير: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان: ربنا تقبل منا . . وهذا الحذف يصور لنا المشهد حياً بارزاً، مشاهداً وكأنك تراه الآن، وتشاهد إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان بهذا الدعاء . فكم فى الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز فنى بارز يكمن وراء طى جملة الحال[٥] . .

ومنه قول أبى الطيب:

---

(١) سورة الحديد: ١٠ .
(٢) سورة البقرة: ٦٠ .
(٣) سورة الأنفال: ٨ .
(٤) سورة البقرة: ١٢٧ .
(٥) التصوير الفني فى القرآن ص ٥٩ .

أتى الزمـــان بنـــوه فى شبيبتـــه   فســرهــم وأتينـــاه على الهـــرم

أي: وأتيناه على الهرم فساءنا، والحذف فى البيت ينبيء بما فى نفس الشاعر من ضيق وألم لإدبار الدهر عنه وعدم تحقيق ما يصبو إليه من مجد وآمال . .

حذف أكثر من جملة:

كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾(1)، والتقدير: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال له: يوسف أيها الصديق أفتنا . . ومثله قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾(2)، والتقدير: فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم . . ويكثر هذا الحذف فى النظم القرآنى ولا سيما فى ميدان القصص حيث يستغنى عن التفصيلات الجزئية التى تعرف من السياق وتفهم من قرائن الأحوال، ففى تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية فى القصة وإبرازها جلية واضحة، وفى تخطيها أيضاً حيث للمخاطب وتحريك لمشاعره وإثارة لذهنه، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها من خلال تأمله وتدبره أحداث القصة ووقوفه على سياقها وقرائن أحوالها . .

قرائن الحذف:

ولا بد فى الحذف من قرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه، وإلا كان الحذف عبثاً وضرباً من الهذيان إذ يؤدى عندئذ إلى اللبس والإشكال وعدم فهم المراد . . وقرائن الحذف قد تكون لفظية، كما فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(3)، فقد حذف خبر «اللآئى لم يحضن»، لدلالة خبر «اللائى يئسن» عليه وتعيينه له، والتقدير: واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك . . ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(4)، فقد حذف جواب الشرط وتقديره: وإن يكذبوك فاصبر، ودلت عليه القرينة اللفظية وهى: «فقد كذبت رسل من

(1) سورة يوسف: ٤٥، ٤٦ .   (2) سورة الفرقان: ٣٦ .
(3) سورة الطلاق: ٤ .   (4) سورة فاطر: ٤ .

قبلك» فهذه الجملة ليست هي جواب الشرط وإنما هي علة لجواب الشرط المحذوف، وفيها تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كي لا يحزن لإعراضهم وتكذيبهم . .

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[1]، فقد دل المذكور: «من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا» على المحذوف والتقدير: لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل . . . هذا ولا يشترط فى المحذوف أن يكون من جنس المذكور، بل الذى ينبغى مراعاته أن يدل المذكور على المحذوف دلالة واضحة بينه، ولذا لا أرى عيباً فى بيت عروة ابن الورد:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

إذ حذف الجار والمجرور من القتل الأول لدلالة «عند الوغى» عليه دلالة بينة ظاهرة، والتقدير: إذ يقتلون نفوسهم فى السلم . . ولا فى قول الحارث بن حلزة:

والعيش خير فى ظلا ل النوك ممن عاش كدا

أراد: والعيش الناعم فى ظلال الحمق خير من العيش الشاق فى ظلال العقل، فحذف «الناعم» لدلالة «كدا» عليه، وحذف العقل لدلالة «النوك» عليه . . ولا فى قول الآخر:

أعاذل عاجل ما أشتهى أحب من الأكثر الريث

أراد: عاجل ما أشتهى مع القلة أحب من الأكثر المبطىء، فحذف لفظ «القلة»، لدلالة قوله: «الأكثر» عليه، . . ويرى كثير من البلاغيين أن المحذوف ينبغى أن يكون من جنس المذكور ولذا عدوا الحذف فى الأبيات المذكورة، مخلاً بالمعنى ومفسداً له، لأن المذكور ليس من جنس المحذوف، فهو غير واف فى الدلالة عليه، ولا أرى - كما بينت - إخلالاً فى الأبيات، بل أرى أن القرينة اللفظية فيها قد دلت على المحذوف دلالة واضحة وافية . وهذا هو ما ينبغى أن يعتد به ويعول عليه، ولا يشترط فى القرينة اللفظية أن تكون من جنس ما حذف . .

انظر إلى قول المتنبى السابق:

---

(١) سورة الحديد: ١٠ .

أتى الزمـــان بنـــوه فى شبيبتـــه		فسرهـــم وأتينـــاه على الهـــرم

تجد أن قوله: «فسرهم» قد دل على المحذوف وتقديره: فساءنا، دلالة واضحة بينة وهو ليس من جنسه كما ترى . . وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾[1]، إذ المعنى - والله أعلم - أمرناهم بالطاعة ففسقوا، فقد حذفت «الطاعة» لدلالة قوله: «ففسقوا» عليها وهو ليس من جنسها.

وبهذا يتضح لك أن القرينة اللفظية لا يشترط فيها أن تكون من جنس المحذوف، بل يشترط أن تكون واضحة الدلالة عليه سواء أكانت من جنسه أم من غير جنسه[2] . .

وقد تكون القرينة معنوية، تفهم من السياق وقرائن الأحوال دون أن يصرح فى العبارة بما يدل على المحذوف . . كما فى قوله جل وعلا: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[3]، فالمعنى ـ والله أعلم ـ وجاء أمر ربك، لأن العقل لا يجوز مجئ الرب، بل الذى يأتى هو أمره أو عذابه أو بأسه ونحو ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾[4]، أى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله أو أمره . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾[5]، أى: حرم عليكم تناول هذه الأشياء؛ لأن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[6] ، إى: نكاحهن، ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[7]، أى: فى حبه أو مراودته، وسياق الآيات الكريمة ينطق بالمحذوف: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[8]، ولا يعد هذا من قبيل القرينة اللفظية، لأنه ليس مذكوراً فى نفس الآية، والمخاطب يحتاج إلى مراجة طويلة للسياق وتدبره حتى يقف على المحذوف . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[9]، أى: سل أهل القرية التى كنا فيها وأصحاب العير . . . ، لأن السؤال لا يوجه

---

(١) سورة الإسراء: ١٦ .
(٢) ارجع إلى الحذف في ضوء أساليب القرآن.
(٣) سورة الفجر: ٢٢ .
(٤) سورة البقرة: ٢١٠ .
(٥) سورة المائدة: ٣ .
(٦) سورة النساء: ٢٣ .
(٧) سورة يوسف: ٣٢ .
(٨) سورة يوسف: ٣٠ .
(٩) سورة يوسف: ٨٢ .

إلا إلى ذوى العقول والتمييز . . وقوله عز قائلا : ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾[1]، أى : لو نعلم أن المكان مكان قتال، لأنهم كانوا أخبر الناس بالحرب وفنون القتال فكيف يقولون : إنهم لا يعرفونها ؟ لا بد إذاً من حذف قدره المفسرون بقولهم : مكان قتال . . ومنها قولك لمن أعرس : بالرفاء والبنين، فقد دلت الحال على المحذوف وتقديره : بالرفاء والبنين أعرست . . إلى غير ذلك من القرائن التى تدل على المحذوف وترشد إليه .

❒ ❒ ❒

الإطناب .. معناه وأنواعه:

والإطناب فى اللغة : مصدر أطنب، يقال : أطنب فى كلامه، إذا بالغ فيه وطول ذيوله . وفى عرف البلاغيين معناه : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو عرض المعنى فى عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة، كما فى قوله عز وجل : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2]، فقد أراد زكريا - عليه السلام - أن يخبر بكبره وتقدم سنه، فجعل الألفاظ زائدة على المعانى لفائدة وهى : إظهار ضعفه، وتأكيد الوهن، لأنك لو قلت : رب إنى قد كبرت، أفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط، دون ظهور الضعف، إذ قد تكون مع تقدم سنك قوياً نشيطاً، أما الآيات فقد أخبرت عن هذا المعنى «تقدم السن» بوهن العظم، واشتعال الشيب، لتظهر ضعفه بجانب تقدم سنه، فالزيادة فى الألفاظ - كما ترى - إنما هى لفائدة . . ومنه قوله عز وجل : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[3]، فقد كان يكفى فى الجواب أن يقول موسى - عليه السلام - : عصا، ولكنه أطنب وفصل فأضاف العصا إليه وذكر وظائفها بعضها مفصلاً : «أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى»، وبعضها مجملاً : «لى فيها مآرب أخرى» ولعله كان يطمع فى أن يسأل عن هذه المآرب فيجيب عنها وبهذا يمتد الحديث ويطول؛ لأنه فى مقام رب العزة، وهو مقام يحلو فيه الإطناب، لأنه مقام تعظيم وتشريف، فالزيادة فى الجواب - كما ترى - تحقق فائدة .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٧ .

(٢) سورة مريم : ٤ .

(٣) سورة طه : ١٧ ، ١٨ .

فإذا لم تحقق الزيادة فائدة فى الكلام كانت تطويلاً أو حشواً، وذلك أنها إذا كانت غير متعينة، كالمترادفين مثل: الكذب والمين، والنأى والبعد، وأقوى وأقفر، ونوم ونعاس، وحظ ونصيب . . سميت الزيادة تطويلاً . . من ذلك قول عدى بن الرقاع:

وقـددت الأديـم لراهشيـه ... وألقـى قولهـا كذبـاً وميـنـا (١)

فالكذب والمين بمعنى واحد ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما . . وقول عنترة:

حييت من طلل تقـادم عهـده ... أقـوى وأقفـر بعـد أم الهيثـم

فأقوى وأقفر بمعنى واحد، ولا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت . . . وكقول الحطيئة:

قالت أمامـة لا تجزع فقلت لهـا ... إن العـزاء وإن الصبـر قـد غلبا

هلا التمست لنا إن كنت صادقـة ... مالا نعيش به فى النـاس أو نشبـا (٢)

فالعزاء والصبر بمعنى واحد وكذا المال والنشب . . وكقول الآخر:

ألا حبذا هنـد وأرض بهـا هند ... وهند أتى من دونها النأى والبعد

فالنأى والبعد بمعني واحد، وإذا أسقطت إحدى الكلمتين لا يتغير المعنى، أى أنه لم يتعين أى الكلمتين هو الزائد.

هذا والحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التى قيلت فى جوها الكلمة، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة لا تستطيع أن تحكم بزيادة إحدى الكلمتين كما قال البلاغيون؛ لأن المقام فى الأبيات يقتضى التأكيد، ومن شأن الترادف أن يفيد التأكيد، ثم إن الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحداً، بل ذكر كثير من العلماء أن كل لفظ من الألفاظ المترافة له ظلال جانبية وإفادات جزئية تختلف عن الآخر . . ولذا لا نستطيع القول بأن أحد اللفظين المترادفين فى الأبيات المذكورة زائد، بل إنه مؤكد للآخر والمقام - كما ذكرت - قد اقتضى هذا التأكيد.

---

(١) قددت: قطعت، والفاعل المستتر يعود إلى الزباء ملكة تدمر والأديم: الجلد والراهشان: عرقان في باطن الذراع والضمير المضاف إليه يعود لجذيمة بن الأبرش ملك الحيرة وقصتهما مشهورة.

(٢) النشب: بفتح النون والشين: المال الأصيل ويطلق أيضًا على العقار، يقال: نشب ونشبة ومنشبة.

وإذا كانت الزيادة متعينة سميت حشواً، والحشو نوعان :

١ - حشو يفسد به المعنى كقول المتنبى :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شَعوب [١]

فكلمة : «الندى» فى البيت حشو أفسد المعنى، إذ المراد لا فضل فى الحياة للشجاعة والصبر والندى لولا الموت واعتقاد الشجاع والصابر والجواد أنهم ملاقو الموت، وهذا صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر؛ فاسد بالنسبة للندى، إذ الشجاع لو علم أنه مخلد لن يصيبه الموت، لكان إقدامه وشجاعته لافضل فيهما، لأنه أقبل على البطولة وهو على يقين بأن الموت لن يصيبه، وكذا الصابر عندما يعلم أنه لن يموت، يكون صبره لا فضل فيه، وإنما تظهر مزية الشجاعة والصبر عندما يعلم صاحبهما أن الموت أمامه ثم يقبل أو يصبر فعندئذ يكون للإقدام مزية وللصبر فضل . .

أما الندى فتظهر مزيته ويبدو فضله إذا علم صاحبه أنه مخلد ولن يموت، لأن علمه بأن الموت لن يلقاه، يدعوه إلى الإمساك وادخار المال كى ينتفع به إذ هو مخلد، فإذا جاد به عندئذ ظهر لجوده فضل وبدت له مزية، أما إذا علم أن الموت أمامه وسيلقاه لا محالة، فهذا يدعوه إلى البذل والعطاء، ولا فضل للندى عندئذ، إذ يقول لو عوتب فى بذل المال وإنفاقه : كيف لا أبذل مالا أبقى له ولا أثق بأننى سأتمتع به ؟ ولذا يقول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويقول مهيار الديلمى :

فكل إن أكلت وأطعم أخاك فلا الزاد يبقى ولا الآكل

فالشجاعة والصبر لولا الموت لم يحمدا، والندى بالضد، ولذا كانت كلمة الندى فى البيت حشواً مفسداً للمعنى، وقد اعتذر للشاعر بأنه يريد بذل النفس لا بذل المال، على حد قول مسلم بن الوليد :

---

(١) شعوب بفتح الشين : علم جنس للمنية وهي الموت وقد جر بالكسرة من أجل الروى لأنه مما لا ينصرف فجره بالفتحة.

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ورد هذا الاعتذار بأن لفظ «الندى» لا يكاد يستعمل فى بذل النفس وإن استعمل فعلى وجه الإضافة، أما مطلقاً فلا يفيد إلا بذل المال .

٢ - حشو لا يفسد به المعنى، كما فى قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

فكلمة «قبله» مستغنى عنها فهى حشو، ولكن ذكرها لا يفسد المعنى. . . ومثله قول الآخر فى رثاء أخ له :

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب

فلفظ الرأس فى البيت حشو لا فائدة فيه، لأن الصداع لا يكون إلا فى الرأس، وليس بمفسد للمعنى، ويؤخذ على الشاعر أيضاً، أن مقام الرثاء لا يناسبه ذكر الصداع وألم الرأس، بل الملائم له، ألم القلب واحتراقه . . ومنه قول أبى عدى العبلى الأموى :

نحن الرءوس وما الرءوس إذا سمت فى المجد للأقوام كالأذناب

فقوله : «للأقوام» حشو لا فائدة فيه وهو غير مفسد للمعنى .

وقول البوصيرى :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم (١)

فقوله : «من مقلة» حشو لا فائدة فيه، لأن الدمع لا يجرى إلا من العين، وهو حشو غير مفسد للمعنى . . وقول المتنبى :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتى لرأيت فيه جهنم

فقوله : «يا جنتى» حشو غير مفسد للمعنى، وقد استحسنه البعض لإفادته معنى لطيفاً حيث طابق الشاعر بينه وبين «جهنم» . .

هذا - وكما ذكرت لك - ينبغى أن تعلم أن الحكم بزيادة كلمة وعدم فائدتها، تابع للمقام والحال التى قيلت فى جوها الكلمة، ولاتستطيع أن تقطع بعدم الفائدة إلا إذا

(١) ذو سلم : مكان على طريق البصرة إلى مكة .

أحطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة والتى استشهد بها البلاغيون للحشو غير المفسد يتضح لك أن تلك الكلمات التى حكموا بزيادتها وحشوها، قد أفادت معنى اقتضاه المقام . . تأمل: «دمعاً جرى من مقلة» . «وأعلم علم اليوم والأمس قبله . . » . . عاودنى صداع الرأس . . «وما الرءوس إذا سمت فى المجد للأقوام . . » تجد أن تلك الكلمات: «مقلة، قبله، الرأس، للأقوام» قد أفادت تأكيداً اقتضاه المقام، وهذا التأكيد لا يفاد بطيها، ولذا لا نوافق البلاغيين فى قولهم بأنهاحشو ولا فائدة فيها . . . ونحن نقول: ذقته بفمى ورأيته بعينى وسمعته بأذنى ووطأته بقدمى، ولا يقول أحد إن تلك الكلمات: بفمى، بعينى بأذنى، بقدمى، «زائدة» لأنها أفادت تأكيداً اقتضاه المقام، واقرأ قوله عز وجل: ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ** ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾[3].

تجد أن التلقى لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا من الفم، والقلب لا يكون إلا بالجوف، والسقف لا يكون إلا من فوق، ولا يقول قائل: إن هذه الألفاظ زائدة وليس وراءها فائدة، لأن المقام قد اقتضاها والمعنى قد تطلبها، فالآية الأولى مسوقة للرد على أهل الإفك وإنكار ما قالوه وخاضوا فيه، فقد رموا بفاحشة الزنا إلى من هى ظاهرة العفاف والستر وهذا افتراء عظيم وإثم كبير، فالمقام إذاً يقتضى أن يسجل عليهم ما خاضوا فيه، وأنه قد خرج من أفواههم وانبعثت به ألسنتهم، ليكون فى ذلك مبالغة فى الإنكار والرد . . وقل مثل هذا فى الآية الثانية فهى مسوقة لإنكار الظهار وإنكار التسوية بين الأبناء والأدعياء . ولإفادة أن من يفعل هذا فيسوى بين الزوجة والأم فى التحريم وبين ابنه ومولاه فى الحقوق يكون كمن يجمع قلبين فى جوف واحد، وقد اقتضى هذا أن يؤكد الكلام بذكر

---

(١) سورة النور: ١٥ .

(٢) سورة الأحزاب: ٤ .

(٣) سورة النحل: ٢٦ .

الجوف . . وتأمل إيثار التعبير بلفظ «لرجل»، وما يكمن وراءه من شدة المبالغة فى الإنكار، وذلك أن المرأة قد يتصور وجود قلبين فى جوفها، أما الرجل فلا يمكن أن يتصور وجود قلبين فى جوفه بحال من الأحوال . . والآية الثالثة مسوقة للتخويف والترهيب وهذا يقتضى تأكيد ما حل بمن مكروا قبلهم، فقد أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فكلمة «من فوقهم» أفادت من التهويل والتخويف مالا يفيده طيها.

وبهذا يتضح لك أن الأمر يحتاج إلى مراجعة دقيقة للسياق والوقوف على قرائن أحواله . فالنظرة السريعة العاجلة تجعلك تظن أن الكلمة زائدة ولا معنى لها فى النظم فهى حشو، ولكن عند التأمل ومراجعة السياق مراجعة دقيقة واعية يظهر لك أن المقام قد اقتضاها وأن هنالك معنى دقيقاً يكمن وراءها ولو طويت لما أفيد ذلك المعنى.

❐ ❐ ❐

أنواع الإطناب وما يكمن وراءها من دقائق بلاغية:

ويقع الإطناب فى الكلام على أنواع مختلفة أهمها ما يلى:

١- الإيضاح بعد الإبهام: وهو أن يجعل المعنى ويبهم ثم يفصل ويبين فيبدو فى صورتين مختلفتين، وعندئذ يقع فى النفس أطيب موقع ويتمكن لديها أفضل تمكن، لأن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تطلعت النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فعندما يأتى هذا التفصيل وذاك الإيضاح، يكون أشد وقعاً وأقوى أثراً؛ لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع وهم يقولون: إن الشىء إذا نيل بعد طلب ومشقة وبحث وتنقيب، يكون أوقع فى النفس وأشد تأثيراً، ويحدث لها بالوقوف عليه لذة ومتعة . . . من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ**﴾(١)، فقد أبهمت الآية ما قضى به إلى لوط - عليه السلام - «ذلك الأمر»، ثم فصلته وبينته: «أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين»، ففى الإبهام إثارة للمخاطب وتحريك

---

(١) سورة الحجر: ٦٦ .

لفكره فيتطلع إلى إيضاح ما أبهم، وعندئذ يأتى الإيضاح فيتقرر المعنى فى ذهن المخاطب ويقع موقعه، وفى هذا تفخيم وتهويل للعذاب الذى حل بهم، لأنه ذكر مرتين، مرة على طريق الإجمال والإبهام ومرة على طريق التفصيل والإيضاح، والشىء إذا ذكر مرتين كان آكد فى الذهن رأشد تعلقاً والتصاقاً بالنفس . . ومنه قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾(١)، ذكرت الوسوسة مجملة ثم فصلت بما بعدها وعندما أجملت اشتاقت النفس وتطلعت إلى معرفتها والوقوف عليها، فلما جاء البيان وقع فى النفس موقعاً حسناً . وكذا القول فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾(٢)، ذكر ما أمدهم به مجملاً فتطلعت النفس إلى معرفته، ثم فصل وبين فوقع فى الأنفس موقعه . . وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾(٣)، أجملت التجارة التى تنجى من العذاب، ثم فصلت وبينت . . .
ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس نحو: نعم الرجل زيد وبئس الصديق عمرو، وذلك على جعل كل من «زيد وعمرو»، خبراً لمبتدأ محذوف، أو مبتدأمحذوف الخبر، فيكون الأسلوب مكوناً من جملتين إحداهما مبينة ومفسرة للأخرى، أما على جعل كل من «زيد وعمرو» مبتدأ والجملة قبله خبر، فليس مما نحن فيه، لأن الأسلوب عندئذ يتكون من جملة واحدة . . ومنه التوشيع وهو أن يؤتى فى عجز الكلام غالباً بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر، كقوله صلى الله عليه وسلم: «يشب ابن آدم وتشب معه خصلتان الحرص وطول الأمل .» وقوله عليه الصلاة والسلام: «الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنب»، وقول عبد الله بن المعتز:

سقتنى فى ليل شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب
فمازلت فى ليلين: شعر وظلمة ... وشمسين: من خمر ووجه حبيب

وقد يكون المثنى فى أول الكلام، كقوله صلى الله عليه وسلم: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال»، وقد لا يكون مثنى بل جمعاً، كما فى قول ابن وهيب:

---

(١) سورة طه: ١٢٠ .

(٢) سورة الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤ .

(٣) سورة الصف: ١٠، ١١ .

ثلاثة تشـرق الدنيـا ببهجتهـا   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

٢ - ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص: فمن الأول قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ...﴾[1]، فالروح وهو جبريل عليه السلام، قد ذكر مرتين، مرة مندرجاً تحت العام وهو الملائكة ومرة وحده، وكأنه جنس آخر غير جنس الملائكة المعطوف عليهم، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه، ففى الآية إطناب طريقه ذكر الخاص بعد العام والغرض منه التنويه بشأن الخاص حيث يذكر مرتين . . ومنه قوله عز وجل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[2]، فالصلاة الوسطى داخلة فى عموم الصلوات، وقد خصت بالذكر بعد العام تنبيهاً إلى مزيتها وزيادة فضلها . . وقوله جل وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3]، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر داخلان فى عموم الدعوة إلى الخير، ولكنهما خصا بالذكر بعد العام إشارة إلى مكانتهما من الشرف والفضل . . ومن الثانى قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ..﴾[4]، فالمؤمنون والمؤمنات لفظان عامان يدخل فيهما من ذكر قبل: «لى ولو الدى ولمن دخل بيتى مؤمناً»، والسر البلاغى الكامن وراء ذكر العام بعد الخاص هو العناية بشأن الخاص لذكره مرتين، مرة بلفظه، ومرة مندرجاً تحت العام . .

٣ - التكرار: ويأتى لأغراض كثيرة، منها إبراز المعنى وتقريره فى النفس، كما فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[5]، فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيراً، وأشد تخويفاً، وفى العطف بالحرف «ثم» ما ينبىء بأن الإنذار الثانى أقوى وأشد من الإنذار الأول، حيث نزل بعد المرتبة منزلة البعد الزمنى فعطف بثم، وفى هذا دلالة على التدرج فى الارتقاء . . ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[6]، فقد أفاد التكرار تأكيد المعنى وتقريره فى النفس . . ومنها استمالة المخاطب وترغيبه فى قبول النصح والإرشاد، كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[7]،

---

(١) سورة القدر: ٤ .
(٢) سورة البقرة: ٢٣٨ .
(٣) سورة آل عمران: ١٠٤ .
(٤) سورة نوح: ٢٨ .
(٥) سورة التكاثر: ٣ ، ٤ .
(٦) سورة الشرح: ٥ ، ٦ .
(٧) سورة غافر: ٣٨ ، ٣٩ .

ففى تكرار «ياقوم» استمالة لأنفسهم وترغيب لهم فى قبول الحق والاهتداء، ووراء حرف النداء «يا» الموضوع لنداء البعيد تعظيم لهم وتشريف ورفع لمنزلتهم، وفى إضافة القوم إليه «ياقومى»، مايبدد كل شك ويزيل كل ارتياب فى نصحه وإخلاصه لهم . . ومنها التذكير بنعم اللّه التى لا تحصى ولا تعد، كما فى قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]، فقد ذكر جل وعلا نعمه نعمة بعد نعمة فى هذه السورة الكريمة، وعقب كل نعمة بهذا الاستفهام الذى يفيد التنبيه إلى نعمه الكثيرة والتذكير بها، فإن قيل قد عقب بهذا الاستفهام ماليس بنعمة كما فى قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[3]، قلت: العذاب وجهنم وإن لم يكونا من آلاء اللّه تعالى، فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات، يعد من الآلاء والنعم، لأن التحذير من المعصيه والزجر عنها نعمة منه تعالى، إذ ينجم عن التحذير والزجر ابتعاد المؤمن عن المعاصى وعدم اقترابه منها[4] .

ومن أغراض التكرار المبالغة فى التحذير والتنفير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[5] ؛ فقد كررت هذه الآية الكريمة فى سورة المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى حيث أعقب كل قصة بهذا الوعيد «ويل يومئذ للمكذبين» وفى هذا ما فيه من التنفير والتحذير . . ومنها الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[6]، حيث كررت هذه الآية فى سورة القمر عقب كل قصة من قصص الأمم السابقة التى كذبت وأعرضت عن رسل ربها، فقد أخبرت عنهم السورة الكريمة وأبرزت نوع العذاب الذى حاق بكل أمة، وأتبعت كل قصة بهذه الآية الكريمة: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» حثاً على العظة والاعتبار والتأمل والتدبر . . ومنها أن يكرر اللفظ لطول فى الكلام كما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[7]، وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

---

(١) سورة الرحمن: ١٢ .

(٢) سورة الرحمن: ٣٥ .

(٣) سورة الرحمن: ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) انظر الإيضاح ٢ / ١٢٧ .

(٥) سورة المرسلات: ١٥ .

(٦) سورة القمر: ١٧ .

(٧) سورة النحل: ١١٠ .

وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)]، فقد كرر: «إن ربك» فى الآيتين الكريمتين لطول الكلام بين اسم إن «ربك» وبين خبرها «لغفور»، وفيه أيضاً تأكيد لمعنى الربوبية وإبراز لمعنى «الرب» المتفضل بالإنعام والمغفرة.

٤ – الإيغال: وهو ختم الكلام شعراً أو نثراً بما يفيد فائدة يتم المعنى بدونها، كما فى قول الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار [(٢)]

فقولها: «فى رأسه نار» إطناب، لأنها شبهت أخاها «صخراً» بالعلم وهو الجبل المرتفع المعروف ووجه الشبه هو الاهتداء بكل، وقد تم التشبيه عند قولها: «كأنه علم»، فختمت البيت بما يفيد قوة المبالغة فى التشبيه، إذا النار فى رأس الجبل تزيده وضوحاً وانكشافاً وهذا أدعى لتمام الهداية وكمالها.. ومثله قول ذى الرمة:

قف العيس فى أطلال مية فاسأل ... رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

أظن الذى يجدى عليك سؤالها ... دموعاً كتبذير الجمان المفصل [(٣)]

فقد تم التشبيه فى البيت الأول عند قوله: «رسوماً كأخلاق الرداء» وفى الثانى عند قوله: «دموعاً كتبذير الجمان»، فاختتم البيتين بما يفيد زيادة المبالغة فى التشبيه وهو قوله: «المسلسل والمفصل»..

ومنه قول امرىء القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب [(٤)]

---

(١) سورة النحل: ١١٩.

(٢) تأتم: تقتدي. والهداة: الذين يهدون الناس وإذا كانت الهداة تأتم به فمن باب أولى المهتدون بهم.

(٣) العيس: الإبل يخالط بياضها سواد خفيف مفردها: أعيس. والأطلال: جمع طلل وهو ما شخص من آثار الديار بخلاف الرسوم. والأخلاق جمع خلق وهو البالي. والمسلسل: الردئ النسج. ويجدي: يعطي ويفيد وعائد الموصول محذوف والتقدير يجدي به. والتبذير: التفريق. والجمان المفصل: اللؤلؤ المنظم.

(٤) الوحش: المراد به الظباء التي يصيدونها ويرمون أعينها حول خبائهم. والخباء: ما كان من وبر أو صوف لا شعر وقام على عمودين أو ثلاثة، وما فوقه: البيت. والأرحل: جمع رحل وهو المنزل والمأوى. والجزع: خرز فيه بياض وسواد على شكل دوائر.

حيث تم له التشبيه عند قوله: «الجزع» فاختتم البيت بما يفيد تحقيق التشبيه؛ لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بعيون الوحش، فقوله: «الذى لم يثقب» إيغال أفاد تحقيق التشبيه وجعله دقيقاً وتاما. . . ومثله قوله أيضاً:

حملت ردينيا كأن سنانه ... سنا لهب لم يتصل بدخان [(١)]

حيث أتى على التشبيه عند قوله: «كأن سنانه سنا لهب»، ثم اختتم البيت بإيغال أفاد دقة التشبيه وزيادة تحقيقة، وهو قوله «لم يتصل بدخان»؛ لأن سنان الرمح أكثر شبهاً بضوء اللهب الذى لم يتصل بدخانه . . وقول زهير ابن أبى سلمى:

كأن فتات العهن فى كل منزل ... نزلن به حب الفنا لم يحطم [(٢)]

فقد أتى على التشبيه بقوله «حب الفنا»، ثم اختتم البيت بما يفيد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه؛ لأن حب الفنا أحمر الظاهر أبيض الباطن فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا إذا لم يحطم، فقوله: «لم يحطم» إيغال حسن . .

ومنه قول الأعشى:

كناطح صخرة يوماً ليفلقها ... فلم يضرها وأوهى قونه الوعل [(٣)]

حيث تم له المعنى بقوله: «وأوهى قرنه»، ثم اختتم البيت بإيغال حسن وهو قوله «الوعل»؛ لأن الوعل ينحط من قلة الجبل على قرنه فلا يضره . .

ومن الإيغال فى النظم الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[(٤)]، فقوله جل وعلا: «وهم مهتدون» إيغال إذ المعنى قد تم بدونه لاهتداء الرسل قطعاً، والغرض منه زيادة الترغيب

---

(١) الرديني: رمح منسوب إلى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح. وسنا اللهب: ضوؤه. وسنان الرمح: حديدته، وجمعها: أسنة. وسميت بذلك لصقالتها وملاستها.

(٢) الفتات: اسم لما انفت وتقطع من الشيء. والعهن: الصوف المصبوغ. والفنا: عنب الثعلب، شبه فتات الصوف المصبوغ الذي زينت به الهوادج بحب الفنا في حمرته قبل تحطيمه؛ لأنه إذا حطم تزول حمرته.

(٣) الوعل: تيس الجبل. وجمعه: وعول وأوعال ووعل، والأنثى: وعلة.

(٤) سورة يس: ٢٠، ٢١.

والحث على اتباعهم والاقتداء بهم . . وقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1] ، فقوله : «مثل ما أنكم تنطقون» ، إيغال أفاد زيادة التوكيد والمبالغة التى اقتضاها المقام .

٥ – التذييل : وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة التوكيد ، ويختلف التذييل عن الإيغال السابق من عدة جهات وهى :

١ – أن الإيغال يكون بالجملة وبغير الجملة ، كما رأيت فى شواهده ، أما التذييل فلا يكون إلا بجملة ، كما سترى .

٢ – الإيغال يفيد التوكيد وغيره من الأغراض التى يأتى لها ، أما التذييل فهو للتوكيد خاصة .

٣ – التذييل يكون فى آخر الكلام وفى أثنائه ، أما الإيغال فلا يكون إلا فى آخر الكلام .

والتذييل ضربان : تذييل يجرى مجرى المثل وتذييل لا يجرى مجرى المثل ، فالأول هو أن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبله ، بمعنى أن جملة التذييل تفيد معنى يمكن استقلالها بإفادته عما قبلها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . .﴾[2] ، فقوله : «إن الباطل كان زهوقا» ، تذييل أتى به لتأكيد الجملة قبله ، وهو جار مجرى المثل بمعنى أن الجملة الثانية مستقلة بمعناها عن الجملة الأولى ، وجارية على الألسنه كما تجرى الأمثال التى كثر استعمالها وفشا ، فهى لا تحتاج فى إفادة معناها إلى الجملة السابقة . . ومن هذا الضرب قول النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب[3]

فقوله : «أى الرجال المهذب» ؟ تذييل جرى مجرى المثل ، حيث يجرى على الألسنة مستقلاً عما قبله . . ومثله قول الحطيئة :

---

(١) سورة الذاريات : ٢٣ .

(٢) سورة الإسراء : ٨١ .

(٣) لا تلمه : لا تضمه . والشعث في الأصل انتشار شعر الرأس وتغيره فتكثر أوساخه والمراد به هنا العيب على سبيل الاستعارة ، والاستفهام في البيت استفهام إنكاري بمعنى لا يوجد .

نزور فتى يعطى على الحمد ماله ... ومن يعط أثمان المكارم يحمد

الشطر الثانى تذييل للشطر الأول، خرج مخرج المثل .

والثانى وهو التذييل الذى لم يجر مجرى المثل، فهو مالا يستقل معناه، بل يتوقف على ما قبله، كما فى قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾[1]، فقوله : «وهل نجازى إلا الكفور»، تذييل غير جار مجرى المثل، لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله . . . ومنه قول الحماسى :

فدعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل

فقوله : «وعلام أركبه إذا لم أنزل ؟» تذييل غير جار مجرى المثل لأن فهم معناه يتوقف على ما قبله . . ومثله قول ابن نباته السعدى :

لم يبق جودك لى شيئاً أؤمله ... تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

وقد اجتمع التذييلان فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ..﴾[2]، فقوله : «وعداً عليه حقاً»، تذييل غير جار مجرى المثل لاحتياجه فى فهم معناه إلى ما قبله، وقوله «ومن أوفى بعهده من الله» ؟، تذييل خرج مخرج المثل السائر لتحقيق وتأكيد ما تقدمه، فهو تذييل ثان للتذييل الأول . . وكذا اجتمع الضربان فى قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3]. فقوله : «أفإن مت فهم الخالدون» تذييل غير جار مجرى المثل إذ يتوقف فهم معناه على ما قبله، وقوله : «كل نفس ذائقة الموت» تذييل جرى مجرى المثل، لجريانه على الألسنة وعدم توقف فهم معناه على ما قبله .

٦ - التكميل : ويسمى أيضاً بالاحتراس وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك التوهم، كما فى قول طرفة بن العبد :

---

(١) سورة سبأ ١٦ ، ١٧ .
(٢) سورة التوبة : ١١١ .
(٣) سورة الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥ .

فسقى ديارك - غير مفسدها -   صوب الربيع وديمة تهمى

فقوله : «غير مفسدها» احتراس عن المطر المسترسل الذى يسبب الخراب والدمار، لأن الديمة هى المطر المسترسل، وتهمى بمعنى تسيل والمطر إذا كثر وزاد عن حده سبب الخراب والدمار، فدفع الشاعر هذا التوهم بقوله : «غير مفسدها»، ومن أجل هذا عيب قول الشاعر :

ألا يا اسلمى يادارمىَّ على البلى   ولا زال منهلاً بجرعاك القطر

وقيل : لا عيب فى البيت، لأن الدعاء قرينة على عدم إرادة الضر، وللشاعر أن يكتفى بالدعاء فلا يحترس، وألا يكتفى به فيضم إليه الاحتراس . ومنه قول عبد الله بن المعتز فى وصف الخيل :

وخيل طواها السير حتى كأنها   أنابيب سمرٌ من قنا الخط ذُبَّلُ

صببنا عليها - ظالمين - سياطنا   فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

فقوله : «ظالمين» احتراس، حيث دفع به ما قد يتوهم من أنها كانت بطيئة فى المشى، ثقيلة فى السير، لا تجرى وتسرع إلا بالضرب واستعمال السياط، وهذا خلاف المقصود، لأن المقام مقام مدح ومنه قول الحماسى :

رهنت يدى بالعجز عن شكر بره   وما فوق شكرى للشكور مزيد

فالشطر الثانى من البيت احتراس، لأنه لما صرح فى الشطر الأول بعجزه عن شكر بره، ربما يتوهم متوهم أنه لم يقم بشىء من الشكر، فدفع هذا التوهم بالشطر الثانى الذى أفاد أن شكره ليس للشكور وهو المبالغ فى الشكر زيادة عليه .

ومنه قول كعب بن سعد الغنوى من قصيدة له فى رثاء أخيه أبى المغوار :

حليم إذا ما الحلم زين أهله   مع الحلم فى عين العدو مهيب

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز، ولذا احترس بقوله : «إذا ما الحلم زين أهله» فأزال هذا الوهم، ثم أكد الاحتراس بذلك التذييل : «مع الحلم فى عين العدو مهيب» .

ومنه قول السموءل بن عادياً :

ومـا مـات منّا سيـد فى فراشـه ... ولا طُلَّ منـا حيـث كـان قتيـل [1]

فقد وصف قومه بشمول القتل إياهم وأنه لم يمت واحد منهم على فراشه، وهذا الوصف يوهم ضعفهم وقلة شجاعتهم، فأزال هذا الوهم بالشطر الذى وصفهم بالانتصار من قاتليهم . .

. ومنه قول المتنبى :

أشد من الرياح الهـوج بطشـاً ... وأسـرع فى النـدى منهـا هبوبـاً

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش، لأوهم ذلك أنه عنف كله، ولا لطف عنده، فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة والندى، ولم يتجاوز فى الوصفين صفة الريح التى شبهه بها .

ومما جاء من هذا النوع فى النظم الكريم قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[2]، فقوله جل وعلا : «غير أولى الضرر»، احتراس يدفع توهم أن القاعد بعذر داخل فى مفهوم عدم الاستواء المذكور وقوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ..﴾[3]، فقوله : «من غير سوء» احتراس من نحو البهق والبرص .

هذا ولا يخفى عليك بالنظر فى الشواهد المذكورة أن الاحتراس قد يتوسط الكلام، وقد يقع فى آخره .

٧ - التتميم : وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل المفعول أو الحال أو الجار والمجرور، ونحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة، ولا ركناً من أركان الكلام، وذلك لإفادة نكتة بلاغية كما فى قوله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[4]، وقوله جل وعلا : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ..﴾[5]، وقوله عز وجل : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ..﴾[6]، فإن قوله عز من قائل : «على حبه»، «مما تحبون» فضلة، وتركها لا يجعل الكلام موهماً خلاف المقصود، وقد أتى بها فى

---

(١) طل : بمعنى أهدر دمه ولم يقتص له.

(٢) سورة النساء : ٩٥ .

(٣) سورة النمل : ١٢ .

(٤) سورة الإنسان : ٨ .

(٥) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٦) سورة آل عمران : ٩٢ .

النظم الكريم لنكتة بلاغية وهى إفادة المبالغة فى مدح هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ويطعمون وينفقون مالاً قد أحبوه وطعاماً قد اشتهوه وأرادوه . . وقيل إن الضمير فى قوله : «على حبه»، لله عز وجل لا للمال، أى: على حب الله، وعندئذ فلا إطناب فى الآيتين، لأن الإنفاق لا يمدح شرعاً إلا إذا كان ابتغاء وجه الله لا لرياء ونحوه، فالجار والمجرور «على حبه» صار عندئذ مراداً، لا زائداً على أصل الكلام .

ومنه قول زهير :

من يلق يوماً على علاته هرماً   يلق السماحة منه والندى خلقاً (١)

فقوله : «على علاته» تتميم حسن أفادة المبالغة فى المديح . .

وقول الآخر :

إنى على ما ترين من كبرى   أعرف من أين تؤكل الكتف

يريد أنه داهية، لأن الكتف تؤكل من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، ولذا يكنى عن الداهية بقولهم : يعرف من أين تؤكل الكتف، ويضرب هذا القول مثلاً للإنسان الذى يعرف مداخل الأمور، وكيف يصل إلى المكنونات داخل الإنسان، فقول الشاعر : «على ما ترين من كبرى»، تتميم جميل قصد به المبالغة فيما وصف به نفسه . .

ويتضح لك مما سبق أن التتميم يختلف عن الإيغال من جهتين :

١ - التتميم مقيد بكونه فضلة، والإيغال لا يتقيد بهذا .

٢ - التتميم يكون فى وسط الكلام وفى آخره، أما الإيغال فلا يكون إلا فى آخر الكلام . . كما يختلف التتميم عن التكميل من جهتين أيضاً :

١ - التكميل يدفع به توهم غير المراد، والتتميم لا يدفع به إيهاماً وإنما يؤتى به لنكتة بلاغية أخرى .

٢ - التتميم مقد بكونه فضلة، والتكميل لا يتقيد بذلك . .

٨ - الاعتراض : وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام الواحد أو بين كلامين متصلين فى المعنى بأن يكون ثانيهما تأكيداً لأولهما أو بياناً له أو بدلاً أو معطوفا بجملة أو أكثر لا محل

---

(١) على علاته : العلات جمع علة والمراد بها ما ينوبه من قلة ذات اليد والعوز والاحتياج .

لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام، وذلك كالتنزيه في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ - سُبْحَانَهُ - وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾(١)، فجملة «سبحانه» جملة اعتراضية والغرض منها: تنزيهه تعالى عن اتخاذ البنات . . . و«سبحان» جملة؛ لأنها واقعة موقع المصدر الذى هو التنزيه والمعنى: أنزهه تنزيهاً . . وكالتعظيم فى قوله جل وعلا: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾(٢)، فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»، وداخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو «لو تعلمون» وقد أريد بالاعتراضين تعظيم القسم وتفخيم أمره، وفى ذلك تعظيم للمقسم عليه وهو القرآن الكريم، وتنويه برفعة شأنه .

وكالتقرير فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ..﴾(٣)، فجملة «لقد علمتم» جملة معترضة بين القسم والجواب لتقرير علم المخاطبين بالبراءة من الفساد والبعد عن تهمة السرقة . . . وكالدعاء فى قول الشاعر:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

يخبر الشاعر بتقدم سنه وضعف سمعه حتى قد صار يحتاج إلى من يكرر له القول ليسمع، وجملة: «وبلغتها» جملة معترضة أريد بها الدعاء للمخاطب بطول العمر، وإثارة عطفه على الشاعر .

وكالتصريح بما هو المقصود فى قول كثير عزة:

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك لعلموا الناس المطالا

فقوله: «وأنت منهم» جملة اعتراضية أريد بها التصريح بما هو مقصود من ذمها، وتأكيد انصراف الذم إليها .

والتنبيه كما فى قول الشاعر:

واعلم - فعلم المرء ينفعه - أن سوف يأتى كل ما قدرا

---

(١) سورة النحل: ٥٧ .
(٢) سورة الواقعة: ٧٥ - ٧٧ .
(٣) سورة يوسف: ٧٣ .

فجملة: «فعلم المرء بنفعه» جملة اعتراضية، الغرض منها التنبيه على فضل العلم ونفعه لصاحبه . . ومثله قول الآخر:

فلا هجره يبدو - وفى اليأس راحة - ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

فجملة: «وفى اليأس راحة»، اعتراضية، أريد بها التنبيه إلى سبب طلبه الهجر، وذلك لأن طلب هجر الحبيب وتمنى وقوعه أمر فيه غرابة، فبين الشاعر بالجملة الاعتراضية أنه لم يتمن هذا إلا بعد اليأس وانقطاع الأمل من وصله: «وفى اليأس راحة».

وكالاستعطاف فى قول المتنبى:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه - يا جنتى - لرأيت فيه جهنم

فقوله: «يا جنتى» جملة اعتراضية، لأنها بمعنى: أدعو، والغرض منها الاستعطاف والاستلطاف ومما جاء بأكثر من جملة قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ - حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ - أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾(1)، فقوله: «أن اشكر لى ولوالديك» تفسير لقوله: «وصينا»، وقوله «حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين» اعتراض بينهما، وقد أريد به تأكيد التوصية بالأم والتذكير بحقها العظيم على الأبناء لما عانته وقاسته من آلام . . وقوله عز وجل: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ .. ﴾(2)، فقوله جل وعلا: «والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى»، اعتراض وقع بين قولى امرأة عمران يفيد تأكيد ما أخبرت به . . . وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴾(3)، فقوله: «نساؤكم حرث لكم» بيان لقوله: «فأتوهن من حيث أمركم الله» وقد اعترض بينهما بقوله عز وجل: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»، والغرض من هذا الاعتراض: الترغيب فيما أمر الله به والتنفير عما نهى عنه، إذ الغرض الأصلى فى الإتيان هو طلب النسل، لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من حيث يتأتى من الإتيان تحقيق هذا الغرض، وفى الاعتراض بما ذكر ترغيب فى الأمر وتنفير من النهى .

---

(1) سورة لقمان: ١٤ . (2) سورة آل عمران: ٣٦ .

(3) سورة البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣ .

هذا ويتضح لك من الشواهد المذكورة أن الاعتراض قد يأتى بغير الواو والفاء، وقد يأتى بإحداهما فتسمى - الواو أو الفاء» عندئذ واو الاعتراض أو فاء الاعتراض، وتختلف واو الاعتراض، عن واو العطف أو الحال، والتمييز بين تلك الواوات، قد يكون بيناً واضحاً وقد يدق ويغمض بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتروى، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم..﴾[1]، تجد أنَّ الواو فى قوله: «وأنتم ظالمون»، صالحة لأن تكون واو الحال ولأن تكون اعتراضية، لأنه إذا قصد تقييد الاتخاذ بالجملة، كانت الواو حالية والمعنى: ثم اتخذتم العجل حال كونكم ظالمين باتخاذه، وإذا قصد استقلال جملة: «أنتم ظالمون» عن الاتخاذ، كانت الواو اعتراضية والمعنى: ثم اتخذتم العجل وأنتم قوم عادتكم الظلم، فتكون جملة اعتراضية أتى بها تأكيداً لظلمهم ولم يقصد بها الارتباط بالاتخاذ المذكور ... ولذا تجد أن تمييز واو الحال ومثلها واو العطف من واو الاعتراض، قد يدق ويغمض بحيث يحتاج منك إلى مزيد من التأمل ومراجعة السياق .

ومما ينبغى أن تقف عليه وتعلمه، أن الإطناب ليس مقصوراً على تلك الأنواع التى ذكرناها، بل قد يقع بغيرها، فمن مقاماته: مقامات الذكر التى مرت بك فى أحوال المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل . ومنها ما يكون بالإفاضة فى جواب الاستفهام حيث يقتضى المقام الإطناب وامتداد القول كما رأينا فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ: هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[2]، وكما فى قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[3]، فقد كان يكفى أن يقال فى الجواب، «أصناماً»، ولكنهم أطنبوا فذكروا كلمة: «نعبد» ثم أضافوا: «فنظل لها عاكفين»، ليظهروا ابتهاجهم بعبادتها، وافتخارهم بالمواظبة على تلك العبادة، ويريدون بهذا الإطناب أن يزداد غيظ السائل وهو إبراهيم عليه السلام ... ومن الإطناب زيادة بعض الأحرف فى النظم لتحقيق غرض من الأغراض البلاغية، كزيادة «أن بعد «لمَّا» فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ

---

(١) سورة البقرة: ٥١، ٥٢ .

(٢) سورة طه: ١٨ .

(٣) سورة الشعراء: ٦٩ - ٧١ .

بصيـــراً ..﴾[1]، فـزيادة «أن» بعـد لمّا فى الآية الكريمـة، دلّت على أنّ المجىء لـم يكـن على الفور بل كـان هناك تراخ وتباطؤ، لبعدما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وكـذا قوله تعـالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْس..﴾[2]، فقد زيدت «أن» بعد لما، للدلالة على أن موسى عليه السلام لـم يسارع إلى قتل الثانى كما سارع إلى قتل الأول.

وكـزيادة «ما» بعد «إذا» فى نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيـنَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ..﴾[3]، فـزيادة «مـا» فى الآيـة الكريمة دلت على ندرة حـدوث الغضب من هؤلاء فـهم لا يغضبـون إلا قليلاً وإذا ما غضبـوا هم يغفـرون ويعـفـون عـمن أغضبهم.

وفى قول الشاعر:

إذا ما غضبِنـا غضبــة مُضَريـــة   هتكنا حجاب الشمس أو قَطَرت دَماً

دلت زيادة «ما» على أنهم لا يغضبون إلا حين يوجب الحزم أن يغضبوا، فـهم يعـفـون كـثيراً ولا يغـضبـون إلا نادراً، وحين يضطرهـم الغير إلى الـغضب ينتقـمون شر انتـقام، فغضبتهم إنما هى غضبة الحليم . . . ومن الإطناب زيادة بعض الكلمات التى يفيد زيادتها تأكيد اًاقتضاه المقام، على نحو ما رأينا فى مثل قولهم رأيته بعينى وسمعته بأذنى وقلته بفمى وقـوله تعـالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[4]، وقـوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾[5]، وقوله تـعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[6].

---

(١) سورة يوسف: ٩٦ .
(٢) سورة القصص: ١٩ .
(٣) سورة الشورى: ٣٧ .
(٤) سورة النور: ١٥ .
(٥) سورة الأحزاب: ٤ .
(٦) سورة النحل: ٢٦ .

فالرؤية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن والقول لا يكون إلا بالفم والألسنة، والقلب لا يوجد إلا فى الجوف والسقف لا يكون إلا من فوق، وقد زيدت تلك الكلمات لإفادة التوكيد الذى اقتضاه المقام على نحو ما وضحت لك فيما سبق .

وبهذا يتبين لك أن الإطناب ليس مقصوراً على تلك الأنواع المذكورة، بل يتعداها إلى كل زيادة فى النظم أفادت معنى يقتضيه المقام ويتطلبه .

❐ ❐ ❐

المساواة

قالوا فى تعريفها : إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له، بأن تكون الألفاظ على قدر المعانى، لا يزيد بعضها عن بعض، ولا ينقص . . . وقد اتخذوا من متعارف الأوساط مقياساً يقيسون عليه الكلام، فالكلام إذا قل عن متعارف الأوساط كان إيجازاً، وإذا زاد عنه كان إطناباً، وإذا جاء على حد متعارف الأوساط فهو المساواة وهى فى باب البلاغة لا تحمدو لا تذم . واستشهدوا لها بنحو قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ..﴾[2]، وقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات» وقول النابغة الذبيانى:

فإنك كالليل الذى هـو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول طرفة بن العبد:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول زهير:

ومهما يكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

هذا ولم تسلم هذه الشواهد التى استشهد بها البلاغيون للمساواة، لأنك عند التأمل تجدها راجعة إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب، فمثلاً فى الآية الأولى إذا رجعت إلى سياقها فى النظم الكريم: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه﴾ تراها قد وقعت تذييلاً، والتذييل - كما عرفت - من أنواع الإطناب، ثم إنها أسلوب قصر، والقصر من الإيجاز، وقوله تعالى: «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا . . .» الآية، وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم . «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات»، لا يخفى عليك رجوعهما إلى إيجاز القصر، لأن المعانى التى تكمن فى الآية الكريمة والحديث الشريف معان كثيرة غزيرة، وألفاظهما قليلة - كما ترى - وهذا هو إيجاز القصر الذى مر بك . . . وتجد الشطر الثانى من بيت النابغة: «وإن خلت أن المنتأى عنك واسع» تذييلاً غير

(١) سورة فاطر: ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام: ٦٨ .

جار مجرى المثل، كما تجد فى الشطر الأول من بيت طرفة إيجازاً بحذف الجار والمجرور والتقدير : ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً به . . . وفى بيت زهير تجد قوله : «وإن خالها تخفى على الناس» اعتراضاً بين الشرط وجوابه .

وهكذا تستطيع أن ترجع ما استشهد به البلاغيون للمساواة، إما إلى الإيجاز وإما إلى الإطناب، فالأولى أن تجعل المساواة قاصرة على كلام الأوساط لأنها نادرة الوقوع فى التعبيرات الجيدة والكلام البليغ، ولأن البلاغيين قد جعلوها خالية من جميع الاعتبارات البلاغة وقالوا: إنها لا تحمد ولا تذم فى باب البلاغة .

تم بحمد اللّه تعالى فى ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧هـ .

الموافق ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦م .

والحمد للّه أولاً وآخراً . . وصلى اللّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

www.lisanarb.com

أهم مراجع الكتاب

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة الحلبى ١٣٩٨هـ.

٢ - أسرار البلاغة لعبد القاهر . ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢هـ . ت : محمد عبد المنعم خفاجى .

٣ - الأسلوب للدكتور أحمد الشايب . طبعة السعادة . الطبعة الخامسة .

٤ - أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم من الوجهة البلاغية للدكتور بسيونى عبد الفتاح مخطوط بالأزهر «رسائل» .

٥ - إعجاز القرآن للباقلانى . ط : دار المعرف ١٩٧٧م ت : السيد صقر .

٦ - أمالى المرتضى ط : الحلبى ١٣٧٣هـ ت : محمد أبو الفضل إبراهيم .

٧ - الإيضاح للقزوينى وبهامشه البغية للصعيدى، ط : صبيح ١٣٩٢هـ .

٨ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ط : دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧م، ت : محمد أبو الفضل .

٩ - البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى ، ط : دار الفكر العربى .

١٠ - البيان والتبيين للجاحظ ، ط : الخانجى ، ت : عبد السلام هارون .

١١ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ط : الحلبى ١٣٧٣هـ .

١٢ - تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار ، ط : دار النهضة - بيروت .

١٣ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، ط : دار المعارف ١٩٧٦م .

١٤ - جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، ط : جامعة الإمام محمد بن سعود ، ت : محمد الهاشمى .

١٥ - حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ، ط : دار الطباعة الخديوية .

١٦ - الحيوان للجاحظ ، ط : الساسى ١٩٥٠م .

١٧ - الخصائص لابن جنى ، ط : دار الهدى ببيروت ، ت : محمد على النجار .

١٨ - خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، ط : دار التضامن ١٩٨٠م .

١٩ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط : الفجالة ت : محمد عبد المنعم خفاجى .

٢٠ - دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، دار المعلم ١٣٩٩هـ .

٢١ - روح المعانى للألوسى ط : دار إحياء التراث العربى ببيروت .

٢٢ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، ط : الخانجى ، ت : على فودة .

٢٣ - شروح التخليص .

٢٤ - شرح المعلقات للزوزنى ، ط : المطبعة التجارية ١٩٧١م .

٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ط : دار المعرف ١٩٦٧م ، ت : أحمد شاكر .

٢٦ - الصاحبى لأحمد بن فارس ، ط : المؤيد ١٣١٨هـ .

٢٧ - الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، ط : الحلبى ١٩٧١ م .

٢٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ط : المدنى ، ت : الأستاذ محمود شاكر .

٢٩ - الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ، ط . المقتطف ١٣٢٢هـ .

٣٠ - عقود الجمان للسيوطى ، المطبعة الشرقية ١٣٠٥هـ .

٣١ - العمدة لابن رشيق ، ط : دار الجيل ، ت : محمد محى الدين .

٣٢ - عيار الشعر لابن طباطبا ، ط : شركة فن الطباعة ١٩٥٦م .

٣٣ - الكتاب لسيبويه ، ط : الهيئة المصرية ١٩٧٧م ، ت : عبد السلام هارون .

٣٤ - الكشاف للزمخشرى، ط : الحلبى ١٣٩٨هـ .

٣٥ - الكامل للمبرد، ط : نهضة مصر ١٩٥٦م، ت : محمد أبو الفضل .

٣٦ - لسان العرب لابن منظور، ط : دار المعارف .

٣٧ - متشابه القرآن لعبد الجبار، ط : دار النصر ١٩٦٩م، ت : عدنان زرزور .

٣٨ - المثل السائر لابن الأثير، ط : الحلبى، ت : محمد محى الدين .

٣٩ - مجمع الأمثال للميدانى مطبعة السعادة ١٣٧٩هـ، ت : محمد محى الدين .

٤٠ - مجاز القرآن لأبى عبيدة، ط : الخانجى، ت : محمد فؤاد .

٤١ - معانى القرآن للفراء . ط : الهيئة المصرية ١٩٨٠م .

٤٢ - المطول لسعد الدين التفتازانى .

٤٣ - معاهد التنصيص على شواهد التخليص للعباسى، ط . السعادة، ت : محمد محى الدين .

٤٤ - المغنى للقاضى عبد الجبار ج ١٦ فى إعجاز القرآن، ط : وزارة الثقافة .

٤٥ - مغنى اللبيب لابن هشام مطبعة المدنى، ت : محمد محى الدين .

٤٦ - مفتاح العلوم للسكاكى . ط : الحلبى ١٣٥٦هـ .

٤٧ - المفضليات للضبى ط : دار المعرف، الطبعة الخامسة، ت : محمود شاكر .

٤٨ - مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم الخولى، مخطوط بالأزهر «رسائل» .

٤٩ - من أسرار التعبير القرآنى للدكتور محمد أبو موسى، ط : دار الفكر العربى ١٣٩٦هـ.

٥٠ - من بلاغة النظم العربى للدكتور عبد العزيز عرفه، ط : دار الطباعة المحمدية ١٤٠٢هـ .

٥١ - مناهج تجديد لأمين الخولى، ط : دار المعرفة ١٩٦١م .

٥٢ - الموطأ للإمام مالك، ط : الحلبى ١٣٧٠هـ .

٥٣ - الموازانة للآمدى، ط : المعارف ١٣٨٠هـ، ت : السيد صقر .

٥٤ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ .

٥٥ - النقد الأدبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م .

٥٦ - النقد الأدبى لسيد قطب . ط : دار الفكر العربى ١٩٥٤م .

٥٧ - النقد المنهجى عند العرب للدكتور محمد مندور ط : نهضة مصر ١٩٧٢م .

٥٨ - نقد الشعر لقدامة، ط : مطبعة أنصار السنة ١٩٤٩م ت : كمال مصطفى .

٥٩ - نقد النثر «البرهان فى وجوه البيان» لابن وهب، مطبعة مصر ١٩٣٩م ت : طه حسين وعبد الحميد العبادى .

٦٠ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى . مطبعة الآداب ١٣١٧هـ .

٦١ - الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ط : الحلبى ت : محمد أبو الفضل .

٦٢ - يتيمة الدهر للثعالبى، ط : الصاوى ١٩٣٤م.

محتويات الجزء الثاني